بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)
إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : إلهام سراج عمر أكبر / كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، قسم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية .
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : التاريخ الإسلامي .
عنوان الأطروحة : (بلاد ينبع دراسة تاريخية حضارية ٣٦٢-٩٢٣هـ/٩٧٣-١٥١٧م)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :
فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٢/٦/١٤٢٠هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .
والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش	المناقش
الاسم : د.محمد المنسي محمود عاصي	الاسم : د.سليمان عبد الغني مالكي	الاسم : د.فوزي محمد ساعاتي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
الاسم :أ.د. ضيف الله بن يحيى الزهراني
التوقيع :
٢٤/٦

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى ــ مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

بلاد ينبع
دراسة تاريخية حضارية
(٣٦٢-٩٢٣هـ/٩٧٣-١٥١٧م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد

الطالبة/إلهام سراج عمر أكبر

إشراف

أ.د. محمد المنسي محمود عاصي

١٤١٩هـ/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل رب زدني علما﴾

صدق الله العظيم

من لي برد أويقات لنا سلفت		في (ينبع) الخير والآمال والأدب

خير البلاد وأرجاها وأقربها		نفعا وأرجحها كسبا لمكتسب

وكيف لاوهي من دون البلاد غدت		بابا لبلدة (طه المصطفى) العربي

للشاعر : عبد الرحيم القفطي

الإهداء

إلى روح والدي الطاهرة رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وجزاه عني خير الجزاء .

إلى من أكملت المسيرة وأضاءت شموع الأمل في نفوسنا .. إلى أمي الحبيبة أطال الله في عمرها .

إلى ابني واخوتي الذين تطلعوا بشوق وأمل لاكتمال هذا الجهد المتواضع .. وفاء وعرفانا .

الهام أكبر

شكر وتقدير

الحمد لله القائل في كتابه الكريم {لئن شكرتم لأزيدنكم} .

فالحمد لله والشكر والثناء لله عز وجل الذي أعانني ووفقني إلى إكمال هذا البحث .

وإذا كان الفضل يجب أن ينسب إلى أهله ، وإذا كان الاعتراف بالجميل واجبا في الأعناق يجب أن يذكر لذويه ، فيطيب لي في هذا المقام أن أقدم شكري وعظيم التقدير والامتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور محمد المنسي محمود عاصي على تفضله بالإشراف على هذه الرسالة وماقدمه لي من توجيهات علمية قيمة وجهود متواصلة وعطاء مستمر ورحابة صدر وسمو خلق وآراء سديدة كان لها الأثر الكبير في إخراج هذا البحث بصورة أرجو من الله أن تكون موفقة ، فله مني الشكر والتقدير وجزاه الله تعالى خير الجزاء .

كما أتوجه بالشكر إلى الدكتور فواز علي الدهاس المشرف السابق لما قدمه لي من مساعدة في بناء اللبنة الأولى للرسالة ، كما أخص بالشكر والتقدير الدكتور سليمان مالكي والدكتور عبد الله سعيد الغامدي الأستاذين بجامعة أم القرى ، والأستاذين الكريمين الأستاذ عبد الكريم محمود الخطيب عضو اتحاد المؤرخين العرب والأستاذ عاتق غيث البلادي على ماقدموه لي من مساعدات ونصائح علمية كان لها قيمة في إثراء البحث ، وعلى ماقدموه لي من كتبهم ومؤلفاتهم التي أفادتني فائدة جزيلة ، كما أقدم اسمى آيات الشكر إلى الدكتورة هيفاء فدى وكيلة عميد شئون المكتبات على الخدمات المكتبية الكبيرة التي قدمتها من المكتبة المركزية بالجامعة . كما أشكر كل من قدم لي نصحا أو يسر لي الحصول على كتاب أو نصيحة علمية من زميلاتء ولكل من ساعدني . جزاهم الله جميعا عني وعن طلاب العلم خير الجزاء وجعله في موازين أعمالهم .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على خير معلم للبشرية محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد.

من أشرف البحوث والدراسات التاريخية والحضارية ، هي تلك البحوث التي تهتم بتاريخ شبه الجزيرة العربية ولاغرو في ذلك فلقد أعزها الله بالإسلام وجعلها قبلة للمسلمين ، وحمل أبناؤها نور الحق واليقين إلى أنحاء المعمورة .

وبلاد ينبع جزء غال من أجزاء إقليم الحجاز له تاريخه المرتبط داخليا بأسر الأشراف التي تعاقبت على إمرة مكة المكرمة والمدينة المنورة بداية من الربع الأخير من القرن الرابع الهجري حتى العصر السعودي الزاهر .

فلقد كان الأشراف الحسنيون أمراء مكة من الأسرات العلوية التي عاشت في ينبع ونزحت منها إلى مكة وغيرها من مدن الحجاز وكان لها دور في صنع أحداث التاريخ والتأثير على مجرياته ، كما ارتبطت بلاد ينبع بالأحداث الهامة السياسية والاقتصادية ومختلف التغيرات التي طرأت على اقليم الحجاز بعد تطلع عدد من الدول للسيطرة عليه لاسباغ الشرعية على حكمهم ، وليظهروا أمام العالم الإسلامي بصورة مشرفة على أنهم حماة الحرمين الشريفين مثل الفاطميين والأيوبيين والمماليك .

كما أن لينبع النخل شهرة واسعة في تاريخ أحداث صدر الإسلام إذ عاصرت بعض الأحداث العسكرية والسياسية الهامة التي وقعت بين الرسول ﷺ وبين كفار مكة في العيص وبواط والعشيرة بسبب وقوعها على الطريق التجاري بين الحجاز والشام .

كما استقبلت هذه المنطقة المهاجرين من المسلمين العائدين من الحبشة إلى المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية .

وانطلق منها مبعوث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام .

كما ينتسب إليها عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم ، من الأعلام المشهورين كعقبة بن عامر الجهني الذي شهد بدرا سنة ٢هـ واشترك مع قوات عمرو بن العاص في فتح مصر ٢١هـ ، كما كان قائدا للغزو البحري في عهد معاوية رضي الله عنه .

وأبو دلف الخزرجي الينبعي الذي يكنى بالرحالة الحجازي ، وابن زبالة مؤرخ المدينة المنورة .

وقتادة بن ادريس الذي كان له ولأسرته دور كبير في تاريخ مكة والمدينة خاصة وبلاد ينبع عامة .

ولقد اهتم الجغرافيون والرحالة المسلمون بينبع باعتبارها أهم محطات طرق الحج المصري والشامي والمغربي ، كما اهتم بها المؤرخون باعتبارها من مرافئ الطريق التجاري الجديد ، بعد أن عطل المغول طرق التجارة القديمة عبر آسيا .

واعتبارا من أواخر القرن السادس تبوأت ينبع مكانة استراتيجية هامة على ساحل البحر الأحمر الغربي بعد تعطل ميناء الجار ولعب الأيوبيون دورا تجاريا وحضاريا هاما في ينبع حتى أصبح ثغرا رئيسيا للمدينة المنورة .

وفي عهد المماليك تحولت ينبع إلى مدينة تجارية كبيرة ، وميناء حيوي على البحر الأحمر له دوره البارز في تاريخ الحرمين الشريفين .

من هذا المنطلق يكمن العامل الرئيسي في اختيار موضوع البحث المقدم إلى جامعة أم القرى ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي وعنوانها (بلاد ينبع دراسة تاريخية حضارية ٣٦٢-٩٢٣هـ/ ٩٧٣-١٥١٧م) .

<u>ولقد كان لهذا البحث أهميته وأهدافه التي قصدت إلى ابرازهـا ولعـل منها</u> :

(١) تكمن أهمية البحث في أنه موضوع جديد لم يتناوله أحد من البـاحثين بالدراسة التاريخية التفصيلية ، فمازال جزء كبير مـن حيـاة المـدن الإسلامية يسودها الغموض ولم يعتن المؤرخون بالتدوين لها ، اللهـم إلا باشارات موجزة في المصادر المختلفة .

(٢) القاء الضوء على نشاط ينبع التجاري والسياسي ، إذ أن دورها – في الأغلب والأعم – كان خارجا عن حدود المتفرج إلى المشاركة في صنع الأحداث خاصة أنها تقع في منطقة متوسطة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة بالاضافة إلى أهميتها كميناء هام على سواحل البحر الأحمر .

(٣) جمع ماتفرق من المعلومـات المتنـاثرة الصغـيرة عـن ينبـع مـن المخطوطات والمصادر ومؤلفات الرحالة والجغرافيين وإعدادها إعدادا تاريخيا ونسيجا واحدا متكاملا ، حتى يخرج في صورة تاريخية مكتملة المعالم .

(٤) القاء الضوء على مكانة ينبع كمحطة من أبرز محطات الطريق الـبري والبحري للحجيج المصري والشامي والمغربي ولم أسلك منهج غـيري من الباحثين الذين تطرقوا في أبحاثهم إلى وصف الطريق كله بمحطاته ومرافقه مع سرد للتفصيلات الواسعة والجوانب البعيدة .

(٥) دراسة بعض الجوانب الحضارية في ينبع وجمع ماتفرق من شـواردها ولانكون مبالغين عندما نشير إلى أن الجوانب الحضارية كـانت أكـثر ندرة وتفرقا من الأخبار التاريخية لينبع .

وندرة المعلومات عن ينبع كانت مشكلة واجهت بعض أساتذة البـاحثين كالأستاذ حمد الجاسر عندما قال في مستهل دراسته عن ينبـع : "إنـه ليـس

تاريخا مسلسل الحوادث مرتب النتائج وإنما الحديث من قبيل الوصف الشامل والانطباعات الشخصية" ، كما أشار إلى ندرة ماكتب عن بلاد ينبع .

ولقد واجهتني أثناء إعداد هذا البحث صعوبات كثيرة لعل من أهمها :

(١) كثرة المصادر التي اطلعت عليها في الجغرافيا والتاريخ السياسي والحضاري وكتب الرحالة ، وإذا كانت كثرة المصادر في موضوع ما تثريه وتنمي معلوماته وتوضح صورته ومعالمه ، فإن المصادر عن ينبع كانت شحيحة بسيطة ، متضاربة أحيانا ، مما استلزم معه بذل مزيد من الجهد في البحث في مصادر ومراجع تتعلق بتاريخ بعض الدول كالطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر ، والرسوليين في اليمن ، والعباسيين ودول المغول ـ فيما بعد ـ في العراق .

(٢) صعوبة الاتصال ببعض البحاثة من علماء الأنساب من الأشراف وحصولي منهم على بعض مشجرات الأنساب للسبطين الشريفين في المدينة وينبع ، وصعوبة قراءتها والاستعانة بها في كتابة البحث .

(٣) الزيارة التي قمت بها إلى ينبع ، ويعلم الله مقدار الجهد الذي بذلته للحصول على بعض العملومات من إدارة التعليم والجمعية الجغرافية بها وزيارة كل المناطق التي تناولتها بالبحث والدراسة وتصوير كثير من المعالم التي أبرزت بعض صورها الفوتوغرافية في ملاحق البحث ، كما اتصلت ببعض أشرافها وحصلت منهم على معلومات أثرت بعض جوانب البحث .

وقد اشتملت الرسالة على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة وعدد هام من الملاحق وخرائط مفصلة لمدينة ينبع والمنطقة الساحلية والداخلية ، وفهرس لأهم مخطوطات ومصادر البحث ومراجعه ، ثم ختمت بفهرس للموضوعات .

فأما المقدمة : فاقتصرت فيها على سبب اختيار الموضـــوع وأهميتـــه والصعوبات التي واجهتني ، واستعراض لموضوعات الرســـالة ومباحثهـــا ، وعرض لأهم مصادر البحث ومراجعه .

وفي التمهيد : عرفت تعريفا تاريخيا وجغرافيا موجـــزا بمنطقـــة ينبـــع وأهميتها في إطار الموقع العام بمنطقة الحجاز ، كما تطرقت إلى أهمية ينبـــع في العصور القديمة ، وإلى إدراك كل الدول لأهمية موقعها ، كما اســـتعرضت بعض الأحداث التاريخية التي وقعت بها في مستهل عصر النبوة وعصر الدولة الإسلامية .

وكان الفصل الأول من البحث عنوانه (الإطار الجغرافـــي لبـــلاد ينبـــع) وتحدثت فيه عن المباحث الآتية :

(١) المبحث الأول وعنوانه (الموقع العام لبلاد ينبع) :

وتحدثت فيه عن الموقع العام للمنطقة واختلاف اسمها في كتب المعاجم من الناحية اللغوية وسبب تسميتها بذلك الاسم لوجود الينابيع وعدد الينـــابيع فيها والذي كان السبب في ازدياد كثافتها السكانية وانقسام المنطقة إلى قسمين ينبع النخل وينبع البحر وموقعها بالنسبة لمكة المكرمـــة والمدينـــة المنـــورة وحدودها بشكل عام حسب المناطق المجاورة لها .

(٢) المبحث الثاني وعنوانه (موقع ينبع البحر وينبع النخل) :

وتحدثت فيه عن كل منطقة وماتتميز به من خصائص وموقع كل منطقة بشكل عام والأنشطة التقليدية فيها ، هذا بالنسبة لينبع النخل أما ينبع البحـــر فقد تحدثت فيه عن موقعها كميناء وما سبقها في تلك المنطقة كميناء الجـــار وسبب تسمية ينبع البحر بذلك الاسم وأهميته التجارية والدور الذي قـــام بـــه بالنسبة لموقعه .

(٣) المبحث الثالث وعنوانه (خصائص الموقع) :

وذكرت فيه خصائص كل من ينبع البحر ودورها التجاري وأهميتها لقوافل الحجيج واستخدامها في نقل المساعدات من مصر واليمن ، هذا بالإضافة إلى نقل الحجاج والمسافرين عن طريق ميناءها ، أما بالنسبة لينبع النخل وماتشتهر به من مزارع وقرى وعيون ساهمت بانتاجها الزراعي من الناحية التجارية .

(٤) المبحث الرابع وعنوانه (أشهر الجبال والأودية والعيون) :

وبينت فيه الكثير من الجبال المشهورة والأودية ومسمياتها والعيون كذلك إضافة إلى العديد من الآبار .

(٥) المبحث الخامس وعنوانه (القبائل التي سكنت المنطقة) :

وبينت فيه القبائل والبطون التي سكنت المنطقة والتي كان لها دورها السياسي والعسكري ومقر كل قبيلة وفي أي منطقة سكنت والتي منها جهينة وحرب والأشراف العبابشة ، إضافة إلى الحسنيين حيث ينقسمون إلى فرق منها الأنصار ـ وليث ـ وجهينة إضافة إلى قبيلة بني ضمرة قوم عزة كثير إضافة إلى الوافدين من أهل مصر والشام وفئة من الأتراك .

وتناول الفصل الثاني (النشاط السياسي في ينبع منذ بداية عهد الأشراف حتى نهاية العصر المملوكي) واشتمل على عدة مباحث :

(١) المبحث الأول وعنوانه (قيام حكومة الأشراف في الحجاز ودور ينبع في قيامها) :

وذكرت فيه طبقات الأشراف التي قامت في الحجاز منذ سنة ٣٦٢هـ/٩٦٨م وهي طبقة الموسويين نسبة إلى جدهم موسى بن عبد الله بن موسى الجون وطبقة السليمانيين أبناء عمومة الأشراف السابقين ودورهم مع الخلافتين العباسية والفاطمية ، كما تحدثت عن طبقة الهواشم نسبة إلى محمد

بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم محمد بن الحسين وسموا بالجعافرة نسبة إلى محمد بن جعفر ثم الطبقة الرابعة وهم آل قتادة واستمرار حكمهم حتى العهد السعودي الزاهر .

(٢) المبحث الثاني وعنوانه (أمراء ينبع وأبرز أحداث عصرهم) :

وتحدثت فيه عن الأمراء الذين خرجوا من ينبع ودورهم السياسي وعلاقتهم مع أقربائهم في مكة والدور السياسي الذي قاموا به مع حكام مكة المكرمة والمدينة المنورة وحاولت جاهدة حصر عدد كبير من الأمراء الذين حكموا ينبع والدور الذي قاموا به في منطقتهم .

(٣) المبحث الثالث وعنوانه (علاقة ينبع بالمدينة المنورة) :

وذكرت فيه دور ينبع وصلتها بالمدينة المنورة وحكامها والمساعدات التي قدمها أمراء ينبع لأمراء المدينة ومساعدة أمراء المدينة لأمراء ينبع بني عمومتهم حيث سكن ينبع الحسنيون وسكن المدينة الحسينيون .

(٤) المبحث الرابع وعنوانه (علاقة ينبع بمكة المكرمة) :

وذكرت فيه دور الأمراء الذين خرجوا من ينبع من العلقمية وحكموا مكة المكرمة ابتداء من الشريف قتادة وتعاقب أبنائه وأحفاده على حكم مكة المكرمة ودور ينبع وأمرائها في تقديم المساعدات واستطلاع الأخبار وارتباطها بمكة في تعيين أمرائها ووصول المساعدات إليها والمعونات الغذائية والمالية ، فقد كانت تصل إلى مكة المساعدات وجزء منها يكون باسم أمير ينبع إضافة إلى عملها التجاري وإيصال السلع إلى مكة وقيام التجارة فيها وماهو دور ينبع في إيصالها .

(٥) المبحث الخامس وعنوانه (علاقة ينبع بمصر) :

وفصلت فيه الحديث عن حكام ينبع وارتباطهم بسلاطين مصر حيث كان لسلطان مصر الدور الكبير في تعيين أمراء مكة وينبع وحل الخلافات القائمة

بينهم إضافة إلى إرسال الكسوة والمعونات المادية والغلات الغذائية واهتمامهم بالميناء وطرق الحج .

وعالج الفصل الثالث وعنوانه (مظاهر النشاط الاقتصادي في بلاد ينبع) المباحث الأربعة الآتية :

(١) المبحث الأول وعنوانه (عوامل ازدهار النشاط الاقتصادي في ينبع) :

وتحدثت فيه عن دور ميناء ينبع بعد اضمحلال ميناء الجار ، وبروز ميناء ينبع والاهتمام به وتحسينه وتزويده بالمعدات والمستلزمات والجنود وماكان لذلك الميناء من دور أساسي في حمل الميرة والطعام والغلال إلى الحرمين وكل مايلزم قوافل الحج والعمرة سواء في العصر الأيوبي أو العصر المملوكي مما أدى إلى رواج التجارة وفتح الأسواق وبيع المنتجات المحلية واستيراد البضائع من الخارج سواء مصر ، أو اليمن ، أو الشام ، أو المغرب.

(٢) المبحث الثاني وعنوانه (التجارة البحرية والبرية) :

وذكرت فيه أهمية موقع ينبع حيث إنها منفذ الجزيرة العربية إلى الغرب ومدخلا هاما لجزء كبير من التجارة البحرية ليس للتجارة فقط إنما للأفكار والثقافات ، وقد كان العرب وسطاء للتجارة الدولية بين الاقليم الموسمي وبلاد البحر المتوسط وقاموا بنقل السلع بين الاقليم المداري الافريقي وجنوب شبه الجزيرة من ناحية وبلاد مابين النهرين ودول شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى مما أدى إلى امتلاك ينبع لعديد من السفن للقيام بالتجارة البحرية والبرية إضافة إلى كونها محطة حيوية للاستيراد والتصدير وكونها همزة وصل بين مصر والحجاز .

(٣) المبحث الثالث وعنوانه (الزراعة الرعي) :

وبينت فيه أهم المحاصيل الزراعية التي تزرع بينبع حيث التربة الخصبة ووفرة المياه فيها واهتمام السكان بالمزارع وزراعة البساتين على مدار السنة ، مما أدى إلى تنوع المحاصيل الزراعية خاصة النخيل حيث

اكتسب ينبع النخل ذلك المسمى من ازدياد النخيل وازدياد منتجاته وتنوعها وتنوع الكثير من المزروعات المختلفة من شعير وفواكه متعددة وزهور وخضار .

(٤) المبحث الرابع وعنوانه (الصيد) :

وذكرت فيه عن الثروة السمكية المتنوعة حيث تبلغ خمسمائة نوع واعتماد أهل ينبع في معيشتهم عليه إضافة إلى إقامة السوق لبيعه وتوزيعه واستخراج الأصداف وصناعة الشباك والقوارب والاستفادة من ملح البحر وتنقيته وبيعه واستخدام الغواصين لاستخراج اللؤلؤ من البحر .

(٥) المبحث الخامس وعنوانه (الصناعة) :

ووضحت فيه بعض الصناعات القائمة على المنتجات المحلية ووجود بعض المصانع القديمة والتي لم يبق منها سوى حطام وآثار ووجود بعض الصناعات الخزفية والزجاجية سابقا ، إضافة إلى صناعات المعادن والذهب فقد كانت ينبع منطقة تعدينية لوجود الذهب فيها أدى إلى قيام صناعة المشغولات الذهبية وكذلك صناعة منتوجات النخيل من المكائل ، والقفف ، والمكانس ، والحصير ، والأطباق وغيرها .

أما الفصل الرابع والأخير وهو الفصل الحضاري وعنوانه (المظاهر الحضارية في ينبع) بمباحثه الأربعة :

(١) المبحث الأول وعنوانه (المواقع الأثرية الحربية في ينبع : قلاع — حصون — أبراج — أسوار) :

تحدثت فيه عن بعض الحصون والقلاع والتي اندثرت ولم يبق منها إلا آثار فقط مستدلة على ذلك من كتب الرحالة ومن الأحداث السياسية في وجودها وبنائها ولم يبق منها إلا بعض الأبراج والتي أخذت لها صورا فوتوغرافية عند زيارتي لينبع ويظهر فيه شبه سور متهدم ولم يبق إلا آثار

بسيطة كما أشار بعض الرحالة إلى وجود خنادق إضافة إلى الأسوار العالية حتى تحمي القوات المرابطة بها .

(٢) المبحث الثاني وعنوانه (المواقع الأثرية الدينية في ينبع : المساجد ـ الجوامع ـ الأربطة) :

عرفت فيه ببعض المساجد التي اندثرت ولم يبق إلا أطلالها والتي ذكرت في كتب الرحالة ومواقعها وماقام به بعض الأمراء في بنائها أمثال هلمان بن الأجود أحد أمراء ينبع حيث قام ببناء جامعين ، ووجود بعض الزوايا والتي أنشأ بعضا منها قنصوه الغوري عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م ووجود بعض الأربطة التي أنشأها المماليك للحجاج والفقراء ليقيموا فيها وأيضا لطلاب العلم الفقراء وبعض المتصوفة وبعضها خاص بالنساء الفقيرات والأرامل .

(٣) المبحث الثالث وعنوانه (أهمية ينبع كمحطة في طريق قوافل الحجيج البرية والبحرية) :

عرفت فيه بأبرز الطرق البرية والبحرية لطرق الحجيج المصري والشامي والمغربي وقد اختلفت في هذا المبحث عمن كتب عن طرق قوافل الحج والذين تطرقوا في أبحاثهم لوصف الطريق كله بمحطاته ومرافقه ووصف مراحله مرحلة مرحلة ، ولكنني ركزت على بلاد ينبع فقط كمحطة على هذا الطريق ودورها وأهميتها وماستفدت من كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين عندما مروا بها وماهي الخدمات المقدمة لهم والامكانيات المتيسرة لها .

(٤) المبحث الرابع وعنوانه (النشاط العلمي) :

شرحت فيه عن النشاط العلمي القائم فيها فهي جزء من بلاد الحجاز حيث التقاء الأمراء والوزراء والوافدين من مصر لبيت الله الحرام وأيضا

وفود خيرة العلماء مع وفود الحجيج حيث ساهم الجميع سواء في الذهـــاب أو الإياب مما كان له دوره في ازدهار النشاط العلمي والحركة العلمية عن طريق دروب الحجيج وتبادل الثقافات والعلوم المختلفة .

(٥) المبحث الخامس وعنوانه (أشهر العلماء والشعراء) :

وذكرت فيه قدر المستطاع وخصوصا في الحقبة الزمنية التـــي أكتـب عنها عن أشهر العلماء والشعراء في ينبع وقد ذكر أن هناك بعضا من طـــلاب العلم الذين تتلمذوا على يد المقريزي ، والسخاوي ، إضافة إلى وجود العلماء القادمين لمكة والمدينة للزيارة أو الحج أو المجاورة والاستفادة من العلمـــاء الأعلام ومنهم أيضا القضاة وقد ذكرت أسماء بعض ماتيسر لي من أسمائهم .

وأخيرا تضمنت الرسالة خاتمة تبرز أهم النتائج التي توصلـــت إليهـا الطالبة ومجموعة من الملاحق تشتمل على مشجرات لأنساب الأشراف عامة ، مشجرات لبعض الأسر التي حكمت ينبع من الأشراف ، خريطة تفصيلية لينبع (النخل والبحر) بعض الصور الفوتوغرافية لكثير من معالم ينبع التـــي قـامت الطالبة بالتقاطها .

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث ومراجعه :

اعتمدت في إعداد هذا البحث على عدد وافر من المصادر المخطوطة والمطبوعة والأبحاث العلمية المنشورة وغيرها وبعض الدوريات ، كما اعتمدت على بعض المراجع الحديثة التي كشفت النقاب عن كثير من الجوانب التاريخية والحضارية الهامة ، كما استفدت من آراء كتابها في كثير من أحداثها ، كما قمت بمناقشة بعض الآراء والرد عليها .

وسأقتصر في هذا العرض على التعريف ببعض هذه المخطوطات والمصادر والمراجع .

أولا : المخطوطات :

الأرج المسكي في التاريخ المكي[١] :

للمؤرخ عبد القادر الطبري المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/١٦٩٥م وقد اشتملت هذه المخطوطة على مقدمتين وثمانية أبواب في فوائد علم التاريخ وفضل الحرم وحدوده وفضائل مكة والكعبة ومن اعتنى بتجديد وتعمير البيت من الخلفاء والملوك والسلاطين وأرباب الوظائف الدينية وولاة وأمراء مكة في الجاهلية والإسلام ، كما أنه أفرد بابا خاصا عن آل قتادة الذين أخذوا حكم مكة من الهواشم وهم من بني الحسن أمراء ينبع وكان لهم فضل في تأسيس إمارة حسنية في مكة استمرت قرابة سبعة قرون ونصف .

---

(١) صورة ميكروفيلمية بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم (٣٤) .

إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن[1] :

لمحمد بن علي بن فضل بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن مكرم بن المحب محمد الطبري المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٥٩م . وقد أفادت هذه المخطوطة البحث وأمدته بمعلومات ذات قيمة علمية عن أمراء الهواشم وعلاقتهم بالدول الخارجية وأمدتني بمعلومات كثيرة عن أسباب سقوط إمارة الهواشم على يد قتادة الحسني الذي كان له دور كبير هو وأسرته في تاريخ مكة خاصة وينبع عامة مما أفادني في بعض مباحث الرسالة .

منائح الكرم في أخبار البيت وولاة الحرم :

للمؤرخ علي السنجاري المتوفى سنة ١١٢٥هـ وتتناول أخبار مكة وولاتها وعلماءها في ثلاث مجلدات ، كما تحدث عن بعض سلاطين المماليك . وكان لهؤلاء السلاطين دور مشهور مع أمراء ينبع كما قاموا بكثير من الإصلاحات في الميناء والمدينة .

مختصر حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج :

للمؤرخ أحمد بن محمد الحضراوي المتوفى سنة ١٣٢٤هـ وبها بعض المعلومات المتعلقة بإمرة الحرمين وإمرة الحاج ، وفيه كثير من المعلومات السياسية والاجتماعية والدينية التي أفادتني في كثير من مباحث الرسالة .

كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لصناعة الانشا :

للمؤرخ بهاء الدين محمد بن لطف الله الخالدي المتوفى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م . وأفادني ذلك المخطوط بمعلوماته القيمة في توضيح علاقات

---

(١) صورة ميكروفيلمية بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى رقم (١٠) .

سلاطين مصر من المماليك الجراكسة مع أمراء بني عجلان في مكة المكرمة ، وكان هذا المؤلف ذا خبرة وتجربة من كتاب الدولة وموظفيها الكبار فجاءت معلوماته وافية صادقة .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام :

وكلاهما للعالم المؤرخ أبي الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المعروف بتقي الدين الفاسي ، ولد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م بمكة المكرمة حيث نشأ وتربى بها وبالمدينة المنورة وقد تلقى العلم على أيدي علمائها ثم تولى المناصب العلمية بمكة المكرمة وأصبح شيخا للحرم ، اهتم بالتأليف والتدريس وتوفي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م رحمه الله(١) .

أما كتابه العقد الثمين فيتكون من عدد من المجلدات يبلغ عددها ثماني مجلدات وهي عبارة عن تراجم لأعيان مكة من الرواة والعلماء والفقهاء والخطباء والأئمة والأمراء والشخصيات البارزة وقد رتبت تلك التراجم ترتيبا أبجديا . لكنه قدم المحمدين والأحمدين على غيرهم من الأسماء وذلك لشرف هذين الاسمين وتبركا باسم سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ كذلك أفرد بابا لتراجم النساء المشهورات بمكة . وقد أفادني هذا الكتاب إفادة كبيرة في تراجم الأمراء الهواشم وبني قتادة وعلاقتهم بالدول الخارجية والأحداث الداخلية في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

---

(١) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق محمد الطيب الفقي ، القاهرة ١٣٧٨/١٣٨٨هـ ، ج١ .

أما كتابه الثاني "شفاء الغرام" فلايقل أهمية عن كتابه السابق ، فقد اشتمل على كثير من المعلومات القيمة الدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بمكة المكرمة ، هو كتاب مؤلف من جزئين ومرتب ترتيبا زمنيا . ويعتبر كتابه شفاء الغرام مكملا لكتاب العقد الثمين . ويتميز الكاتب في كتاباته بالدقة وعدم التحيز . واستفدت منه في تراجم بعض الشخصيات والأحداث في عهدهم .

<u>أما كتاب إتحاف الورى بأخبار أم القرى:</u>

لابن فهد المتوفى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م . وقد نشأ مؤلف هذا الكتاب بمكة المكرمة وتلقى العلم على أيدي علمائها وقام برحلات علمية لطلب العلم إلى مصر والشام وفلسطين وله مصنفات عديدة من بينها هذا الكتاب ، ويعتبر من أهم المصادر في تاريخ الحجاز من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أجزاء ، الثلاثة الأولى حققها فهيم شلتوت ونشرها مركز تحقيق التراث بجامعة أم القرى ، أما الجزء الرابع فقد حققه الدكتور عبد الكريم الباز وهو موضوع رسالته لدرجة الدكتوراه .

وقد قام النجم ابن فهد بجمع وترتيب المعلومات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والتي أوردها مؤرخ مكة الفاسي مبعثرة في كتابه العقد الثمين ، وشفاء الغرام ورتبها ترتيبا زمنيا مبتدئا بمولد الرسول ﷺ ، وذكر ابن فهد في كتابه هذا أنه أضاف بعض المعلومات التي لم يوردها الفاسي في مؤلفاته(١) . وقد أفاد البحث من هذا الكتاب في دراسة أمراء الهواشم وكيفية وصولهم إلى الإمارة وبعضا من أمراء ينبع والخلافات الدائرة بينهم وبين آل قتادة .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم شلتوت ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ج١ ، ص٥-٦ .

كتاب غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام :

للمؤرخ عز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي المتوفى سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م .

لقد نشأ هذا المؤلف بمكة المكرمة وتلقى العلم على أيدي علمائها ومن ثم رحل إلى مصر والشام وفلسطين بغية طلب العلم فلم يترك عالما إلا وأخذ عنه العلم ، له مؤلفات عديدة منها كتاب بلوغ القرى بذيل إتحاف الورى ، وهذا الكتاب الذي قدم فيه تراجم لأمراء مكة وبعض أمراء ينبع منذ زمن الرسول ﷺ حتى العهد الذي عاشه المؤلف وكان ترتيبه لتلك التراجم على حسب الأولوية في تولي الإمارة . وقد أفاد البحث في ذكر علاقة أمراء مكة ـ ومنهم بعض أمراء ينبع ـ في علاقتهم بكل من العباسيين والفاطميين والأيوبيين إضافة إلى ذكر الخلافات والنزاع الدائر بين الهواشم وتدخل القوى الخارجية فيه ، وكذلك أمراء ينبع في مكة من آل قتادة وأخذهم إمرة مكة من الهواشم .

كتاب الكامل في التاريخ :

لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الملقب بعز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م . وقد تناول المؤلف جميع الأحداث التاريخية الواقعة في العالم الإسلامي مرتبة حسب السنين ، كما اعتمد في جمع مادته على أدق المصادر وأوثقها ومن هنا يعتبر مصدرا من المصادر الأساسية . وقد أمدني بمعلومات عن عهد الشريف قتادة بن إدريس الحسني ومايتعلق بأمراء المدينة من الأشراف الحسنيين ، وأفادني عن تدهور حكم الأشراف بعد وفاة قتادة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . وكان مؤرخا ناقدا له نظرة ثاقبة عند التعليق على بعض الأحداث ، وبهذا يتميز على من سبقه .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر :

لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م . وقد استفدت من الجزء الرابع في هذا الكتاب بكثير من المعلومات التي تتعلق بأمراء مكة الموسويين والهواشم وأحوال مكة والحجاز سياسيا واقتصاديا في عهدهم .

كتاب أنباء الغمر بأبناء العمر والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة :

للمؤرخ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ وهو من المؤرخين الثقات وصاحب مدرسة في التأريخ وعلم الحديث ، وكتابيه من المصادر المعاصرة لفترة بحثي ، وهما سجلان وافيان عن أهم الأحداث في عصر دولة المماليك وعلاقاتهم الخارجية .

وكتابه التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة المنورة الشريفة :

لشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م . ويقدم هذا الكتاب تراجم للشخصيات المدنية التي عاشت في المدينة المنورة وقدمت إليها وترجم فيها تراجم مختصرة لأمراء مكة الموسويين والهواشم وآل قتادة وبعض الأحداث الداخلية التي وقعت في مكة في عهد تلك الشخصيات ، ويحيلنا كثيرا في بعض التراجم على كتاب تقي الدين الفاسي العقد الثمين حيث يقول أحيانا عند الترجمة لبعض الشخصيات (ذكره الفاسي بأطول) ، ورتب المؤلف تراجمه حسب حروف المعجم تسهيلا للقارئ ، ولقد أفادني كثيرا لتراجم بعض الشخصيات المذكورة في البحث .

ومن كتب التراجم التي أفادتني في هذا البحث كتاب : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان :

ولد ابن خلكان بأربل سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وتوفي سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م[١] ويعتبر كتاب ابن خلكان من المصادر الهامة التي أفادتني عند التعريف بمشاهير الرجال الذين ورد ذكرهم في فصول الرسالة .

ومن المصادر التي أفادتني كثيرا :

درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة :

لمؤلفه الجزيري (ت٩٧٧هـ) .

وقد استفدت منه بما أورده من معلومات عن أمراء ينبع وعن أنظمة أمراء الحج المصري والشامي وخصوصا في العهد المملوكي ووظائف أمراء الحج ومسمياتهم وطريق الحج المار بينبع وماتم فيه من إصلاح وإنشاء في العصر المملوكي .

كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى :

لنور الدين علي السمهودي . ويعتبر كتابه من الكتب الهامة التي استفدت منها في تحديد بعض المواقع لجبال ووديان وعيون وآبار ومساجد ينبع .

كذلك أفادتني كثيرا كتب الرحالة التي استقيت منها معلومات وافرة عن موقع ينبع وقبائلها وقراها وأوديتها وعيونها ومنها ياقوت الحموي وكتابه

---

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٥-٨ .

معجم البلدان وهو من خمسة أجزاء ، وكذلك المقدسي والمعروف بالبشاري وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم حيث ذكر عن ينبع وبدر والمناطق القريبة منها .

ثالثا : المراجع :

ومن المراجع التي أفادتني كثيرا :

(١) كتاب بلاد ينبع لحمد الجاسر :

وقد أفادني كثيرا من حيث النصوص والأبحاث الجغرافية والتاريخية وبعض الأحداث السياسية عن أمراء ينبع وعلاقتهم بسلاطين مصر حيث كانت ينبع منوطة في حكمها بحكام مصر مثل أمراء مكة . وقد كان لكتاب العلامة حمد الجاسر دور في توضيح كثير من معالم ينبع البحر وينبع النخل أثناء زيارته لها ، كما عين أماكن بعض الجبال والأودية الموجودة فيها ، وهو ليس كتابا في التاريخ بالمعنى المعروف ، وإنما هو يتعلق بعض المشاهد والانطباعات عند المؤلف ، وقد ذكر هو ذلك في مقدمة كتابه .

(٢) كتاب تاريخ ينبع لعبد الكريم الخطيب :

وقد استفدت منه كثيرا في توضيح كثير من معالم وقلاع ينبع القديمة وبعض الحرف والصناعات والنواحي الاقتصادية وذكر بعض من أمراء ينبع حيث كانت هناك مشقة في توثيق التواريخ لبعض الأمراء الذين ذكرهم الشريف منصور بن مساعد ، كما استفدت من بعض كتبه التي أعارني إياها جزاه الله خيرا مثل كتاب شعراء ينبع وجهينة ، شعراء ينبع وبنو ضمرة .

(٣) معجم معالم الحجاز :

(٤) معجم قبائل الحجاز :

(٥) على طريق الهجرة :

لعاتق غيث البلادي :

وضح لي الكتاب الأول الكثير من مواقع المناطق والقرى والجبال وروافدها والعيون والآبار .

كما استفدت من كتابه معجم قبائل الحجاز والذي تحدث فيه عن هذه القبائل ومنها القبائل التي سكنت ينبع والقريبة منها .

أما كتابه على طريق الهجرة فلقد أفادني في توضيح كثير من المعالم والقرى والأودية والجبال المجاورة لها خصوصا وأنه يعد من كبار الرحالة المحدثين ، والمحققين المتمكنين .

رابعا : الدوريات والمجلات المتخصصة والتقارير العلمية :

(١) تقرير لجنة الآثار بمنطقة ينبع البحر بتاريخ ١٤٠٢/٢/٥هـ وقد أهدتني صورة منه الجمعية الجغرافية للمدينة .

(٢) تقرير لجنة الآثار بمنطقة ينبع النخل في ١٤٠٢/٢/٢٧هـ .

(٣) مجلة العرب ، ج١ ، السنة الرابعة ، رجب ١٣٨٩هـ .

(٤) مجلة العرب ، ج٧ ، ص١٨ ، محرم ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م (مقال بعنوان وادي رشاد في بلاد جهينة) .

وبعد :

فأتقدم بالشكر الجزيل إلى لجنة المناقشة التي تكرمت بالموافقة على قبول هذه الرسالة ومناقشتها ، وستكون ملاحظاتها وتوجيهاتها نبراسا يضيئ لي الطريق ويضاف إلى كل الجهود التي تثري الرسالة .

أسأل الله عز وجل أن أكون قد وفقت في إبراز الهدف الذي قصدته من كتابة هذا البحث ، ولقد بذلت في كتابته وإخراجه ماوسعني وظني أني حققت الغاية ، وإن كانت الأخرى ، فحسبي أني قد بذلت الجهد والكمال لله وحده سبحانه وتعالى والنقص من لوازم البشر .

والحمد لله أولا وآخرا ..

الطالبة/الهام سراج أكبر

تمهيد

نبذة تاريخية عن بلاد ينبع
قبل القرن الرابع الهجري

تشغل شبه الجزيرة العربية مساحة مترامية الأطراف ، ولقد نتج عن هذا الامتداد المساحي الكبير تباين وتنوع في كافة المظاهر الجغرافية سواء منها الطبيعي أو البشري .

فمن حيث البناء الجيولوجي والتركيب الصخري لأرض شبه الجزيرة تتمثل فيها كافة أنواع الصخور من نارية إلى رسوبية ومتحولة (١) .

ومن حيث مظاهر السطح تضم المرتفعات الشاهقة إلى جانب الوهاد والأودية ، والسهول والبحار الرملية الشاسعة .

ومن حيث المناخ : فهي بحكم موقعها من خطوط العرض إلا أن تنوع التضاريس أدى إلى تنوع في ظروف المناخ . وهي وإن كانت في معظمها يسودها المناخ الصحراوي ، إلا أنه يوجد فيها المناخات الساحلية والصحراوية كمنطقة ينبع – التي ستكون مدار بحثنا إن شاء الله – كما توجد فيها مناخات الجبال والأودية والوهاد.

ولقد نتج عن التنوع والتباين المناخي والتضاريس تنوع النباتات سواء منها الطبيعية أو المزروعة ، ومن ثم على النشاط السكاني . فتنوعت فيها الحرف من رعي للإبل والماشية ،إلى زراعة بعض المحاصيل ، إلى التجارة الداخلية والخارجية ، هذا إلى جانب الحرف التي وجدت على مناطق السواحل والموانئ – كما سيتضح في هذا المبحث – ولقد نتج عن ذلك توزيع السكان وتكاثفهم في بعض المناطق وتخلخلهم في مناطق أخرى .

---

(١) فتحي محمد : دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية ، ص ١٧ .

كما يتضح في شبه الجزيرة العربية الاختلاف والتبـاين الجنسـي فـي سلالات السكان ، ويتأكد ذلك في سلالات نقية خالصة لم تتأثر بأي دماء غريبة عليها ، كما هو الحال في الهضبة النجدية (*) ، وبعض المناطق الجبلية فـي الجنوب الغربي ، إلى سلالات حدث فيها اختلاط (١) ، كما هو الحال في بعـض مدن الساحل الغربي على البحر الأحمر – ومنها ينبع التي تظهر فـي دمـاء أهلها بعض الآثار التركية والهندية والمصرية والشامية ، على تفاوت في ذلك ، مع تواجد بعض السلالات النقية من عرب جهينة ونهد ، وحـرب ، وليـث وبعض بيوت الأشراف .

ولشبه الجزيرة العربية سواحل طويلة على البحار والخلجان ، والـذي يعنينا هو الساحل الغربي (**) ساحل البحر الأحمر – حيث تقع ينبع – ويعد هذا الساحل منفذاً لها إلى الغرب ، ومدخلاً لأفكاره وثقافاته .

وللجزيرة العربية عدد آخر من الموانئ الهامة على هذا الساحل ، لعل من أهمها عين الحوراء ، والوجه ، وضبا ، والجار ، ورابغ ، وجدة ، والليـث والقنفذة ، والبرك ، وجيزان (***) وغيرها .ومن هذه المرافىء من أهمل أمـره

(*) يعتبر سكان نجد من أنقى عناصر سلالة البحر المتوسط لعدم الامتزاج مع الـهجرات الوافدة .

(١) يسري الجوهري : الوطن العربي ، دراسة في الجغرافية التاريخيـة والاقليميـة ، ص ٨٠.

(**) طول هذه الجبهة البحرية الغربية حوالي (١٧٦٠ كيلو مترا) ، يسري الجوهـري : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

(***) مع وجود كل هذه المرافئ ، إلا أنها ليست مرافئ جيدة – اللهم إلا القليل منـها– وذلك لكثرة آكام المرجان المكتنفة للساحل ، وإنما تقوم عليه مراسي أمينـة علـى تفاوت في ذلك وكانت السفن تخلد إليها في الأزمنة القديمة وبعض هذه المرافئ قـد أقفر الآن كعين الحوراء ، والجار .

وتعطلت منشآته نتيجة لعوامل طبيعية ، ومنها من يؤدي دوره الملاحي إلى الآن.

وتعد مدينة ينبع من مدن الحجاز الهامة ، ولقد ذكر مؤرخو وجغرافيو العرب بلاداً كثيرة في الحجاز ، على رأسها مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وخيبر ، والمروة ، والحوراء ، والسقيا ، والعوينـد ، والجحفة ، وبدر ، وخليص ، وأملج ، والحجر ، والسوارقية ، والفرع ، والسيرة ، وجبلة ، ومهايع، وحاذة .

والحجاز من أبرز مناطق شبه الجزيرة ويقع على بحر القلزم(الأحمر) وهو يطلق في الخطط عند العرب على جبال السراة ، وهي أشد جبال المنطقة ارتفاعاً وامتداداً . فهي تمتد من العقبة شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، وبينها وبين البحر سهل ساحلي يضيق أحيانا حتى يقرب من البحر ، ويتسع أحياناً أخرى ويطلق عليه تهامة ، وهو حار رطب ، خال من الزرع منذ القدم لملوحة أرضه.

وعلى خليج من هذه الخلجان تقع يَنْبُعُ البحر. التي عرفت كميناء قديم حوالي سنة ٢٠ ق.م. ، فلقد استخدمته الحملة الرومانية عند إبحارها من اليمن متجهة إلى مصر [١] ، ولقد أضيفت كلمة البحر إليها للتفريق بينها وبين جزئها الثاني – ينبع النخل – وتأتي أهمية هذه المدينة لكونها ميناء المدينة المنورة ، وكانت الميناء الثاني في الحجاز [٢] .

أما ينبع النخل – فلقد أُخذ اسمها من الفعل المضارع لكثرة عيونها حتى عدها بعض المؤرخين (١٧٠ عيناً) .

---

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، لعدد من المؤرخين والجغرافيين – من أبحاث الندوة العالمية الأولى التي نظمتها كلية الآداب – جامعة الملك سعود ، الرياض ، في الفترة من ١٥–٢١ من المحرم عام ١٤٠٤هـ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٣٧ .

ولقد ورد ذكرها في الشعر العربي ، يتضح ذلك في قول كثيرة عـزة[*] – وكانت قبيلته من سكان المنطقة – :

أهاجتك سلمى أم أجد بكورهـا وحفت بأنطاكي رقم خدودها

قوارض حضني بطن ينبع غدوة قواصد شرقي العناقين عيرها

ويقول أيضا :

ومر فأروي ينبعاً وجنوبـه قد جيد منه حيده فعباثـر

وإلى كثرة آبارها وعيونها يشير أحد الشعراء بقوله :

يا أهل ينبع أنتـم أخس مافي البريـة

لاحرف يقرأ، ومع ذا لكم عيون قويـة [١]

وتفيد الدراسات التاريخية القديمة ، أن منطقة ساحل البحر الأحمر – عند ينبع– قد تبوأت أهمية كبيرة في الميدان التجاري والحضاري ، وكانت معـبراً لسفن الامبراطوريات القديمة أثناء إبحارها إلى الجنوب الغربي ، وربما كـانت منطقة ينبع وجدة – فيما بعد – أهم مناطق الساحل ذات التعرجات الطبيعيـة الصالحة لقيام الموانئ حيث أن ساحل البحـر الأحمـر – عمومـاً – قليـل التعرجات والموانئ الصالحة ، كما توجد أمامه شعاب مرجانية تكون مصـدر خطورة للسفن كما أشرنا من قبل[٢] .

ومما ساعد على ازدهار المنطقة أنها أقل أجزاء جبال الحجاز ارتفاعا ، اللهم إلا في جبل رضوى شـمال غـرب المدينـة حيـث ترتفـع ذراه نحـو

(*) ستأتي له ترجمة ص من المبحث – الفصل الأول .

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع، ص ٣١ . والأبيات لأحد الرحالـة فـي القـرن العاشـر الهجري، وهو الشيخ أبوبكر أحمد بن هرون ويظهر فـي الأبيـات السـخرية فـي التورية في قوله عيون – ولا يجب أن نأخذ كلام الرحالة على محمـل الجـد فـهم يكتبون تحت ظروفهم الخاصة ونظرتهم الشخصية .

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، صفحات متفرقة .

نحو ١٥٠٠ متر ، ونتج عن هذا الانخفاض وجود مسالك هامة لنقل الاتصالات بين عالم البحر الأحمر وبين داخل الجزيرة – وشاركت ينبع مشاركة فعالة في ذلك – وامتدت بعض هذه المسالك على طول بعض الوديان – كوادي الحمض إلى منطقة الوجه ، ووادي الصفراء إلى المدينة، ووادي فاطمة إلى مكة .

ولقد تحدثت النقوش السومرية والأكادية التي ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد ، وكذلك النقوش الهيروغليفية عن صلات تجارية بين شبه الجزيرة العربية وبلاد مابين النهرين ومصر (١) .

كما عبر الاسكندر المقدوني عن أهمية البحر الأحمر وموانيه على سواحل الجزيرة العربية بقوله : " إني لا أستطيع تأمين مقامي في مصر ، إذا كان للفرس السيطرة على هذه المواني " حيث كان الفرس قد اتخذوا لأنفسهم بعض المعاقل البحرية في الجنوب والشمال.

ولقد عرفت هذه المنطقة التجارة العالمية مع دولة سبأ والبطالمة وفارس وروما وبيزنطة وبلاد الأحباش ومصر ، وكان العالم القديم يتعطش إلى أهم السلع التي تصدر عبرها من البخور والمواد العطرية والأفاوية والأحجار الكريمة والذهب والفضة والتوابل(٢) .

ويشير هيرودوت المؤرخ اليوناني ، وسترابون المؤرخ الروماني إلى مهارة العرب في التجارة .

ولقد وجدت ينبع على الخرائط البحرية الرومانية عندما عمل الرومان على إحياء ا لمواني على غرب البحر الأحمر ،وأطلقوا على ينبع باللاتينية (لويكي كومي) ، كما قاموا بتوسعة وتطهير كل من الجار والمويلح ، والحوراء

---

(١) دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، المجلد الثاني ، مرجع سبق ذكره ، تحت عنوان (الحضارة .التجارة والنظام المالي) ص ١٨٧ – ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق نفس المجلد والصفحات المتفرقة .

واستمر ميناء ينبع يؤدي دوره في العصور المختلفة حتى تمت توسعة أرصفته وجددت أبنيته ، وتم تطهير مجراه ومداخله من الشعب المرجانية سنة ٦٢١هـ، وكان ذلك سببا في إضعاف ميناء الجار الذي أصبح مجهولاً حتى الآن ويعرف مكانه حاليا بالرايس ،وبه آثار مبان عربية ورومانية [١] .

وعن طريق ينبع أتت حملة (ايليوس جاللوس) البحرية ٢٤ ق.م وكان هدفها حرمان العرب من مكاسب التجارة [١] (*) .

وفي العصر الجاهلي استمرت ينبع تؤدي دورها التجاري والبري بين الشمال والجنوب والغرب ، وسكنتها من القبائل بنو ضمره وهم قوم عزة كثير ، كما عاش فيها بنو مدلج من كنانة ، ولكن معظم سكان ينبع على امتداد العصر الجاهلي وفي العصر الإسلامي هم من نهد وجهينة (**) وهم قبيلة كثيرة العدد ، وثيقة النسب ببلى وبهراء وكلب وتنوخ وتنتمي إلى قضاعة أكبر قبائل الجنوب التي نزلت أولا نجدا ثم ارتحلت إلى جوار المدينة بين البحر الأحمر ووادي القرى [٢] .

(*) برع العرب في التجارة سواء منهم عرب الجنوب أو عرب الشمال حتى أن اليمن ظلت مسيطرة على التجارة حتى القرن السادس الميلادي ، كما برع عرب الشمال وخاصة قريش التي اشتق اسمها من مدلول هذه الكلمة أي التقريش حتى قال قائلهم :

ألهى قصيا عن المجد الأساطير ... وقولها رحلت عير أتت عير

الطبري ، ج ٥، ص ٢٣٥ .

(١) المرجع السابق نفس المجلد ص ٢٠٧.

(**) عشائر جهينة كلها من بطون وأفخاذ : مالك وعروة والزوايدة ، ورفاعة ، العوامرة، كلب ، بنو ابراهيم العياشة، وموسى ، وذبيان وغنمه وحبيش والسمرة والفوايدة , حمود بن ضاوي ، شمال الحجاز ، ص ١٠ ، دار البيان العربي .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٢٩.

وكان لهم صنم يعبد نصبوه في مكان ينبع النخل وكان سادنه عمرو بن مرة الجهني ، ويروى أنه أسلم فيما بعد وكسر الصنم، وقدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

وأشهر العشائر التي استقرت في ينبع هي من بطون بني ابراهيم ويتكونون من الحربيات والصراصرة ، والمسافرة ، والجرسة ، والشاطرة ، والشهابين ، وذوو سليم ، وذوو زيد ،وذوو جمود ، والموالي والحلاليت والدسابكة والشناورة والمشارقة والعلاونة والصفارين . وكذلك بطون العياشة: ومنهم الشقافا والنقران والعبسان والفداعين والصيادلة ، والمساوية، والصيادية[1].

وفي مستهل عصر النبوة دخلت جهينة الاسلام طائعة مختارة ، ونزح كثير منهم مع حملات الفتوح إلى صعيد مصر واستقروا في أسوان وأخميم ، ويروى أنه كان لهم نشاط عسكري ضد الدول المسيحية في بلاد النوبة [2] ، كما استمر الميناء يؤدي دوره في خدمة الدولة والتجارة الصادرة والواردة .

وإبان عصر النبوة ، وصدر الإسلام ، والدولتين الأموية والعباسية حتى سنة ٣٦٢هـ أولى المؤرخون والجغرافيون المسلمون ينبع النخل بقدر ليس باليسير من الاهتمام التاريخي والجغرافي ، فوردت أخبارها متفرقة في مصنفاتهم ، ولا غرو في ذلك فلقد كان للعنصر المكاني أثره في إضفاء الأهمية التاريخية على منطقة ينبع النخل .

---

(١) شمال الحجاز ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ ، ١٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية ، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخران.

أما ينبع البحر فليست لها شهرة كبيرة عند المؤرخين المسلمين قبل القرن السابع الهجري ، مع أنها كانت معروفة منذ عصور ماقبل الميلاد كما ذكرنا. يتضح ذلك في قربها من المدينة المنورة بالإضافة إلى وقوعها على طريق قوافل قريش المتجهة إلى الشام إبان عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، فتحدثوا عنها عند التأريخ لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه لقطع الطريق التجاري على قريش التي كانت في حالة حرب مع المسلمين ، بعد أن استولوا على ممتلكات المسلمين في مكة ، وحرضوا قبائل الأطراف حول المدينة على المسلمين .

كما عنى كتاب الخطط وعلم الجغرافيا بذكر نبذ عن أهم مواضعها من جبال وأودية وسهول وآبار . ومن رجال ينبع الذين احتفظت كتب التاريخ بأسمائهم ولا عجب في ذلك فتاريخ بلاد ينبع هو تاريخ رجالها .

فقد وفد على الرسول – صلى الله عليه وسلم – من ينبع : عبدالعزيز بن بدر بن زيد بن ملوية الجهني ومعه أخوه لأمه (أبوزرعة) كما أرسل الرسول صلى ا لله عليه وسلم عدة كتب إلى ينبع، فكتب أولا لبني زرعة وبنى ربعة الجهنيين : أمنهم على أنفسهم وأموالهم ، كما كتب لعوسجة بن حرملة الجهني ، كما كتب أخيرا لقوم من ينبع هم بنو شيخ (١) ، كما اشتركت جهينة ومنها بطون ينبع يوم فتح مكة سنة ٨ هـ وحمل لواء الجهنيين معبد بن خالد الجهني (أبوزرعة) ويقال أنه سكن البادية ولم يفارقها وعمر طويلا . ومنهم حرملة المدلجي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحمد بن صالح الحسني من أهل القرن الثالث الهجري ، ومن أبرز شعرائها في القرن الثاني العباس بن الحسن .

---

(١) جواد علي : المفصل في تاريخ أنساب العرب ، ص ١١ ، ١٢ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١١ .

ويقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطع ينبع النخل لرجل ينبعـــي من جهينة هو (كشد بن مالك) وذلك بسبب أنه أجار طلحة بـــن عبيـــدالله ، و سعيد بن زيد ، صاحبي رسول الله صلى الله عليه وســـلم عندمــا أرســلهما يترقبان عيرا لقريش يقودها أبوسفيان بن حرب عائدة إلى مكة ، ثم اشـــتراها منه عبدالرحمن بن سعد بن زرارة الأنصاري ، ثم اشتراها منه علي بن أبـــي طالب، وفي رواية أن عمر بن الخطاب أقطعه غيرها وأن الرسول أقطعه بـــذي العشيرة من ينبع قبل ذلك . ويروى أبوعلي الهجري عن موسى بن عبـــدالله الأصغر معلومات كثيرة عن آبار حفرها علي وبنوه لعل من أهمـــــها : الأراك والخليج ، وكشش وخيف ليلى ، والروضة ، وعين أبي نيزر وعين مولا فـــي سافلة ينبع والبغيبغة[١].

وإبان عصر النبوة شهدت منطقة ينبع بعض غزوات الرسول وســـراياه لوقوعها على طريق مكة الشام التجاري . فشهدت في أعوام متقاربة غـــزوة ودان وهو مكان قريب من ينبع البحر في صفر سنة ٢ هـــ وســـميت غـــزوة الأبواء ، ورجع الرسول إلى المدينة بعد أن وادعته بني ضمرة ،كمـــا أرســـل الرسول حمزة بن عبدالمطلب إلى نواحي العيص من قرى ينبـــع علـــى رأس ثلاثين من المهاجرين فلقي أباجهل بن هشام ولم يحدث بينهما قتال لأن ابـــن عمرو الضمري حجز بينهما وكان حليفا للفريقين ،وفي ربيع الاول سنة ٢ هــ خرج الرسول إلى بواط من ناحية رضوى هو جبل يطلق على ينبع يريد عـــيرا لقريش

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص٢٤٥ ، عاتق البلادي : معجم معالم الحجـــاز ، ج ١٠ ، ص٢ ، ابن ضاوي القثامي ، شمال الحجاز، ص ١٠١ .

يقودها أمية بن خلف الجمحي ورجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، وفي جمادى الأولى سنة ٢ هـ غزا الرسول قريشا حتى نزل العشيرة من بطن ينبع النخل وادع بني مدلج وبني ضمرة ورجع إلى المدينة ، ثم كانت سرية زيد بن حارثة إلى العيص في جمادى الأولى سنة٦ هـ يعترض عيرا لقريش ونجحت السرية في أسر بعض أفراد القافلة ومنهم أبوالعاص بن الربيع زوج زينب ابنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما استولت على ذخائر كثيرة مما كانت تحمله القافلة [١].

كما كانت جهينة وبطونها ، وخزاعة ، وسعد بن بكر، وهذيل ، وطوائف من مزينة من أشد الناس قتالا لعثمان بن عفان رضي الله عنه في احداث الفتنة حتى قتل ، كما يظهر ذلك من الرسالة التي أرسلتها نائلة زوجة عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان ومعها قميص عثمان مع النعمان بن بشير .

وفي العهد الأموي حاول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ضم جهينة إليه لما لها من أثر كبير في تقوية حزبه ، خاصة وأنها من أكبر قبائل قضاعة وأولى المنطقة وأهلها رعاية خاصة .

ولقد تعرضت ينبع للتخريب وقطع النخيل وإزهاق الأرواح في بداية العصر العباسي على عهد الخليفة أبي جعفر المنصور سنة١٤٥ هـ بعد فشل إحدى ثورات العلويين بالمدينة ،ودخلت القوات العباسية إلى مضارب الطالبيين وأحالتها إلى أثر بعد عين ، وطمرت الآبار وأحرق الزرع والنخيل وصودرت أموال بني حسن وبني جعفر ، وفي عام ٢٤٤ هـ ثار على الخليفة المتوكل بن المعتصم محمد بن صالح – ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي – وتم تدمير دور الطالبيين ومزارعهم والقضاء على الثوار[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص٢٥٦ ، المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص ٣٢١/١٨٦ .

(٢) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٥ .

وازداد دور ينبع التاريخي بعد القرن الرابع وهو بدايات حديثنا عنها من هذا المبحث ، فخرج الرجال الذين صنعوا الأحداث في مكة والمدينـــة خاصـــة وشبه الجزيرة العربية والبلاد المجاورة عامة منها .

فخرج من ينبع قتادة بن ادريس – الطبقة الرابعة من الأشراف – الذين ظلوا يحكمون مكة المكرمة حوالي سبعة قرون ونصف .

ثم كان للمكان أثره في إضفاء الأهمية الجغرافية والتاريخية على ينبـــع فلقد أصبح ميناؤها مرفأ من أقوى موانىء شمال الحجاز التجارية بداية مـــن العصر الأيوبي .

ولما أصبح طريق الحج المصري يأخذ الساحل من العقبة شمالا إلى مكة المكرمة جنوبا – صار يمر بينبع . وكانت من أهم محطات هذا الطريق كمـــا سيتضح عند الحديث عنها .

وهكذا كانت بلاد ينبع جزءا حيويا من مناطق الحجاز المباركة ، كان لها دورها التاريخي الجغرافي في عصور ماقبل الميلاد ، واستمرت تؤدي دورهـــا حتى الآن.

الفصل الأول

الإطار الجغرافي لبلاد ينبع

المبحث الأول

الموقع العام لبلاد ينبع

الموقع :

ينبع بلاد واسعة [١] ، وهي من جملة أراض شبه جزيرة العرب ، وتحتل موقعا حيويا على الساحل الغربي للحجاز ، وتميل إلى الشمال غرب المدينة المنورة بحوالي مائتين وخمسين كيلو مترا ، كما أن لها شهرة واسعة منذ القدم ، وهي أشهر من أن تعرف [٢] ، هذا وقد ورد اسم ينبع في كتب المعاجم ، ومن تناوله من الجغرافيين أمثال ياقوت البكري ، والحموي ، والجزيري ، حيث حددوها تحديدا لغويا ، فقالوا : " ينبع بالفتح والسكون والباء الموحدة المضمومة والعين المهملة بلفظ ينبع الماء " [٣] ، كما ذكر ابن رشيد الأندلسي ، وكثير من مؤرخي القرن الثامن الهجري ، كالمقريزي ،وابن تغري بردي ، والقطبي ، وابن إياس الحنفي ، وغيرهم (ينبع الينبوع) بزيادة واو ، وإلحاق أداة التعريف [٤] ، وإن كان الإطلاق الأول بالفتح ، والسكون ، والباء الموحدة المضمومة والعين المهملة بلفظ ينبع الماء أصح وأولى بالقبول.

وقد أورد البكري أن في ينبع تسعة وتسعين عينا[٥] فهذا دليل على أن ينبع منطقة كبيرة ، ولعل توسعها نتيجة خصوبة التربة ، ووفرة المياه ، مما أدى إلى قيام الزراعة ، وبالتالي إلى استقرار كثير من القبائل في تلك المنطقة،

---

(١) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص ٥ – ٦ .

(٢) الفيروزابادي : المغانم المطابة ، ص ٤٤٠.

(٣) معجم البلدان ، ج ٥ ص ٤٤٩ ؛ درر الفوائد المنظمة ، ج ٢ ، ص ٤١٣ ؛ معجم ما استعجم ، ج ٤ ، ١٤٠٢.

(٤) مجلة العرب، ج ١ ، السنة الرابعة ، رجب ١٣٨٩هـ.

(٥) البكري ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٦٥٦

فصارت محطة مهمة على طريق القوافل للتزود من خيراتها ، مما أدى إلى اكتساب أهلها حذاقة ومهارة في التعامل التجاري مع قوافل التجار ، والحجيج كما أضحت مقصدا لكثير من هجرات البلاد والمناطق طلبا للرزق ، وسعيا للعمل .

ولكن بمرور قرنين على وصف البكري لها، نجد نصا أورده كل من ياقوت والنابلسي ومفاده : أن ينبع تحتوي على مائة وسبعين عينا (١) وهو سر تلك التسمية ، والتي عللها ياقوت ، ولا تناقض بين ما ذكره البكري ، وما ذكره ياقوت الحموي من حصر عدد العيون بهذه المنطقة ، فإن وصف البكري كان قبل قرنين من وصف ياقوت كما ذكرنا سابقا ، والذي يفهم منه أن هذه القرية قد توسعت بحكم الزمن ، وبحكم ما توفر لها من أنشطة زراعية ، وتجارية، ونتيجة الهجرة إليها من مناطق أخرى ، مما عمق كثافتها السكانية ، وأورث أهلها الزيادة في العدد ، والثروة .

وفي وصف ينبع وموقعها يقول الجزيري " ينبع الربع الرابع من أرباع الحجاز الأول من القاهرة إلى العقبة ، والثاني من العقبة إلى الأزلم ، والثالث من الأزلم إلى ينبع ، والرابع من ينبع إلى مكة " (٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن لفظة ينبع عندما تطلق دون قيد ، فإن المقصود بها ينبع الماء ، وعندما تقيد بلفظ ينبع النخل ، فيشار بها إلى ينبع النخل ، والتي هي الجزء الأعلى من المنطقة ، أما البحر فهو الجزء الأسفل(٣)

---

(١) ياقوت الحموي : مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٤٥٠ ؛ النابلسي : الحقيقة والمجاز، ص ٤٧.

(٢) الجزيري : درر الفرائد ، ج ١ ، ص ٥٣٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤١٧ ؛ الخطيب : تاريخ ينبع ، ص ١٢.

وذكر كلا من الحموي والاصطخري بأن ينبع تقع على ساحل البحر الأحمر، وعلى بعد مائة وثلاثين ميلا من المدينة المنورة (١) ، كما أورد الحميري أنها على بعد أربعة أيام من المدينة (٢) . ويضيف الفيروزابادي واصفا لها بأن ينبع أرض واسعة تقع غرب المدينة على سبع مراحل (٣) .

ويؤكد القلقشندي على أن ينبع تقع على بعد ليلة من رضوى ، وهو جبل صغير يتميز بالارتفاع ،ويقع في الشمال الشرقي منها ويتوالى منه عدة جبال تقع غرب بدر (٤) ، وبمقابلة المقاييس القديمة بالمعاصرة ، يظهر أنها تقرب من المدينة المنورة بحوالي مائة وخمسين كيلو مترا غربا ، والمقصود بينبع في تحديد هؤلاء جميعا هي ينبع النخل ، وأن هذه المسافات بحسب ماسلكوه من طرق وأودية ،أو شعاب ،وبحسب ما استخدموه من وسائل ميسورة من جمال ، أو حمير ،أو بغال . أما موقعها الآن ،وبعد أن رصفت الطرق وعبدت ، وأخذت مسارات أخرى ، وحددت حدود ينبع فهي تبعد عن المدينة بحوالي مائتين وخمسين كيلو مترا ، كما تبعد عن مدينة جدة جنوبا بحوالي ثلاثمائة وخمسين كيلو مترا ، وقد ارتبط تاريخ ينبع بتاريخ المدينة في أغلب الفترات الزمنية حتى ارتبطت بها إداريا في العصر الحديث ، فأصبحت ينبع تتبع منطقة المدينة المنورة من الناحية الإدارية .

---

(١)معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٨٢ ؛ المسالك والممالك ، ص ٢٣ .

(٢) الروض المعطار ، ص ٦٢١ .

(٣) الفيروزابادي : المغانم المطابة ، ص ٤٤٠.

(٤)القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

وقد ذكر البلادي أن ينبع تعتبر مدينة وواد ،وكلاهما يقع غرب المدينة المنورة ، أما الوادي فهو ينبع النخل ، وتسيل المياه إليه من جبال الأجرد ، والأشعر ومن ثم يدفع في البحر الأحمر ، وأن وفرة المياه والعيون أعطى المنطقة ذاك المسمى ، إضافة إلى كثرة المزارع ، والمحاصيل الزراعية المتعددة ووفرة المياه وخصوبة التربة (١) .

وبنيت ينبع البحر على الجانب الشمالي لخليج عميق يشكل مرفأ طيبا للسفن ، وهو محمي من العواصف بواسطة جزيرة عند مدخله ،ويتسع لأكبر عدد من السفن ، أو الجلاب الضخمة ،وهذا دليل على أن المدينة تجارية ، وحلقة وصل بينها وبين المدينة المنورة ، وبين مكة المكرمة ، لأن وجود السفن ووقوعها على الخليج ، يسمح للحجاج بالوفود عن طريق هذا الميناء إلى المدينة المنورة ، وإلى مكة عن طريق جدة تأتي الوفود من مصر أو الشام (٢) .

ويضيف بوكهارت (*) في وصف المدينة – كما شاهدها في رحلاته – بأنها محاطة بسور من ثلاث جهات بحيث تشكل حصنا ،وحماية للمدينة ، كما

---

(١) البلادي : نسب حرب ، ص ٣٣٨.

(٢) بوكهارت : رحلات في شبه جزيرة العرب ، ص ٣٨٣.

(*) بوكهارت : سويسري الجنسية ولد في لوزان – يقال أنه أسلم ،وفد إلى مصر ودخل الأزهر بعد أن ادعى الإسلام ، وسمى نفسه إبراهيم المهدي ، وتعلم فيها العربية ، ثم سافر إلى شبه الجزيرة العربية ، وأقام بها سبع سنين ، وكتب عنها كتابه (رحلات في شبه جزيرة العرب) ، وهو من أحسن من كتب عنها من الفرنجة ، ومات في مصر ، ودفن بها بمقبرة باب الفتوح ، ولايزال قبره موجودا بها ،وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ وقلده في ذلك برتون الانجليزي ، هوجرنج الهولندي ، كورتلمون الفرنسي . انظر : محمد لبيب البتانوني : الرحلة الحجازية ، ص٩٠ .

يوجد أبراج في أسوارها ، وبين تلك الأسوار والمدينة فضاء واسع وفي هـذا إشارة واضحة على صغر هذه المدينة في أول أمرها ، ولاشـك أن إحاطتـها بالسور ووجود الأبراج كان يشكل نوعا من الدفاع ، والحمايـة، أمـا بقيـة المساكن فهي أماكن لراحة القوافل ، وتدريب الجند ، ومقابر للموتى أحيانـا، وأما منازلهم فهي بسيطة ،ومتواضعة بنيت من الحجارة الجيرية الكلسـية (*) مكونة من طابق واحد ويتخللها بعض المساجد والمقاهي ، كما أن بها مبنـى متواضعا للحاكم ، وسكان ينبع كانوا يعتمدون في حماية أ نفسهم بما كان تحت أيديهم من أسلحة تقليدية ، وضواحي هذه المدينة (ينبع البحر) ليـس بـها أشجار ، ولا أعشاب ، إلا القليل الذي كان يتواجد داخل أسوارها ، أما خارجها فرمال لازرع فيها ولا ماء (١) .

أما عن ينبع عامة أو الينبعين معا كما يطلق عليها فالمنطقة تمتد مـن الحوراء شمالا ، والتي تعتبر ثاني موانئ الحجاز على ساحل البحر الأحمـر، والتي خربت في الربع الأخير من القرن السـادس الهجري (٢) وقام على

---

(١) بوكهارت : المرجع السابق ، ص ٣٨٣ .

(*) وتوجد أيضا بعض المنازل في ينبع البحر مبنية من الصخور المرجانية ، وهذا يدل على الاستغلال الأمثل لمواد البيئة، وتوجـد فـي الملاحـق صـورة فوتوغرافيـة إلتقطتـها الباحثة لبعض هذه المنازل أثناء زيارتها لهذه المنطقة .

(٢) وهي الوقعة التاريخية بين الجيش الصليبي بقيادة أرناط صاحب حصن الكرك وبيـن الجيش الإسلامي بقيادة حسام الدين لؤلؤ من قبل الناصر صلاح الدين فـي مصـر ، وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين ،وأسر عدد منهم وفرار الباقين حيث كان هـدف الصليبيين احتلال المدينة وإشغال صلاح الدين بفتح جبهة ثانية في الحجاز ، وكـانت المعركة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٤ م.

انظر: د. عاشور :الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، ص٥٠ .

أنقاضها أملج التي تقع في طرفها الجنوبي حتى نهاية منطقة العيص التي يتكون حولها شعاب ، وأودية حتى بواطن الفوري والجليسي [١] .

ومن هذا يتبين لنا أهمية هذه المنطقة بالنسبة لمدن الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ، وما جاورهما ، ففيها يلتقي سهل تهامة بالبحر الأحمر في الشمال ، ووادي فرع في الجنوب حتى أصبحت ملتقى كثير من الأودية [٢] .

وقد أكد على أهمية ينبع ابن أياس ، وأنها من ثغور الحجاز المهمة بقوله: " ينبع من أهم مدن الحجاز ، وهي بندر التجار ، ومحل المكاسب ، وبها بدو (*) وصاغة ، وحواصل[**] ، ودكاكين ، وسرحات ، وبساتين ، وزروع، وعيون ، وأشجار " [٣] .

---

(١) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(*) سكن ينبع كثير من بدو جهينة وفخوذ من حرب وبنو ليث .
انظر: البلادي ، معجم قبائل الحجاز ، ص٩٥ .

(**) تطلق كلمة الحواصل على ثمانية بيوت إدارية مملوكية هي الشراب خاناه ، والطشت خانه ، والفراش خاناه ،والسلاح خاناه ،ةوالركاب خاناه ، والحوائج خاناه ، والمطبخ ، والطبل خاناه ولكل منها موظفون يقومون بالعمل فيها وتدبيرها . وهي من منشآت المماليك بينبع.
انظر : د. عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٣٢ .

(٣) ابن اياس : نشق الأزهار ، ص ٨٧.

المبحث الثاني

الموقع

أ - موقع ينبع البحر

ب - موقع ينبع النخل

ينبع البحر

يقول تعالى في محكم التنزيل : (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (١) .

في تلك الآية الكريمة نتبين تسخير الله لنا البحار للاستفادة من أسماكها والانتفاع بأصدافها، واستخدامها للتجارة ،واتصال منطقة بمنطقة أخرى عن طريق صادراتها ، ووارداتها ، وهذا ما أفاد منطقة ينبع البحر وموقعها على ساحل البحر الأحمر ، وبالتحديد وقوعها إلى الجهة الشرقية منه .

لكن قبل ظهور ينبع البحر كان ميناء الجار على ساحل البحر الأحمر(٢) معروفا للعرب قبل الإسلام ، واستخدموه للاتصال بإفريقية واليمن والصين ، فلما قامت الدولة الإسلامية استخدمت ميناء الجار وأصبح ذا شهرة واسعة في عهد الخلفاء الراشدين وكانت المراكب تصل إليه من مصر إلى الحجاز ، وتمدنا المصادر الإسلامية بمعلومات وافية عن عشرين مركبا تحمل كل واحدة منها ثلاثة آلاف اردب من القمح أرسلها عمرو بن العاص بناء على تعليمات من عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح مصر أي حوالي سنة ٢١ هجرية وهو يقع بالقرب من ميناء جدة (٣) ، واختلفت الآراء في موقع الجار ، فقيل

---

(١) سورة النحل : (آية ١٤) .

(٢) الادريسي : نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٣٢ ؛ ياقوت : معجم البلدن ، ج ٢ ، ص ٩٢-٩٣ .

(٣) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٥٠ .

هو المكان المعروف الآن باسم الجار[١] ، لكن البعض الآخر يشير إلى أن الجار يقع في مكان يسمى البركة [٢] ، ونفهم من ذلك أن الجار هو ميناء المدينة المنورة ، وزادت أهميته في بداية الدولة الإسلامية كما ذكرنا، كما يتضح لنا أن الجار هو مدينة، وميناء ،وكون موقعها في البريكة باعتبارها بحيرة يفيض منها الماء الذي يصب من وادي يليل ليروي سكان المدينة ، وبعد اندثار الجار ظلت المياه الجارية تسقي الحجاج ، والرحالة ، ورعاة الأغنام ، فأطلق العامة مسمى البريكه ، والبريكه تنسب إلى جزيرة تعرف باسم قراف [٣] ، أما بالنسبة للجار الميناء ، فيذكره كل من البكري ، وياقوت ، والبلادي لغويا بتخفيف الراء وهي: قرية على ساحل بحر القلزم ، وبينها وبين المدينة المنورة يوم وليلة[٤] تقع شمال ينبع ، وجنوب رابغ ، وشمال غرب قرية الرايس [٥] .

---

(١) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٥٠.

(٢) الجاسر : بلاد ينبع، ص ٤٩ ، وقد ذكر في كتابه الآخر وهو (شمال غرب الجزيرة) عن الجار فقال هو البريكه في ص ١٩٠.

(٣) الأنصاري : رحلة إلى الجار ، ص ٤٦٨ ، مجلة المنهل ، ج ٥ ، السنة ٣٧ ، المجلد ٣٢ ، السنة ١٣٩١هـ /١٩٧١م ؛ البلادي : معجم معالم لحجاز ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج .

(٤) البكري : معجم ما استعجم ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ ؛ ياقوت: مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، البلادي : ج ٢ ، ص ١٠٤.

(٥) د. ضيف الله الزهراني : الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) ميناء الجار ، ص ٢٤٣ .

ويخبرنا عرام السلمي الذي عاش في المنطقة خلال القرن الثالث الهجري ، والبكري تأكيدا لقول الحميري ، والبلادي ، على أنها قرية على الساحل ترفأ إليها السفن من مصر ، وأرض الحبشة ، والبحرين ، والصين ،والهند ، كما وصفت بأنها جزيرة نصفها في البحر ونصفها الآخر على الساحل ، وبالقرب منها جزيرة مساحتها ميلا في ميل في وسط البحر بحيث لايصل إليها الإنسان إلا عن طريق السفن ، وهي مرفأ للحبشة ، وتسمى قراف ، وسكان تلك المنطقة يقومون بجلب الماء من وادي يليل الذي يفيض في الجار كما ذكرنا ، ومن ثم يصب في البحر [١] .

نستدل من تلك الأقوال على أن أهلها يعملون بالتجارة ، ونستدل أيضا بأنها قرية آهلة بالسكان وهو أمر طبيعي خصوصا وأن موقعها الاستراتيجي الذي أتاح اتصالها بكثير من البلدان مما جعلها محطة ومركزا مهما من وإلى المدينة عن طريق التبادل التجاري وازدهار المدينة المنورة عن طريق ذلك الميناء.

كما أدى ذلك إلى انتعاش منطقة الجار ماديا، ومعنويا ، واجتماعيا حيث أصبح أهلها في رفاهية من العيش وظهر ذلك في بناء المنازل ،والقصور المتعددة ، وقد أكد البشاري ذلك بقوله : " الجار على ساحل البحر محصنة بثلاث حيطان والرابع بحري ،وبها دور شاهقة ،وسوق عامرة خزانة المدينة ، ومدنها ، يحمل إليها الماء من بدر ، والطعام من مصر ، وليس لجامعهم صحن" [٢] .وكونها سوق عامرة دليل على التبادل التجاري فيها عن طريق

---

(١)السلمي : أسماء جبال تهامة، ص ٩ ؛ البكري : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ؛ ياقوت : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، الحميري : ص ١٥٣.

(٢) البشاري : أحسن التقاسيم ، ص ٨٣ .

الميناء ، وكونها الوسيط بين الميناء ، والمدينة المنورة أيضا .

وقد زادت شهرة ميناء الجار في القرن الثالث الهجري،وبداية القرن الرابع حتى أطلق اسم الجار على الجزء الشمالي من البحر الأحمر ، فأصبح يعرف ببحر الجار (١) ، كما أطلق للجار اسم آخر ذكره البرادعي والأنصاري ، وهو اسم الكزابير (٢) .

كما ذكرت الجار في شعر أحد سكانها قال :

وليلتنا بالجار والعيش بالغلا   معلقة أعضادها بالجنائب

وفي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي نزل بالجار الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، وأشار إلى أنها ميناء ، وقرية صغيرة (٣) وهذا دليل على بداية اضمحلال المنطقة وبداية زوالها وأكد على ذلك الإدريسي وقال " إنها على ضفة البحر المالح والمراكب إليها قاصدة ومقلعة وليس بها كبير تجارات (٤) ولابد من وجود أسباب أدت إلى اضمحلال الجار ، فقد كانت

---

(١)ياقوت : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٢) الأنصاري : رحلة إلى الحجاز ، ص ٤٦٨ . البرادعي : المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ، ص ١٠٥.

(٣) ناصر خسرو : سفر نامة ، ص ٩٢، ١١٩ ، ١٢٣ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

الفتن وتسلط بعض البدو على الميناء ، والحروب الداخلية القائمة بين القبائل مثل قبيلة بني سليم التي هاجمت سكان الجار من قبائل بني كنانة ، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي الواثق [١] الذي قام بإخماد تلك الفتنة ، وتأديب الثائرين [٢] .

بالإضافة إلى مهاجمة الصليبيين سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م للأراضي الحجازية والاستيلاء على المراكب المحملة بالأطعمة ، والمرسلة عن طريق البحر إلى الحرمين الشريفين ، واتجاههم إلى المدينة المنورة ، وإعلان نيتهم بالاعتداء على حرمة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله رد كيدهم وهيأ لهم صلاح الدين وأخوه العادل [٣] الذي تمكن من صد الصليبيين[٤]، وقد كان للهجوم الصليبي وغيره أثره في إثارة الرعب في نفوس أهل الجار ،

---

(١) الواثق : هو الواثق بالله هارون بن المعتصم بالله ، أمه رومية يقال لها قراطيس ولي الأمر بعهد من أبيه سنة ٢٢٧هـ ، أحسن إلى الطالبيين ، دعا إلى خلق القرآن وقيل أنه رجع عن ذلك قبل موته وكانت خلافته خمس سنين ونصف ومات بسامراء ٢٣٢هـ ، وإليه انتهى ادعاء المعتزلة في خلق القرآن .

(٢) الأنصاري : رحلة إلى الجار ، ص ٤٨٩.

(٣) الملك العادل سيف الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي وصاحب مصر وسوريا واليمن ولد بدمشق سنة ٥٢٨هـ استولى على خلاط أرمينية خدم مع أبيه نجم الدين وعمه أسد الدين شيركوه وأخيه صلاح الدين عند السلطان نور الدين زنكي ت ٦١٥هـ.

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩ ؛ حسنين ربيع : بحر الحجاز : ص ٤٠٣-٤٠٤ ؛ د.عبدالعزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص ٢٦١.

وسكانه، وبالتالي إلى تفرقهم في بطون الأودية ، والشعاب ، الأمر الذي جعل الأيوبيين في سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م والذين كانوا مسيطرين على الحرمين الشريفين أن يتخذوا من ميناء ينبع ميناء رئيسيا للمدينة المنورة ،وذلك بشرائه من الأشراف الحسنيين ، وهم أهل ينبع النخل بمبلغ أربعة آلاف مثقال[١] [*] ، وبذلك أصبح ميناء ينبع منذ ذاك التاريخ ميناء المدينة المنورة ، وأنشأت فيه المنشئات المعمارية وجعلوا الجند عليه لحمايته ، وأهمل ميناء الجار منذ ذلك التاريخ[٢]. وقد لعب الجار دورا كبيرا في عهد ازدهاره ، حيث كانت الواردات القادمة إلى الحجاز من الخارج تأتي عن طريقه وأهمها القمح ، والتوابل ،والدار الصيني (القرفة) ، والقرنفل ، والمسك ، والعود ، والكافور [٣] ، وكذلك حب الهال ، والزعفران ، وخشب الصندل ، والمصطكى ، والعاج , والحرير ،والأحجار الكريمة[٤] .

وأما ماكان يصدر عن طرق ذلك الميناء ففي مقدمته التمور ،وماء الورد ، والسمن ، والعسل ، والصوف ،وبعض الأسلحة ، والخيل العربية الأصيلة [٥] .

---

(١)المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٥ ؛ الجاسر : بلاد ينبع، ص ٤٩ ؛ البلادي: على طريق الهجرة ، ص ١٩٥ ؛ على حسين : النشاط التجاري في جزيرة العرب ، ص ٩٠-٩٥.

(*) والمثقال : هو وحدة من وحدات الوزن لكن المقصود به هنا الدينار الإسلامي وهي العملة المتداولة ، انظر : ابن منظور : لسان العرب، ج ١١ ، ص ٨٦.

(٢) المقريزي : ج ١ ، ص ٢١٥ ؛ الجزيري : درر الفرائد ، ج ١ ، ص ٢٨٩.

(٣) ابن خردازبه : المسالك والممالك ، ص ١٥٣-١٥٤.

(٤) حسنين ربيع وثائق الجنيزة : بحر الحجاز في العصور الوسطى ، ص ٤١٦ .

(٥) ضيف الله الزهراني : الحضارة الإسلامية وعالم البحار ، (بحوث ودراسات) ميناء الجار ، ص ٢٥٠.

أما عن أطلال الجار فلم يبق منه سوى تلال أثرية تغطي مساحة كبـيرة من الأراضي وترتفع بضعة أمتار عن سطح الأرض [١] ، وآثار بناء المنـازل التي تبدو واضحة بين أكوام التلال ، وا لكثبان الرملية ،ولنا على ذلك علامات بارزة على أسوار المدينة، وكذلك وجود الرماد في مواقع متعددة ،والتي عللها حمد الجاسر بقوله (مواقع أفران) [٢] لتموين سكان المدينة والحجاج بـالخبز اللازم ، إضافة إلى زجاج متكسر وخزف السيلاوون المستورد من الصين ،أما منازل الجار فهي مبنية من الحجر المرجـاني المسـتخرج مـن البحـر ، أو المقطوع من محاجر الساحل الغربي من المدينة المنورة [٣] .

أما في المرسى فيوجد أبنية حجرية منحوتة ، ومطلية بالجص الأبيض، ومثبت فيها حلق حديدية تستخدم لربط السفن [٤] .

وهكذا أصبحت الجار خاوية خالية المعالم لا حياة فيها ، بعد أن كـانت ميدانا لحركة صاخبة وتجارة مزدهرة عن طريق الميناء ، والتجار في حركـة دائمة لنقل ا لبضائع من السفن الوافدة من كل مكان إلى الميناء ،ونقلها إلـى المدينة المنورة بعد امتلاء دكاكينها المفعمة بالبضائع من كـل لـون ، وكـل صنف ، سنة الله في خلقه .

---

(١) ابن خردازبه : مصدر سابق ، ص ١٣١ .

(٢) الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ١٨٩.

(٣) على الغبان : الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، ص ١٨.

(٤) البلادي : على طرق الهجرة ، ص ٢١٠.

ب – ينبع البحر :

أما ينبع البحر فهي تمثل شريطا ساحليا على امتداد الواجهة المائية التي تطل منها المدينة على خليج ينبع حيث المراحل الأولى لنشاط المدينة والتي ترتكز فيها النشاطات التقليدية لها من حيث النقل البحري والصيد وصناعة القوارب قديما (١) .

ومن هنا يظهر أن ينبع البحر نشأت عند نقطة التقاء على ساحل البحر الأحمر الشرقي حيث يلتقي عندها الطريق البحري ، والطريق القديم ، والذي يقع إلى المشرق منها ، وقد قام بربط مراكز الحضارات الشمالية في مصر والشام بالمناطق والمراكز الجنوبية ،والمتمثلة في بلاد اليمن .

هذا وان كانت المصادر التاريخية لا تدل بشكل قاطع على معرفة الزمن الذي نشأت فيه مدينة ينبع البحر،ولا حتى الزمن الذي اكتسبت فيه مسماها الحالي ، ولكن يبدو أنه كان لها وجود قبل الميلاد اذ تشر بعض الكتابات القديمة إلى استخدام الحملة الرومانية لينبع البحر أثناء عودتها إلى مصر بعد مهاجمة اليمن سنة ٢٠ق.م . إلا أنه يرجح أن التاريخ الثابت لبروزها وأهميتها كميناء حيوي يعود إلى أوائل القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي (٢) ، أما سر تسميتها(بينبع البحر) فإن لفظ ينبع أضيف إليها البحر حتى يفرق بينها وبين ينبع الأولى – ينبع النخل – وخصوصا ، وأنها تقع على ساحل البحر ، ولم يكن لينبع شهرة كبيرة عند المؤرخين ، وخصوصا في العهود الإسلامية فيما قبل القرن السابع الهجري (٣) .

---

(١) الرويثي : الموانىء السعودية ، ص ٣٣٥.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٤٦ .

وماقاله الدكتور جواد علي أنها كانت معروفة قبل الإسلام ، وحتى قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحيث أنها كانت تسمى (NERA) أو(Negra) في كتب اليونان القديمة ، وقد نقل الدكتور جواد علي نقلا عن فوستر أن كلمة NERA اليونانية تعني بذلك كلمة ينبع العربية ومن هنا كانت) (NERAKOME تعني بالعربية مدينة ينبع وأنها الميناء الذي أبحر منها اليونان (١) . وهذا يؤكد ماذهبنا إليه عن قدم وجود الميناء واستخدامه .

ولكننا نجد الدكتور جواد علي يذكر أن أهم الموانئ على شاطئ البحر الأحمر هو ميناء EGRA أو الجار بالعربية حيث كان معروفا منذ العصر الجاهلي ومعروفا في كتب اليونان أيضا وقد كان اليونان يأتون من جزيرة العرب إلى مصر عن طريق هذا الميناء (٢) لكن الجاسر يرى أن هذا الميناء الذي نقله د. جواد عن فوستر هو ينبع لكن الاسم قد حرف بحذف G وزيادة حرف N في أوله ،واذا كان هذا صحيحا فان أقرب موضع تنطبق عليه التسمية هو (اكره) فيما بين (الوجه) ، و (الحوراء) قديما أملج حديثا (٣) .

---

(١) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٤٦ .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٨٩.

(٣) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

وأرى أن الدكتور جواد على له الحق في التأكيد على شهرة الجار منذ العصر الجاهلي حيث أن ينبع البحر لم تكن لها أي شهرة ، فقد كان الجار يحتل المكانة المرموقة على البحر الأحمر حيث السفن ترفأ إليه من الحبشة ، والبحرين، والصين[1] ، وهذا لا ينفي وجود ينبع البحر في العهود القديمة ولكن لم يكن مستخدما مثل ميناء الجار ، مما يؤكد الرأي الذي أشرنا إليه على قدم وجود ينبع .

وينبع البحر تقع شرق البحر الأحمر [2] ، كما أنها تقع غرب ينبع النخل على خط عرض ٢٤ درجة شمالا وعلى خط طول ٣٦ درجة شرقا ،وتقع في الناحية الغربية للمدينة المنورة وعلى بعد حوالي ٢٤٥ كيلو مترا منها ، وعن مكة المكرمة بحوالي ٥٣ ساعة [3] .

وكما ذكرنا سابقا بالنسبة للمسافات القديمة نتيجة الطرق الوعرة ، والمسالك الصعبة ، والسير بالمواصلات البدائية عن طريق الجمال ،والبغال ، أما الآن ، فقد تغير الوضع حيث الطرق المعبدة ، فلو حسبنا المسافة بالكيلو مترات من المدينة إلى بدر لوجدناها حوالي ١٥٥ كيلو مترا ، ومن بدر إلى ينبع البحر ٩٥ كيلو مترا ، إذن فالمسافة من المدينة إلى ينبع البحر حوالي ٢٥٠ كيلو مترا ، وهذه المسافة بالحسابات الحديثة في الوقت الحالي

---

(١) عرام السلمي : أسماء جبل تهامة وسكانه ، ص ٩ .

(٢) رفعت باشا : مرآة الحرمين ، ص ١٣٢ ؛ صبري باشا : مرآ ة جزيرة العرب ، ص ١٩٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

ووقوع ينبع البحر على ساحل البحر الأحمر يشكل مرفأ جيدا للمدينة ، ومثلها مثل جدة لا يوجد بها مياه عذبة كينبع النخل غير القليل من المياه الذي يجمع في الصهاريج للشرب فقط ، ومن الآبار المحفورة والتي تتجمع مياهها عن طرق السيول في بلدة سهيلى التي تبعد ثلاث أو أربع ساعات حيث تميل مياهها إلى الملوحة بعض الشيء في حين أن ينبع النخل توجد بها العيون الجارية ، والتي لا حصر لها، والتي تتميز بانسيابها وغزارتها دون أن يستفاد منها لعدم وجود الدعم المادي الذي يقوم بإيصال المياه العذبة إلى ينبع البحر [١] .

ووقوع ينبع البحر على خليج البحر الأحمر وبجانبها بعض الجزر منها جزيرة العباس وهي في منتصف الطريق بين جدة والوجه مما مكن لها حماية طبيعية من التيارات البحرية والعواصف [٢] ، ويؤكد يوركهات ذلك في قوله (بنيت ينبع على الجانب الشمالي لخليج عميق يشكل مرفأ للسفن وهو محمي من العواصف بواسطة جزيرة عند مدخله) [٣] حيث يقع هذا الخليج على الجانب الشرقي من البحر الأحمر ،ويبعد عن شمال جدة حوالي ٣٤٠ كم .

ونجد أن الشاطئ ذو سعة كافية تتسع لأكبر عدد من السفن ، والجلاب الضخمة، وهذا يدل على شهرة المدينة تجاريا ، وكونها حلقة وصل بينها وبين المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، لأن وجود السفن ، والموقع الساحلي يسمح للحجاج بالقدوم عن طرق هذا الميناء من مصر ،وبلاد الشام ،والمناطق

---

(١) رفعت باشا : المرجع السابق ، ص ١٩٥.

(٢) سيد عبدالمجيد بكر : دروب الحجيج ، ص ١٤١.

(٣) يوركهات : رحلات في شبه جزيرة العرب ، ص ٣٨٣.

الأخرى ، ولعل تلك الأسباب هي التي جعلت المنطقة موطن استيراد وتصدير من وإلى ينبع ، وخصوصا أنها كانت تقوم بتموين السفن التي تملأ المستودعات الكبيرة في السويس بثروات الشرق إضافة إلى أن السفن يتم تموينها بما يلزم من طعام وشراب [١] . وقد وصفت ينبع من حيث الأهمية البحرية بأنها بوابة المدينة المنورة بلا جدال إذ كانت السويس بوابة مصر على البحر الأحمر ، وجدة بوابة الحجاز الجنوبي ،وينبع بوابة الحجاز الأوسط[٢] .

وتمتد ينبع البحر من منطقة الحوراء جنوب شرق تلك المنطقة كما يمر بوادي خماش ووادي نبط [٣] ووادي كمال ،حيث تقع عند تقاطع خط العرض ٥ – ٤٢ شمالا ، وخط طول ٣-٣٨ شرقا على خليج يمتد من البحر الأحمر، وفيهاجزر متعددة منها جزيرة العباس ، وتبعد عن المدينة المنورة ٢٠٨ كيلو مترا ، وقد شهدت ينبع البحر نهضة عظيمة أيام حكم المماليك [٤] ، وقد كان أمير ينبع يأخذ المكوس على السفن المارة بالميناء [٥] ، وأكد ابن شاهين ذلك بقوله " والينبوع بندر ترد إله المراكب بالغلال محملة ،وهي قادمة من سواحل الطور " وهو ميناء مصري يقع على البحر الأحمر ، وحين تصل السفن يؤخذ

---

(١) الرويثي : الموانئ السعودية ، ص ٢٩٨.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) نبط : واد بين ينبع وواد الحمض على ٩٠ كيلو مترا شمالا ،وفيه آبار ، وبعض مايحتاجه الانسان من وسائل الإعاشة وهو على مرحلة شمال الحوراء . انظر: الجزيري: درر الفرائد ، ج١ ، / ٥٣١ ؛ البلادي :معجم معالم الحجاز، ج٩ ، ص ٢٠.

(٤) آمنة جلال : طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي ، رسالة دكتواره غير منشورة ، ص ٦٤ .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ، ج ٢ ، ١٤١٧.

عليها المكوس لصاحب الينبوع ،والتي تقدر قيمتها حوالي ثلاثين ألف دينار(١).

وأقام الأيوبيين بعض الإصلاحات في ميناء ينبع في بداية القرن السابع الهجري سنة ٦٢١ هـ وجعلوا منه ثغرا هاما من ثغور الحجاز خاصة بعد اضمحلال ميناء الجار حيث رست فيه السفن القادمة من مصر (٢) .

وأصبح ميناء ينبع يغذي المدينة ، ويزودها بالمتاجر ، والغلال إضافة إلى كونها محطة برية لحجاج مصر ، والشام والمغرب وغيرها ، وقد كان طريقهم حين يصلون إلى العقبة ثم ينزلون إلى الطريق الصحراوي ، ويمرون بينبع ، وهم في طريقهم إلى المدينة المنورة ، ومكة المكرمة .

---

(١) ابن شاهين :زبدة كشف الممالك ، ص ١٦.

(٢)الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٤٩-٥٠.

ينبع النخل

ينبع النخل :

يقول الفاسي : " ينبع بلد حجازي على ساحل البحر الأحمر من جهة الشمال لمكة ، ويقال لها ينبع البحر ، وقريب منها في الداخل بلد يقال لها ينبع النخل" [١] .

وقيل في سر تسميتها بينبع النخل أن ذلك بسبب كثرة نخيلها [٢] هذا وقد أطلق الاسم عند المتقدمين على الواحة الداخلية التي تعرف اليوم بينبع النخل[٣] أيضا ، وتقع ينبع النخل في الجهة الشرقية من ينبع البحر وعلى مسافة ست ساعات [٤] .

ويلاحظ أن قياس المسافة بست ساعات إنما قدر على أساس وعورة الطرق وصعوبتها في ذلك الوقت ، أما الآن – وبعد التقدم الحضاري وتعبيد الطرق – فقد أصبحت المسافة بين ينبع النخل وينبع البحر أقرب بكثير ،ويؤكد البلادي في قوله" انها على مسافة ٩٠ كيلو متر " [٥] .

وإذا قيس زمن هذه المسافة حاليا فسوف يكون في حدود ساعة أو يزيد قليلا .

وينبع النخل تشكل منطقة واسعة حيث تمتد بين دائرتي عرض ١٥ –٢٤ شمالا ٣٠ –٤٠ شمالا كذلك بن خطي ٢٣ – ٣٨ شرقا ، ٣٠ – ٣٨شرقا ،

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣١٥ .

(٢) البلادي : قلب الحجاز ، ص ١٦١.

(٣) الغبان : الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ، ص ٣٨.

(٤) مرآة جزيرة العرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٥ .

(٥) البلادي : على طريق الهجرة ، ص ١٨٨ .

وهي عبارة عن عدة قرى متوالية ،وكأنها عقد يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي [١] .

ولعل تعدد القرى ،وكثافة السكان يعطي دليلا على توفر مقومات الحياة بها ،وقيام كثير من الأنشطة الزراعية خاصة وقد توفر لها جودة التربة ، وكثرة المياه ، ومن هنا كان وصف النابلسي لها " أنها قرية كبيرة ذات نخل ومياه غزيرة " [٢] .

كما أكد ذلك الموسوي بوصفه لها " أن مياهها كمجاج النحل " [٣] وهو يعطي دليلا على عذوبة مائها ، وحلاوته ، وتوافره من كل جهاتها الأربع .

كما يؤكد أيوب صبري باشا : أن سبب تسمية تلك القرى في مجموعها ينبع النخل هو وفرة مياهها وغزارته [٤] ، كما يؤكد قوله أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين نظر إلى جباله قال : " لقد وقعت على نقب من الماء عظيم " [٥] .

وقد وصف المقدسي ينبع فقال : " ينبع كبيرة جللة ، حصنة الجدار ، غزيرة الماء أعمر من يثرب ، وأكثر نخلا [٦] ، وتعتبر ينبع النخل هي المنزل

---

(١) بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٤٠.

(٢) الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، ص ٣١٩.

(٣) الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص ١٠ .

(٤) مرآة الحجاز ، مرج سبق ذكره ، ص ١٩٦ .

(٥) الموسوي : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠ .

(٦) أحسن التقاسيم ، ص ٨٣ .

الرابع والعشرين من منازل الحاج المصري إلى مكة حيث يبقى للحاج سبعة منازل إلى مكة هي بدر ، ومنزل القاع ، ومنزل رابغ ، ومنزل قديد ، ومنزل عسفان ، ومنزل وادي فاطمة " [١] .

وينبع النخل من المدن الداخلية ،والبعيدة عن الساحل بين شعاب الجبال وجنبات الأودية وخيوفها ، وهي في رحبات الحرارة ، وبطونها ،وأينما توجد مصادر المياه تتناثر القرى ، كما أنها أكثر عددا من المدن والقرى الساحلية، ويذكر ابن شاهين أن المسلمين يخلطون بين المدينتين عند الحديث عنهما من ذلك قول صاحب زبدة كشف ا لممالك على فترة الازدهار التي مرت بها ينبع فيقول " ينبع مدينة عظيمة حصينة تشتمل على سور ، وقلعة كثيرة العمائر ، والأسواق وهي بلدة ترد إليه المراكب والغلال من سواحل الطور ، ويؤخذ عليها المكوس لصاحب الينبوع ، وقدره ألف دينار " [٢] .

نستدل من ذلك على كثرة عدد المراكب الواردة إلى الميناء ، وهي محملة بالشحنات العديدة من الغلال ، مما أدى إلى مكاسب مادية كبيرة قدرت بألف دينار .

وفي ينبع النخل العديد من القرى من أشهرها سويقة ، ولها تاريخ قديم، وقد لحقها الخراب في عهد الخليفة العباسي المتوكل[*] سنة

---

(١) الجزيري : درر الفوائد المنظمة ، ج٢ ، ص١٢٥٢ ، النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣١٩ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٦ .

(*) المتوكل العباسي : هو جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هرون الرشيد بويع بعد الواثق سنة ٢٣٢هـ ، كان جوادا محبا للعمران ، أمر بترك الجدل في مسألة خلق القرآن ، نقل مقر الخلافة إلى سر من رأى ، اغتاله الأتراك سنة ٢٤٧هـ . انظر: الزركلي : الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

٢٤٤هـ ، حيث خرج محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى الحسني (*) على المتوكل الذي أرسل لهم جيشا ضخما فظفر به ، وبجماعة من أهله ، وقيدهم وقتل بعضهم ، وخربت سويقه ، وعقر نخلها ،وخربت منازلها ، وهدمت كما خربت مصانعها(١) .

وسويقة في المعنى اللغوي تصغير سوق للبيع والشراء ، وهي سكنى لآل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢) .

وتعتبر سويقة منازل بني ابراهيم (٣) وهو أخو محمد ذو النفس(**) الزكية (٤) ويذكر البلادي أن سويقة قاعدة لينبع النخل لوجود السوق العامرة فيها (٥) .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، حوادث سنة ٢٤٤هـ ، البكري : معجم ماستعجم ج٢ ، ص٦٥٦ .

(٢) الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨٦؛ العباسي : عمدة الأخبار ، ص ٣٤٣.

(٣) ابراهيم بن صالح عبدالله بن موسى الحسني وهو أخو محمد والملقب بالنفس الزكية . انظر: السمهودي ، ص ١٢٣٩.

(٤) النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ٣٢٥.

(٥) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

(*) قبض على محمد بن صالح الحسني وحمل سجينا إلى سر من رأى وتوفى في محبسه سنة ٢٤٨هـ في عهد الخليفة العباسي المنتصر لدين الله .

(**) محمد ذو النفس الزكية : هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي أبوعبدالله الملقب بالأرقط والمهدي وبالنفس الزكية وكان يقال له " صريح قريش " كان غزير العلم شجاعا حازما ،تخلف عن بيعة العباسيين هو وأخوه ابراهيم ، ثار بالمدينة فأرسل اليه ابوجعفر المنصور جيشا قوامه أربعة آلاف فارس بقيادة عيسى بن موسى وقتل ذو النفس الزكية أثناء القتال وبعث برأسه إلى المنصور سنة ١٤٥هـ. انظر : الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص٢٢٠ .

ونستدل من خلال ذلك على مركز سويقة التجاري بالنسبة لينبع النخل حيث يتم البيع والشراء إضافة إلى خزن الغلال في مخازنها ، كما يتم تصنيع بعض الاحتياجات الأولية في بعض المصانع اليدوية البسيطة . ولكن الفتن التي لحقت بها أدت إلى خرابها ، وقطع نخيلها واندثار كثير من عمرانها .

ومن القرى المهمة في ينبع النخل قرية البركة وكانت عامرة حتى وقت قريب ، فيذكرها البلادي بقوله : " ربما تكون ذو ا لعشيرة التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم من الملاحظ أنه لم يبق منها سوى آثار وأطلال بالية"[١].

كما يذكر البلادي أن من قرى ينبع النخل السكوبيه على زنة فعولية وهي من السكب وهي بلدة عامرة ،ويدلنا على ذلك وجود الدكاكين ،والنزل والعين الجارية فيها ، وبقيت حتى وقت قريب[٢] والمقصود بالنزل هنا هو مقر إقامة التجار الذين ينزلون السوق ويأتون إليه للتجارة ببضائعهم فتلك الأماكن تسمى نزلا وقد كانت النزل قديما تسمى خانات ،أو بازارات ، وغير ذلك من الأسماء فالسكوبية تشبه سويقة في كونها بلدة عامرة مليئة بالأسواق إضافة إلى العيون الجارية ، فوجود العين أدى بالتالي إلى وجود السكان وتوفر الأيدي العاملة اللازمة لقيام الزراعة والحاصلات الزراعية ، ومن أشهر قراها

---

(١) البلادي : على طرق الهجرة ، ص ١٩٩ .

(٢) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٢١٣.

العلقمية ، وتعتبـــر موطن آل قتادة بن ادريس بـــن مطــاعن [١] ، والذيـــن حكموا مكة من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجري ، حيث توارثها أبناؤه وأحفاده ،وسميت بذلك نسبة إلىعلقمة بن يحيى بن عبدالله بن الحسن[٢] ومن القرى أيضا البليد ، وهي تصغير بلد : وهي قرب المدينة بواد يدفع فـــي ينبع وهي قرية لآل علي بن أبي طالب[٣].

ومن القرى المتعددة والمتواجدة في ينبع النخل نستدل في وجود الأودية التي أدت إلى خصوبة التربة ،وبالتالي إلى قيام المزروعات المتنوعة ، وعلـــى رأسها النخيل كل تلك العوامل أدت إلى قيام قرى سكانية ، وان كـــان لابـــد أن يكون بعضها من بيوت الشعر كأهل البادية وبعضها مبني من اللبن والبعـــض الآخر من الحجارة ، كما أورد لنا خليل بن شـــاهين أن ينبـــع النخـــل كثـــيرة العمائر[*] والأسواق ، والمزروعات،والنخيل[٤] .

ومن القرى المشهورة قرية الدهناء ، وهي قريبة من ينبع وتشتهر تلك القرية بالزراعة ،وسكانها من الأشراف ، وهي محطـــــة للحجاج [٥] ويذكر

---

(١) الجاسر : بلادي ينبع ، ص ١٨ ؛ الخطيب : تارخ ينبع ، ص ٤٦.

(٢) الخطيب : مرجع سابق ، ص ٤٦ .

(٣) الجاسر : المرجع السابق ، ص ١٤ ، البلادي: معجم معـــالم الحجـــاز ، ج ١ ، ص ٢٥٣.

(٤)ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١٦-١٧.

(٥) البلادي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤١.

(*) العمائر : يقصد كثرة النخيل وتجاوره وارتفاعه كالعمائر .

الجاسر أنها تقع بين ينبع ،وبدر ، وهي قريبة إلى ينبع [١] ، وفي الدهناء حدثت فتنة يحيى بن سبع ، وهو من الأشراف في ينبع خرج ليطالب بالامارة لنفسه من سلطان مصر قنصوه الغوري[٢] ، وأضاف الجزيري أنها قرية عامرة وبها مساجد ، وحدائق ، وأشجار ، وعيون جارية حيث يتزود الحجاج عند مرورهم لكن ومع مرور الزمن غارت العيون ، وجفت الأشجار [٣] وهدمت كثير من أبنيتها .

ومن قرى ينبع النخل البثنة قام بعمارتها وزراعتها وإجراء عيونها عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بمال امرأته ، حين تزوجها وجعل حاصل تلك المنطقة لها [٤] .

ومن القرى أيضا ذو العشيرة ، وهي تنسب إلى غزوة الرسول صلى الله عليه وسلم الثالثة حين خرج في السنة الثانية من الهجرة يريد عير قريش التي خرجت إلى الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب ، فوجد الرسول صلى الله عليه وسلم أنها مضت ، فعاد إلى المدينة، وتشتهر العشيرة بالعيون لكنها درست اليوم [٥] .

ويذكر البلادي أن في العشيرة مسجدا معروفا ، وعنده محطة للحجاج

---

(١) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٨٣ .

(٢) البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٣٨ .

(٤) البلادي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦-١٧٧.

(٥) شاكر : شبه جزيرة العرب ، ص ٧١.

وتعتبر ذو العشيرة أول قرية من قرى ينبع النخل مما يلي ينبع البحر وقيل في ذي العشيرة أبيات منها : [١]

وذو العشيرة جاسوه بخيلهم مع الرسول عليهم البيض والأسل

وهناك العديد من القرى الصغيرة ، منها الحصين ، ويذكر البلادي أنها تصغير حصن وهي قرية لجهينة في وادي العيص ، وفيها آبار وزراعة[٢] .

---

(١) البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ج ٦ ، ص ١١٠-١١١.

(٢) البلادي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

المبحث الثالث

خصائص الموقع

ينبع النخل: هي واحة واسعة خصبة نتيجة تعدد العيون والأودية العذبة، والتي يبلغ عددها تسعة وتسعين عينا ، كما ذكر البكري عن محمد بن عبدالمجيد الصباح (١) ، وتبعد عن المدينة المنورة مسيرة أربعة أيام (١)منها، وهي حسب المقاييس القديمة لمسافات الطرق ، وأما الآن فهي تبعد عن المدينة في حدود خمسين ومائتين كيلومترا (٣) .

وقد كانت ينبع تابعة للمدينة ، ولكنها انفصلت عنها في العصور الأخيرة حسب ماذكر الجزيري والسمهودي ، وأكد ياقوت على وجود العيون فيها والتي يبلغ عددها مائة وسبعين عينا (٤) كما أكد ذلك أيضا الشريف ابن سلمه بن عايش الينبعي وهو من سكان ينبع ، فكثرة العيون بها والتي أخبر الكثير عنها من المؤرخين القدامى ، والمحدثين أدى إلى عمران المنطقة بالسكان، والعمل بالزراعة حيث العيون المتعددة ، وبالتالي أدى إلى خصوبة التربة وتعدد المحاصيل الزراعية ، وفي مقدمتها أنواع التمور ، والخضروات ، ونبات الحناء ، والفواكه وغيرها ، وكانت تصدر من تلك المنتوجات عن طرق مينائها وبواسطة المراكب الشراعية والسفن إلى مصر وغيرها خاصة التمور والحناء ، كما أن لها شهرة كبيرة حيث تقع على طريق القوافل بين الحجاز والشام(٥) . الأمر الذي جعل من ينبع سوقا تجاريا عامرا بين واردات البلاد

---

(١)الجزيري : درر الفرائد المنظمة ، ج ٢ ، ص ١٤١٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ، ج ٤ ، ١٣٣٤ ، البكري : معجم ماستعجم ، ج٢ ، ص٦٥٦ .

(٢) المصدران السابقان ، نفس الجزء والصفحة .

(٣)معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٥٠.

(٤)شاكر : شبه جزيرة العرب ، ص ٧٣.

(٥) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٤١ .

والصادرات التي ترد إليها عن طريق القوافل ، أو السفن المحملة بالبضائع ، ويضيف الجزيري عن قيام أسواق موسمية أيضا في أشهر الحج والعمرة للقادمين من حجاج الشام ، ومصر ،والعراق ، وكثر من البلاد لأداء فريضة الحج أو العمرة ،ولزيارة مسجد الرسول حيث تبعد عنه حوالي مائتين وخمسين كيلو مترا ، وفي أسواق ينبع كانوا يهتمون بكل ما يلزم المترددين عليه وتوفير وسائل الاعاشة لهم حتى أنه أقيم ركن لأنواع من المطاعم والمخابز لإطعام رواد السوق ، وبلغ من شدة اهتمامهم بصناعة الخبز أن الرغيف كان يخبز بأشكال متعددة ومنها نوع يسمى بالتميس وهو معروف في منطقة الحجاز إلى الآن[١] .

وأيضا كان يعمل الفول ، وهو من المأكولات الشعبية والمعروفة في كل من المدينة ، ومكة ،وسائر مناطق الحجاز ، ويباع في السوق العليق ،والبضائع من أهل القرية [٢] . وقد أكد ذلك البشاري في وصفه لينبع النخل حيث قال : " إنها كثيرة النخل حسنة الحصن حارة السوق " [٣] ، والدليل على ذلك كثرة الحركة التجارية وزيادتها خصوصا في المواسم ،وكثرة الأسواق أدى إلى قيام العمران وكثرة السكان حتى تقوم بتزويد القوافل بالغذاء والماء ، وأصبحت بذلك مرفأ المدينة الطبيعي للمدينة وما جاورها [٤] .

---

(١) الجزيري : درر الفرائد ، ج ٢ ، ص ١٤١٦.

(٢) الجاسر : بلاد ينبع، ص ٧-١٠.

(٣) البشاري : أحسن التقاسيم ، ص ٨٣ .

(٤) الجزيري : أحسن التقاسيم ، ص ٨٣. ؛ كحالة : معجم قبائل العرب ، ص ٢٠٩.

كما يعتمد أهل ينبع النخل على مياه الأمطار – إلى جانب كثرة العيون والينابيع – فيشتغل أهالي ينبع بجمعها في الصهاريج حيث يستفاد من مياهها في وقت الحاجة أيام السنة في الأوقات التي يندر فيها الأمطار ، كما يعتمدون أيضا على المياه الجوفية من الآبار المتعددة التي تقع في الجهة الشرقية من المدينة وتعرف بالمسيملي [١] .

وازدهرت في ينبع النخل بعض الصناعات البيئية التقليدية القديمة خاصة صياغة ا لذهب والفضة وصناعة الحلي وصقل الأحجار الكريمة ، ودليل ذلك وجود دكاكين للصاغة يباع فيها المصنوعات الذهبية ، والفضية [٢] ، والجواهر النفيسة ، والياقوت ، وسائر الأحجار الكريمة [٣] .

كذلك يستخدم جريد النخيل في صناعة المكانس والحصر والمراوح والقفف ، وكذلك تستخدم الجذوع أعمدة للمنازل تحمل أسقفة [٤] .فالنخلة من أكرم الأشجار [٥] ، وهي غلة أساسية وطعام رئيسي ، ونواتها علفا للإبل[٦] .

---

(١) الرويثي : الموانئ السعودية ، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٣٨.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٦ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، ص ١٥ . ؛ نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٢٦ .

(٤) عائشة باقاسي : بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، ص ٧٣-٧٤ رسالة ماجستير مطبوعة .

(٥) سلميان مالكي : مرافق الحج ، ص ٤٣-٤٤ ؛ أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٦) باقاسي : مرجع سابق ، ص ٧٣ .

ينبع البحر :

كما كان لموقع ينبع البحر خصائصه الجغرافية والبشرية الخاصة به ونستدل من ذلك على ظهور آثار له في الحركة التجارية واتصاله بالمناطق الداخلية والخارجية كما كان له دور في الحياة الاقتصادية والسياسة بين الحجاز وغيرها من البلدان المختلفة ، فقد كان يمثل حركة اتصال بن الحجاز ومصر والشام والعراق واليمن ، عن طريق التبادل التجاري وتموين السفن القادمة من الشرق ، وكان الميناء مليئا بالمستودعات الضخمة التي تخزن فيها البضائع سواء منها المعدة للتصدير أو القادمة عن طريق الاستيراد البحري ، كما ازدهرت موانئ خارجية كثيرة نتيجة لتعاملها مع ميناء ينبع كميناء السويس والموانئ الأخرى التي تقع على البحر الأحمر (١) ، وازدهر ميناء ينبع في العصر الأيوبي بصورة كبيرة فلقد اهتموا به في مستهل القرن السابع الهجري حيث كان الأيوبيون مسيطرين على الحرمين وأرادوا أن يجعلوا من ينبع الميناء الرئيسي للمدينة (*) فاشتروه من الأشراف الحسنيين أهل ينبع النخل بأربعة آلاف مثقال (٢) كما سبق أن ذكرنا .

---

(١) روبرت ماثيو وآخرون : مدينة ينبع ،ص ١١ .

(*) وهذا يدل على أن ميناء ينبع كان معروفا مشهورا صالحا للملاحة وله مميزات بحرية ، وإلا لما لجأ الأيوبيون إلى إحيائه مرة أخرى .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

ولأهمية الموقع أعاد الأشراف الحسنيون استيلاءهم عليـــه بعـد تسـع سنوات من الاتفاق ولكنهم لم يســتطيعوا الصمـود أمـام الأيوبييـن الذيـن استرجعوه منهم بقوة السلاح وأنشأوا عليه قلعة حصينـة وزودوهـا بـالجند وجعلوه ميناء رئيسيا على الساحل [١] ، حيث كان الجار هو الميـنـاء الأول ، وتخربت تجهيزاته ومنشآته حوالي القرن الرابع الهجري ويقع غـرب بلـدة بدر[٢] ، وينبع تعتبر الميناء الطبيعي للمدينة ووصف بأنه بوابة لها ، كما أن السويس بوابة مصر على البحر الأحمر ، وجدة بوابة ا لحجـاز الجنوبـي ، وينبع بوابة الحجاز الأوسط [٣] كما بينا آنفا .

ويبتعد الميناء عن المدينة ٢٥٠ كيلو مترا تقريبا ، وأول ما بدأ الميناء كان مرسى لصيد أسماك البحر الأحمر فـهو الغـذاء الأساسـي للصيـادين والأهالي المقيمين في المنطقة[٤] ، ثم جهز بالأرصفة وأعد إعدادا بحريا حتـى غدا ذا أهمية قصوى ليس للتجارة الداخلية أو الخارجية فحسب بل في استقبال ونقل الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، إضافة إلى حمل كـل مـا يحتاجه الحاج من مؤن وما يراد توزيعه على المحتاجين من أهـل المدينـة المنورة ، علاوة على استقبال كل مايرسله المماليك و غيرهم إلى أهل الحرمين مـن

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٧ ؛ الجزيري : درر الفوائد المنظمـة ، ج ١، ص ٢٨٩؛ الجاسر : بلاد ينبع ، ص ٤٩-٥٠.

(٢) شاكر (محمود) : شبه جزيرة العرب (الحجاز) ، ج٣ ، ص ٣٨ ، ٧٢ .

(٣) الرويثي : الموانئ السعودية ، ص ٢٩٩.

(٤) الجاسر : مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ١٣٠.

القمح وغيره من المعونات [١] ، والى الشمال من الميناء وعلى بعد خمسة عشر كيلو مترا يقع شرم ينبع لكنه لم يستغل استغلالا بحريا لبعده عن المراكز العمرانية ، ويمتاز بصفاء مياهه ونقائها ، وكثرة الثروة السمكية[٢] ، حيث ازدهر الصيد فيه ، لأنه عبارة عن خليج مغلق ليست به تيارات بحرية قوية . واستفاد أهالي ينبع والمناطق المجاورة من ذلك الغذاء ، كما أدى إلى قيام أسواق لبيعه[٣] وحمله إلى المناطق المجاورة ، وهكذا كانت ينبع تمارس وظيفتها كفرضة بحرية لخدمة السكان المحيطين بخليجها خاصة وخدمة الحجيج والتجارة الخارجية عامة، وتطور الميناء بعد تجهيزه بالإنشاءات البحرية والتجهيزات الملاحية فقد كانت البواخر لا تستطيع ا لوصول إلى الساحل لعدم عمق المياه ولكن كانت السفن ترسو على بعد ١٥٠ مترا ، ثم ينقل الحجاج أو المسافرون وما يحملون من أ متعة بواسطة المراكب والقوارب من السفن إلى الساحل [٤] ، وتم تجهيز تلك السفن بالمؤن والطعام ، إضافة إلى منتوجات البلد سواء كانت زراعية من تمور بأنواعها ،أو غيرها من خضروات و، حناء ، أو عسل أو بخور التي تصدر إلى الأقطار الأخرى عن طرق السفن والجلاب وتموين مخازنها وملء مستودعاتها[٥] .

---

(١) الجاسر : مرجع سابق ، ص ٣٠٤.

(٢) المقريزي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٩١٧ ؛ الجزيري : درر الفوائد ، ص ٢٩٨.

(٣) الجاسر : المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٤) الرويثي : مرجع سابق ، ص ٣١١-٣١٢.

(٥) الجاسر : المرجع السابق ، ص ٣٨ – ٤١ .

المبحث الرابع

أشهر الجبال والأودية
والعيون والآبار في ينبع

يختلف سطح الأرض علوا وانخفاضا من مكان إلى آخر ، ويرجع ذلك إلى تأثره بالعوامل الطبيعية خلال العصور الجيولوجية المختلفة ،ومنطقة ينبع تشكل موقعا جغرافيا فريدا في منطقة الحجاز تتخللها الخلجان والأودية والسهول الساحلية والمرتفعات الصخرية المرجانية الملاصقة للميناء والجبال الشاهقة والوهاد المتوسطة الارتفاع ، والسهول المنبسطة التي تكتنفها مجموعة من القرى الزراعية التي تغذيها الآبار والعيون المائية .

ولذا كانت تضاريس المنطقة في ينبع تشكل مجموعات مختلفة من المظاهر الجغرافية المتكاملة .

وينبع وادي نخل عظيم يكتنفه الكثير من الجبال الشواهق، وبعض الأجبل الصغيرة ، ومن تلك الجبال العالية تنحدر الروافد المتفرعة مكونة عيونا وقرى ، ومن أهم تلك الجبال جبل الأجرد ، ذكر ياقوت الحموي بأنه الموضع الذي لا نبات فيه(١).

وجبل الأجرد هو جبل ضخم يقع غرب المدينة ، يحيط به من الشمال والشرق وادي إضم (*) ، وفي الشمال الغربي جبل الأشعر ، ويفصل بينهما ريع بواط ، ويصب في ينبع من جهة الغرب وفي الشرق يصب وادي إضم (٢)

---

(١) معجم البلدان : ج ١ ، ص ١٠١.

(*) إضم : وهو واد عظيم تتجمع فيه الأودية ، وقيل تتجمع فيه السيول ، ويعرف بوادي الجلسي ،وله عدة روافد منها وادي النقيع ، والعقيق الشرقي ، ونخل ، وأودية خيبر ، والجزل ، ووادي القرى ، وملل ، والعيص ، وغيرها من الأودية . انظر: البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ص ١١٢-١١٣ ، معجم ماستعجم ، ج٢ ، ص٦٥٣ .

(٢) البلادي : قلب الحجاز ، ص ١٦٧ .

قال البكري وياقوت : " إن الأجرد أحد جبلي جهينة ، والآخر الأشعر ، وإليه تنسب أوديتهم ، ومن الأودية التي تسيل من جبل الأجرد العقدة ، وهو وادي يقع شمال بواط ويصب في ينبع"(١).

والذي يميز هذا الوادي أنه ليس فيه زراعة(٢) ، لأن أرضه صخرية أو شديدة الملوحة ، أو أن مياهه جارية جارفة من الصعب التحكم فيها لري الأرض ، ومن الأودية الأخرى التي تنحدر من جبل الأجرد مبكثه ، ويليه رشاد(*) ويليه الحاضرة(**) ، ثم يليها تيرز وبه عيون صفا ، ثم وادي هزور ، وهو من أودية الأجرد أيضا (٣) .

وقد اختلف الجغرافون ، والمؤرخون في أسماء العيون ومواقعها حيث ذكر البكري أن الحاضرة عين ، ويلها تيزر ، وهي عيون متعددة لكن الجاسر ذكر اسما آخر وهو تيده (٤) ، وربما خطأ في الطباعة فحين المراجعة في كتابه بلاد ينبع كان اسم الوادي تيزر ، أما في مجلة العرب فسمي تيدد والله أعلم.

---

(١) معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ١١١٢ ؛ معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٢.

(٢) البلادي : قلب الحجاز ،' ص ١٦٣ .

(*) رشاد : كان اسمه غوى ، وهو من أودية الأجرد ، ويذكر أن الرسول صلى الله عله وسلم سماه رشاد ، وهو لبني دينار موالي بني كلب بن كثر ، وكان دينار طبيبا لعبدالملك بن مروان . انظر : البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص٥٠

(**) الحاضرة : واد فيه قبر للصحابي الجليل عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه . انظر : البكري : معجم ما استعجم، ج ١ ، ص ١١٢.

(٣) المصدر السابق : نفس الجزء ، ص ١١٣٤ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ص ٥٢ .

مجلة العرب ، ج ٧ و ٨ ، محرم وصفر ١٤٠٤هـ ، /١٩٨٣م مقال بعنوان (وادي رشاد في بلاد جهينة) .

(٤) معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ١٦٣ ؛ بلاد ينبع ، ص ١٥٩.

ومن الآبار الموجودة في منطقة الأجرد بئر السباع ، وبئر الحواتكة[١]
ومن الجبال الشواهق في ينبع جبل الأشعر وهو في اللغة بالفتح والسكون وفتح العين المهملة والراء ، والأشعر والأقرع جبلان معروفان بالحجاز[٢] ، وذكر البكري أن الأشعر على وزن أفعل ، وهو من كثرة الشعر وهو أحد جبلي جهينة ، وقد سمي بذلك لكثرة شجره[٣] .

وروى أبو هريرة[*] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله خير الجبال أحد ، والأشعر وورقان ، وهي بين مكة ، والمدينة[٤] .

---

(١) البكري : معجم ماستعجم ، ج١ ، ص١١٣ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص٥٣ .

(٢) ياقوت : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٩٨ .

(٣) معجم ماستعجم ، ج١ ، ص١٥٤ .

(*) أبو هريرة الدوسي : هو عبد الرحمن بن عدنان بن عبد الله زهران ينتهي نسبه إلى الأزد ، قال البخاري روى عن أبي هريرة أكثر من ٨٠٠ رجل من صاحب وتابع ، استعمله عمر على البحرين ثم عزله ، سكن المدينة وتوفي سنة ٥٧هـ على خلاف بين المؤرخين وأصحاب الطبقات .
الحديث رواه أحمد في مسنده ، ج٢ ، ص٣٣٧ .

(٤) ياقوت : مصدر سابق ، ج١ ، ص١٩٨ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص٩٩ .

ويحاذي الأشعر من شقه اليماني وادي الروحاء ، ومن شقه الشـــامي بواطان الغوري ، والجلسي ، وهما جبلان متفرقا الرأســين ، لكــن أصلــهما واحد، وبينهما طريق سالك سار فيه الرسول صلى الله عليه وسلم في غــزوة ذي العشيرة من ينبع [١].

وذكر البلادي في كتابه قلب الحجاز عن الأشعر فقال : يسمى الأشـــعر اليوم الفقر بكسر الفاء ، وسكون القاف بلفظ الفقرة من الظهر ، ويصف الجبل بأن جبل ممتد من الشمال إلى الجنوب ، وبقربه وادي الصفــراء ، وروافدهــا المتعددة مثل طاشا / والآب / ورحقان ، كما يصف الأشعر بأنه يمتد ، ويصــل إلى بواط حيث يفصل بينه وبين جبل الأجرد ، ورأس الجبل على مساحة كبيرة طولها على مسيرة يومين ، أما عن المسافة بالكيلومترات فهي حوالـــي ٢٥ كيلو مترا، حيث تسمح تلك المساحة الواسعة التي في القمة أن يزرع النخيــل فيها ، وكذلك القمح ، ويسيل من الفقرة في ينبع وادي نخلي ، وكذلــك فــي إضم حوره وحويره ، وأودية أخرى[٢] ، وكذلك نخلي ويسمونه اليوم نخيلي ، وهو واد يأتي من الفقرة (الأشعر) ثم يتجه شمالا، فيدفع في ينبع .

وبلى تصغير بضم الأول ، وهو وادي يسيل من السفوح الغربية للفقرة، ثم يدفع في أسفل ينبع من الجنوب عند النخيل ، ومنها أيضا رحقــان ، وهــو وادي من أودية الأشعر يصب في الصفراء من جهة الجنوب غرب المسجيد[٣].

---

(١) البكري : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٢) البلادي : قلب الحجاز ، ص ١٦٧.

(٣) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

ويذكره البكري بقوله رحقان بفتح أوله ،وإسكان ثانيه بالقاف على وزن فعلان ، يقع قرب المدينة بين النازيه – والصفراء ، ومنه سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدر[١] .

ومن أودية الأشعر البلدة أو البليدة على التصغير كما في ياقوت ، وهو من أودية الأشعر في أسفل نخل قرب الفقرة ،وهي لآل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم يدفع في ينبع ، قال الهجري وذكر كثير البليد فقال :

وقد جال من حزم الحمامتين دونهم   وأعرض من وادي بليد سجون [٢]

وتأتيك عير الحي لما تقاذفت   ظهورها من ينبع وبطون

ومن جبال ينبع المشهورة: جبل رضوى ، وهو يماثل الأجرد والأشعر ويقع بين مكة والمدينة قرب ينبع على مسيرة يوم منه او على ليلتين من البحر، وشرقيه وادي الصفراء على يوم منه به مياه كثيرة وأشجار في شعابه هكذا حدده البغدادي[٣] ، وقال رضوى بفتح أوله وسكون ثانيه ، جبل ضخم كثير الشعاب ، والأودية يقع في الجهة الشمالية الشرقية من ينبع ، وسكانه من بطون جهينة.

وتعتقد الشيعة الإمامية أن آخر الأئمة الإثنى عشرية محمد المهدي ، قد غيب فيه وأنه مازال حيا حتى يبعثه الله ، وهو المهدي المنتظر كما يزعمون.

---

(١) البكري : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ البلادي : مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٤٢.

(٢) معجم البلدن : ج ١ ، ص ٤٩٣؛ السمهودي :وفاء الوفاء ، ج ٤ ، ص ١١٥٥.

(٣) البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٦٢٠.

وأضاف كل من ياقوت ، والبلادي أن رضوى جبل عند ينبع لجهينة ، وبينه وبين الحوراء فرضه من فرض البحر ترفأ إليها السفن من مصر[(١)] .

ومما ورد في الآثار في حق جبل رضوى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه (رضوى رضي الله عنه وقدس قدسه الله ، وأحد جبل يحبنا ونحبه جاءنا سائرا متعبدا له تسبيح يزف زفا) [(٢)] .

ويروى عن أنس بن مالك[(*)] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لما تجلى الله عز وجل للجبل تشظى فطارت لطلعته سبحانه ثلاثة أجبل فوقعت بمكة ، وثلاثة أجبل وقعت بالمدينة ، فوقع بمكة حراء وثبير وثور ، ووقع بالمدينة أحد ، وورقان ، ورضوى) [(٣)] .

فرضوى جبل مبارك في أرض مباركة ، وممن وصف رضوى الحميري حيث وصفه بأنه جبل ضخم من جبال تهامة .

---

(١) ياقوت : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٥١ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٥٤-٥٥ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفاء ، ج ٤ ، ص ١٢١٩.

(*) أنس بن مالك : بن النضر الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد المكثرين من الرواية عنه ، كناه الرسول أباحمزة ، شهد بدرا مع النبي، ولم يذكروه في البدريين لأنه لم يكن في سن من يقاتل ، شهد الفتوح بعد النبي وقطن البصرة ومات بها ، ومناقبه أكثر من أن تحصى ، توفى بعد سنة ٩٠ من الهجرة على خلاف بين كتاب الطبقات .

انظر : ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، ص ٧١-٧٢.

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، ص ٢٨١ ، ولم أستدل على تخريج الحديث من كتب الصحاح.

وقال: " وهو على يوم من ينبع ، ويومين من المدينة ، وعلى تسع مراحل إلى اليمن من طريق المدينة ، وعلى ليلتين من البحر الأحمر"(١) ، وأضاف الحميري "أنه جبل منيف ذو شعاب ،وأودية ،ورأسه من ينابيع الماء كخضرة البقل(٢) " .

وذكر القزويني أن رضوى كثير المياه ، والأشجار ،وأنه يرى من بعيد أخضر(٣) .

وذكر البركاتي أن جبل جهينه يسمى رضوى ، ويزرع به النخل بكثرة وهواءه جيد ، وارتفاعه ١٤٠٠ مترا(٤).

وهذا يدل على خضرته حيث وفرة المياه ،وغزارته ، فقد كست أعلاه بالخضرة حتى يتراءى للناظر عن كثب ، وقد ذكر الشعراء جبل رضوى كثيرا، واتخذه العرب مثلا للعزة والشموخ .

قال حسان بن ثابت (*) :

لنا حاضر نعم وماضي كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما(٥)

---

(١) الروض المعطار ، ص ٢٦٩ ؛ البكري : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٥٥.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ،ص ٨٨.

(٤) البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٥١.

(٥) البكري : معجم ما استعجم ، ج ٢ ، ص ٦٥٥-٦٥٦.

(*) حسان بن ثابت الأنصاري : شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام ، وكان يفد على الغساسنة والمناذرة ، وله في مدح رسول الله قصائد رائعة ، وبعد أن شرح الله صدره للإسلام اصبح شاعر الرسول ووقف شعره على الدفاع عنه وعن الدين الجديد والرد على خصومه المعاندين وكان الرسول يقول له : اهجهم وروح القدس معك ، وقد عمر طويلا حتى توفى في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٤هـ. مقدمة حسان بن ثابت ، ص١-١٥ ، دار الفكر العلمية ، بيروت .

ومنه قول بشر :

لو يوزنون كيالا أو معايرة مالوا برضوى ولم يفضلهم أحد

القائمون اذا مالجهل قيم به والثاقبون إذا ما معشر خمدوا[١]

ومن جبل رضوى يؤخذ حجر المسن[*] وهو الحجر الذي يحمل إلى الدنيا كلها[٢] .

وبجانب رضوى جبل بواط . وبواط بضم الأول والطاء المهملة من جبال جهينة ،ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا هذا الجبل في ربيع الأول[**] من السنة الثانية للهجرة يريد قريشا ، ولكنه رجع ولم يلق كيدا[٣] .

وبواط واديان أحدهما يدفع في وادي إضم ، والثاني في ينبع يتقاسمان الماء من ريع بواط الذي يفصل بين سلسلتي الأشعر والأجرد[٤] .

---

(١) أحمد الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ص ٢٤ .

(*) هو حجر يقوم بسن السكاكين بدل الآلات الحديثة الآن وهو حجر مشهور في ينبع . انظر : البلادي ، معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٥٤–٥٥.

(٢) الحموي: معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٠٣ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ص ٢٥٦–٢٥٧.

(**) غزوة بواط : في ربيع الأول سنة٢ هـ الموافق سبتمبر ٦٢٣ م خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس مائتين من أصحابه ، لاعتراض عير لقريش يقودها أمية بن خلف من رعوس الشرك ومعه مائة رجل من قرش وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواطا من ناحية رضوى وهما جبلان من جبال جهينة مما يلي الشام وبينه وبين المدينة نحو أربعة برد . انظر: ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص١٩٠ ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص ١٩١ .

(٣) الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٠٣ ، البلادي: معجم معالم الحجاز ، ج ١ ، ص ٢٥٦–٢٥٧.

(٤) البلادي : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة.

وذكر البكري أن بواط ماهما إلا جبلان أصلهما واحد،ومتفرقا الرأس حيث قريبا من جبل الأشعر من جهة الشام ، ويوجد في جبلي بواط طريق سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة (*) من ينبع(١) .

ويؤكد البلادي الرأي الأول فيقول : " إنهما واديان أحدهما يصب في وادي إضم ، والثاني في ينبع ،ويمدان بالمياه من سلسلتي الأشعر والأجرد ، ويقع بواط غرب المدينة على بعد ٥٥ كيلو مترا ورأسهما ينحدران من ريع يسمى ريع بواط يأخذ طريقا بين المدينة ، وينبع مختصرا من طريق المدينة إلى ينبع مرورا بوادي الصفراء ،وهذا الطرق غير صالح لسر الثقال لذلك نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسلكه في غزوة ذي العشيرة لكنه سلك طريق وادي الصفراء(٢) .

(*) غزوة ذي العشيرة : في أواخر جمادى الأولى سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر سنة٦٢٣ م خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسين ومائة ويقال في مائتين ولم يكره أحدا من المسلمين على الخروج ، ويبدو أن معظم الجيش كان من المهاجرين وكان معهم ثلاثين بعيرا يتعاقبونها ، وكان هدفهم اعتراض عير لقريش ذاهبة إلى بلاد الشام ومعهم أموالا طائلة من أموال التجارة فبلغ رسول الله ذا العشيرة وهو موضع بينبع ، فوجد أن العير قد فاتته بأيام .. وهذه العير هي التي خرج المسلمون في طلبها في رحلة الرجوع من الشام وصارت سببا لغزوة بدر الكبرى .

- ابن هشام : السيرة ج ٣ ، ص١١ .
- المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص ١٩١.

(١)البكري : مصدر سابق ، ج١ ، ص ٥٠٣.

(٢) البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوة ، ص ٥٠.

ومن الجبال التي تقع شمال رضوى جبل سنان ، على مسافة عشرين كيلو مترا منه ، وهو عبارة عن سلسلة جبال متصلة برضوى ،وتسمى حرة بنـــي سنان شمال رأس ينبع ، ومن الجبال ،والأودية معا أيله(١) .

وذكر البلادي بأنه شعبه من رضوى(٢) ، وهناك العديد من الأودية منها وادي الفرعه ، وهو يصب في وادي ينبع ، وتكثر فيه المــزارع ، ولكــن الزراعــة قائمة فيه على الآبار ، ومن الأودية ضأس ، وهي فرع من رضوى ،وماؤهــا يجري في الفرعه ،وبالقرب منها يطل جبل بارز يشرف على الفرعه ، ويسمى الوعر ، ويقع في الشمال الشرقي من الفرعه ، وكذلك بالقرب منها جبل أسود يسمى أظلم ، وذلك لسواد صخوره وليس جبلا مرتفعا والعرب تسمى جبالـــها السوداء غرابيب أو أظالم ، وهي جزء من الحرة(٣) .

ومن الجبال أيضا جبل الفقاره ، وهو جبل ضخم يقع في الجنوب الغربــي من المدينة ، ويبعد عنها حوالي ثمانين كيلو مترا ،وفي قمته يزرع النخيل مما يدل على اتساع قمته وصلاحية تربته للزراعة ، ويسل ذاك الجبل فـــي وادي الصفراء جنوبا ، وشرق ملل ، وشمال إضم ، ولجبل الفقاره فروع من أشهرها فرع الردادة اصطلح عليه فيما بعد(٤) .

ومن الجبال أيضا ورقان وهو جبل أقرب إلى الحمرة يقع جنوب غـــرب

---

(١) البلاد : معجم معالم الحجاز ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢) البلادي : على طرق الهجرة ، ص ٢٠٠.

(٣) البلادي : نفس المرجع والصفحة .

(٤) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٧ ، ص ٥٥.

العرج ، والرويثه وهي قرى صغيرة مر بها الرسول صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى المدينة حيث تبعد عن المدينة سبعة عشر فرسخا ، وبينهما أودية وورقان يصب مياهه في عدد من الأودية منها الفريش ، والسدارة، والجي[١].

وهناك بعض الجبال الضيقة والصغيرة، والتي منها اغترار حيث يخترقها واد عميق ضيق كثير الشجر بدليل أن من أراد الدخول إليه لا يستطيع الخروج منه بسهولة[٢] .

وهناك بعض العيون ومنها البركة في وادي ينبع النخل وهي لقبيلة جهينة ، وتعتبر من عيون العشيرة البلدة التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم [٣] .

وهناك أجبل صغيرة أخرى متفرقة ، وقريبة من ينبع ، منها سلسلة جبال نصع وتقع بين ينبع والصفراء وقيل شمال غرب بدر بين وادي واسط وينبع[٤] .

---

(١) البلادي : معجم معالم الحجاز، ج ٩ ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٣) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢١٠ .

(٤) ياقوت : مصدر سابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٩ ، ص ٥٨.

ومن المعلوم أن ينبع قد اشتهرت بغزارة مياهها المتفجرة من عيونها ، وآبارها ، وما سميت ينبع بهذا الاسم إلا لكثرة ينابيعها التي وصلت إلى مائة وسبعين عينا كما ذكر السمهودي نقلا عن غيره ، وكما أكد ذلك عدد من الرحالة والجغرافيين العرب الذين زاروا المنطقة ، لعل من أبرزهم ناصر خسرو وغيره.

ومن هذه العيون :

- عين نيزر ، أو عين أبي نيزر وكانت من جملة صدقات علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – حيث كانت أمواله رضي الله عنه متفرقة في ينبع ، ومنها عين يقال لها : عين البحير ، وعين يقال لها : نولا ، وعمل علي رضي الله عنه – بئر بغيبغة – تصغير البغبغ – ، وهذه البئر قريبة من الرشاء ، وذكر السمهودي عن ابن شبه : (أن ينبع لما صارت لعلي – رضي الله عنه – كان أول شيء عمله فيها البغيبغة ، ثم قال : هي صدقة على المساكين ، وابن السبيل ، وذوي الحاجة [1] .

وقد واصل – رضي الله عنه – أعماله بنيبع ، ولم تكن عين بغيبغة واحدة بل كانت جمعا على البغيبغات وكان منها عين يقال لها : خيف الأراك ، وأخرى يقال لها : خيف ليلى .

وثالثة هي خيف بطاس ثم تصدق بكل أعماله ، وكانت معروفة أيام السمهودي بينبع ، وكانت تحت أقوام يدعون ملكيتها [2] .

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٤ ، ص ١١٥٠.

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١١٥١.

وإتماما للفائدة نذكر ما أفاد به السمهودي عن غيره بأن أبا نزير الذي تنسب العين إليه كان مولى لعلي – رضي الله عنه – وهو ابن النجاشي الذي كان إلى بلاده الهجرة الأولى للمسلمين ، ومكافأة لأبيه أعتقه علي – رضي الله عنه[١].

وحينما أرسل إليه من الحبشة ليجعلوه ملكا بدل أبيه ، قال ماكنت أطلب الملك بعد أن من الله علي بالإسلام ، ودخل أبونيزر الإسلام وهو صغير ، وأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار مع فاطمة وولدها .

ومن خلال أخباره يتضح إخلاصه إذ يقول أبونيزر :

جاءني علي – رضي الله عنه – وأنا أقوم على الضيعتين (عن أبي تيزر والبغيبغة) فقال : هل عندك من طعام [٢] ، وذكر قصة أكله وشربه .

وقال : " ثم أخذ المعول لضرب الأرض ، فأبطأ الماء فأخذ المعول مرة أخرى، وضربها بهمة ، فسالت كأنها عنق جذور ، فخرج مسرعا ، وقال : "أشهد الله أنها صدقة ، علي بداوة وصحيفة" ، فجئت بهما إليه – رضي الله عنه – فكتب ، وذكر الصدقة بالضيعتين البغيبغة وعين أبي نيزر على فقراء أهل المدينة وابن السبيل "لايباعان ،ولا يوهبان إلا أن يحتاج لهما الحسن ،أو الحسين ، فهما طلق لهما وليس ذلك لغيرهما" [٣] .

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٦٥٦.

(٢) محمد بن منصور : العيون في الحجاز ، ص ١٧٠.

(*) أخذ السمهودي كثيرا من الأخبار عن ابن زباله الذي دون تاريخ المدينة وعنه أخذ كثير من المؤرخين – ومن المعروف عن ابن زبالة انه لم يكن مدققا في الأخبار التي يرويها بل كان وضاعا لها أيضا ،ولعل منها هذه القصة .

(٣) السمهودي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٧١-١٢٧٢.

- محمد بن منصور : العيون في الحجاز ١٦٩-١٧١.

وباقي العيون معظمها من صدقات أبناء علي كرم الله وجهه وهي عين الأراك ، فقد أجراها عبدالله بن حسن ، والخليج أجراه الحسن بن زيد ، لكن كشسن ، وخيف ليلي والروضة ، فمن عمل علي رضي الله عنه وكذلك البغيبغات بمعلاة ينبع ، وهناك عين يقال لها : عين أبي مسلم ، وأخرى يقال لها : عين جبير ،والأخيرة عملها عبدالله بن حسن ، أما الحسين بن علي بن أبي طالب فكانت له عين تدعى :عين يحنس ، واستنبطها له غلام يقال له : يحنس ،وعين البثنة، وهي احدى عيون ينبع المشهورة [١] .

ونفيد في هذا الصدد بأن بعض عيون ينبع قد نالت شهرتها بسبب المنازعات ، أو الأحداث السياسة التي دارت حولها ، فعين سويقة تعرضت للخراب بسبب كثرة الفتن ، حيث أنها كانت من منازل الطالبيين الذين قاموا بثورات على الخلفاء العباسيين عبر سنوات طويلة فأبادهم العباسيون وخربوا ديارهم إضافة إلى استئصال القبائل التي كانت تضرب حولها من المؤيدين للعلويين . ومن أشهرها سويقه عين ينبع والتي كانت من منازل الحسنيين ، وسويقة الهاشميين بالقرب من المدينة[٢] .

ومن هذه العيون أيضا عين البركة ، عين البقاع ، وهي للثقفة من

---

(١) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج ٦ ، ص ٢٠٨ ؛ محمد بن منصور: المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ١٨٣ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفاء ، ج ٤ ، ص ١٢٣٩ ؛ حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٥.

جهينة ، وعين السكوبيه ، وهي للصيادلة ، ورفاعه[١] من جهينـــه ، عيـــن السويق (تصغيرسوق) وعين شعثاء لبعض من حرب ، وعين العلقميه وهـي في بلدة الشريف قتادة ، وبنوه الذين حكموا ينبع ومكة ، ومنهم مــــن حكـم الحجاز من أوائل القرن السابع الهجري ، وإلى ماينيف على سبعة قرون ،

عين حسين من أملاك الأشراف العيايشة .

عين عجلان ، عين علي وهي لجهينه .

وللأشراف العيايشه ، وهي شراكة بين القبيلتين .

وعين المبارك، وهي من أملاك الأشراف ذوي هجار من عقب قتادة بـن إدريس ،

وعين القرية وهي لذوي هجار ، وتعرف بقريـــة الأشـــراف ، وعينـــا المزرعة ، والبركة ،وهاتان من أملاك ذوي هجار[٢] .

---

(١) محمد بن منصور : المرجع السابق ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

المبحث الخامس

القبائل التي سكنت منطقة ينبع

لقد سكن ينبع والمناطق التابعة لها من القرى والأودية ، والشعاب قبائل متعددة ، أهمها ، وأكبرها قبيلة جهينة ،وهي كثيرة العدد شملت مضاربها أكبر رقعة في تلك المنطقة ، وكان يشاركها بنو ضمره .

وسكن ينبع أيضا الحسنيون أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١] وقد وصف البكري في مصنفه (معجم ما استعجم) سكان ينبع فقال : إنهم يتكونون من الأنصار[٢] ، وجهينة [٣] ، وليث [٤] ، واتفق المؤرخون أمثال ياقوت ، والفيروز ابادي على ذلك وأضاف الفيروز ابادي أنها اليوم لبني الحسن بن علي[٥] بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) الخطيب : تارخ ينبع ، ص ١٣٩.

(٢) الأنصار: هم الأوس ، والخزرج ، وسميا الأنصار لأنهم نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم عند قيام الدعوة ، وعقدوا معه بيعتي العقبة الصغرى والكبرى . وعندما نزل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة آووه ، ونصروه ،وقاتلوا في غزواته ، ودعا لهم بالرحمة . ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ٢ ، في مواضع متفرقة .

(٣) جهينه : حي عظيم من قضاعة وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سواد بن أسم بن الحافي بن قضاعة كانت منازلهم بين ينبع ، والمدينة إلى وادي الصفراء جنوبا، والعيص وديار يلي شمالا على الضفة الشرقية للبحر الأحمر،وانتشروا إلى الجبهة الغربية من البحر ، ووصلوا إلى صعيد مصر ، والحبشة . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦.

(٤) ليث : هم بطن من كنانة خزيمه وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانه كانوا بأسفل مر الظهرن ،وحول ودان ثم نزل حي منهم المدينة المنورة ومنهم من نزل صعيد مصر . انظر : البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص ٤٥٧.

(٥) معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٥٠ ، المغانم المطابة ، ص ٤٤٠.

كما أضاف البكري يأن من سكان ينبع نهد [*] وهـي تقطـن المنـاطق الجبلية العالية مع جهينه[١] لكن الحميري اختلف مع البكـري فـي أن قبيلـة جهينه العربية سكنت الحوراء ، وبلي – والحوراء مدينة على سـاحل وادي القرى بها ثمار ، ونخيل [٢] ، ورغم اختلاف البكري مع الحميري لكنهما فـي نفس الوقت يؤكدان بوجود تلك القبيلة وهي جهينه، وربما يكون منهما مـن سكن الجزء الجبلي ، ومنهم من سكن ساحل وادي القرى حيث تفرقـوا فـي المناطق، وأضاف البكري أن ينبع بها قبيلة بني ضمـره وهـم قـوم عـزة كثير[**][٣] .

(*) نهد هي بطن من قضاعه ،وهم بنو نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحـافي بن قضاعة كانت منازلهم باليمن ، ومنهم طائفة ببلاد الشام ، ومن نهد من انضـم إلى اخوته من جهينه حيث نجد لهم ذكرا في وادي الصفراء وماحوله .
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣١٧.

(١) معجم ماستعجم ، ج ٢ ، ص ٦٥٦.

(٢) الروض المعطار ، ص ٢٠٥.

(*) ضمره : هي بطن مشهورة من كنانة ، ومنازلهم بين بدر إلى الجار من السـاحل وقيل هم ضره بن بكر بن ليث بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بـن مدركـة بن الياس بن مضر . انظر البلادي : مجم قبائل الحجاز ، ص ٢٧٥.

(**) كثيرعزة : هو أبوصخر كثير بن عبدالرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عـامر بـن عويمر الخزاعي الشاعر المشهور وأحد عشاق العرب المعدودين هكـذا روى ابـن الكلبي في جمهرة أنساب العرب سلسلة نسبه وزاد عليها ابن مخلد ، يقال انه هوى امرأة عرف بها يقال لها عزة بنت جميل بن حفص من بني ضمرة من سكان ينبـع النخل ، وكان كثير من المتشيعين لعلي وآل بيته تشيعا قبيحا ، ثم ان عزة أجبرهـا أهلها أن تتزوج بغيره فبقيا على حبهما الأول لم يتغيرا وتوفى كثير سنة ١٠٥هـ.
محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ج٨ ، ص ٩٧/١٠١.

(٣) معجم ماستعجم ، ج ٤ ، ص ١٤٠٢.

وينبع عربية خالصة ، فليس فيها إلا القلة من غير العرب من الهنود الذين استقروا فيها ، وكانت فيها جالية من أهل مصر ، والشام أيضا ، ولهم حوانيت قليلة تعد على الأيدي ، ولعل تواجد هؤلاء الهنود نتيجة الهجرات ، القدوم بالبضائع الأمر الذي جعلهم يستقرون في ينبع لطلب الرزق .

وكذلك يوجد في ينبع فئة من الأتراك وبعضا من الهنود ، لكن الفرق بينهما أن إقامة الأتراك ليست دائمة ، لأنهم ليسوا هم أصحاب الحكم[١] .

هذا وفي القرن السادس الهجري كان سكان ينبع يتكونون من ثلاثة عناصر: حرب [*] ، وجهينه ،وبعض الأسر من الأشراف الحسنيين [٢] ، وقد استقرت جهينه في الشق الشمالي من ينبع ، وأما حرب فاستقرت في الشق الجنوبي[٣] .

ويضيف البكري أن قبيلة جهينه تلاحقت قبائلها ،وفصائلها فصارت نحو عشرين بطنا ، وتفرقت في الأودية ،والجبال ، والشعاب ،والعراض [٤] .

---

(١) بوكهارت : رحلات في شبه الجزيرةى ، ص ٣٨٤.

(*) حرب : قبيلة من العدنانية ، وهي غير منحدرة من سلالة واحدة بل هي مجموعة أحلاف ، وعناصر مختلفة النسب ، وتقع أماكنها في نجد ، والحجاز ، فتمتد من جنوبي ينبع إلى القنفذة على محاذاة الساحل وقريبة من المدينة إلى مكة .
انظر : كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ٢٥٩ . ويذكر : وحرب تقع شمال مكة حتى حدود ينبع البحر التابعة لقبيلة جهينه ، ودائرة قبيلتها غرب ينبع البحر إلى الرويس شمال جدة ، وقسم منها تمتد شرقا إلى المدينة المنورة .
انظر :البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١٣٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٣ .

(٣) البلادي : معجم الحجاز ، ج ١ ، ص ٣٦-٣٧.

(٤) معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٣٧.

وأضاف الجاسر في كتابه بلاد ينبع أن الكيسانيه وهي فرقة من فرق الشيعة تزعم أن محمد بن الحنفية غيب في مغارة في جبل رضوى ،وأنه حي يرزق ، وأضاف الجاسر أيضا أن تلك الأسطورة قد شاعت لدى بعض المؤرخين المعاصرين من الشيعة ،وقال ان بعض الشيعة يعيشون في ذلك الجبل وهم بدو متوحشون ، ولا يخالطون أهل المدن ، ويصل عددهم إلى حوالي عشرة آلاف نفس ،والبعض الآخر يقول خمسة وعشرين ألفا ، لكنه يذكر أن العدد الأول هو الأقرب إلى الصحة ، وأن هؤلاء الشيعة من حرب ، وجهينة ، وبعض الموالي الذين ينتظرون عودة محمد بن الحنفية من استتاره حتى يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما [١] .

ومما لاشك فيه أن تلك الأسطورة ماهي إلا خرافة وقد أخذ بها الكثير وصدقها حتى بعض المؤرخين المعاصرين ، حيث تأثروا بمن سبقهم من المؤرخين فهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة ،وخصوصا أن جبل رضوى جبل واضح في ينبع للعيان ، وحتى بعد مرور سنين طويلة من التاريخ وكون أن هناك أناس متوحشون يعيشون في كهوف أشبه بالحيوانات فهي أساطير ،وخرافات تناقلتها الألسن ، والقصص ، والحقيقة أنه لا يوجد في المنطقة أناس بهذا الوصف .

ولم تذكر المراجع الحديثة شيئا عن تلك الخرافة ولاسيما بعد تحول ينبع من قرية إلى مدينة سياحية ، فلم يعد هناك ذكر لهؤلاء المتوحشين ، أو تعليق على وجودهم .

---

(١) الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٧٨.

وأما القبائل والجماعات الأخرى التي سكنت ينبع النخل فهم الأشراف ، والعيايشة [*] ، وذوي هجار[**] .

والعيايشة يسكنون المدينة ، وخصوصا الحضر منهم ، لكن البدو يسكنون شمال ينبع في وادي حمض ، ويختلطون مع جهينة ، والعيايشة لقبهم هذا منذ القدم ، ونستدل على ذلك من ياقوت أنه أخذ رسم ينبع من أن بها مائة وسبعين عينا من الشريف ابن سلمه بن عياش الينبعي(١) .

هذا ويسكن بالقرب من جبل الأجرد بنو عروة من جهينة وتنقسم إلى قسمين كما يذكر البلادي لكل قسم بطون ، وأفخاذ كثرة ،ومنها اتجه إلى مصر ، وبلاد الشام(٢) .

(*) العيايشة : نسبة إلى عياشي : بطن من الأشراف ، يتبع رفاعة من مالك من جهينة ، ويقال لهم أشراف رفاعة .
انظر : البلادي: معجم قبائل ا لحجاز ، ص ٣٦٩ .

(**) ذي هجار : فرقة تعرف بذوي هجار من جهينة ، إحدى قبائل الحجاز.
انظر البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص ١١٢ ، مرآة الحرمين ، ج٢ ، ص ١٠٣ ، وذوي هجار بالتخفيف هم من أشراف ينبع وهم بنو هجار ابن دراج من سلالة الحسن بن قتادة وينقسمون إلى قسمين ذوي عبدالمعين ، وذوي هزاع .
انظر : البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص ٥٤١.

(١) معجم البدان ، ج ٥ ، ص٤٥٠ .

(٢) البلادي : المصدر السابق ، ص ٥١.

كما يوضح البلادي أن المحاميد (*) هي من القبائل التي كانت تقطن الصفراء بجوار ينبع النخل ، ومن فروعهم من يسكن الجنوب الشرقي من جدة (١).

(*) المحاميد : هي بطن من الأشراف ذكروا في بطون جهينة ، ومعروف أن كلمة الأشراف في الحجاز هي وقف على بني الحسن وبني الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهم فرع رئيسي من بني سالم من حرب .
انظر : البلادي : معجم قبائل الحجاز ص ٤٦٩ . وذكر أن المحاميد يقطنون ينبع النخل ، ولهم بها عين وقرية تعرف بعين سليمان وهم من عقب قتادة بن ادريس بن مطاعن الجد الجامع للأشراف الهجارية .

(١) البلادي : قلب الحجاز ، ص ٢٤ . [انظر الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبدالله سرور ، ص ٦٤] .

الفصل الثاني

النشاط السياسي في ينبع
منذ بداية عهد الأشراف
حتى نهاية العصر المملوكي

المبحث الأول

قيام حكومة الأشراف في الحجاز
ودور ينبع في قيامها

يقول حمد الجاسر في كتابه ينبع لمحات تاريخية وجغرافية "إن تـــاريخ ينبع هو تاريخ رجالها" ، وهذه المقولة تنطبق تماما على الدور التاريخي الـــذ قامت به ينبع في منطقة الحجاز . ذلك أن أول من أنشـــأ إمـــارة مســـتقلة[١] حسنية هو (جعفر بن محمد) أحد الأشراف الحسنيين ، وهو من رجال ينبـــع ، وكان أهل بيته يقيمون بها مع بني الحسن ، ولقد حظيـــت ينبـــع فـــي عهـــد الجعافرة باهتمام كبير لأنها مسقط رأس الأسرة التي حكمـــت مكـــة المكرمـــة وماحولها بداية من عام ٣٥٨هـــ ، ولاشك أن تغييرات سياسية هامة أعقبـــت سيطرة آل الحسن على مكة وماجاورها ، من ذلك الدعـــاء للفـــاطميين فـــي الموسم بداية من عام ٣٦٣هـــ ، ويقال إن المعز الفاطمي منح أشراف مكـــة ٤٠٠ ألف درهم[٢] وكميات كبيرة من الغلال .

وأصبحت ينبع في عهد الجعافرة تحظى بالرعاية والعناية فكانت تحصل على جزء ليس باليسير من هذه الأعطيات ، بالإضافة إلى أنها كانت تمثل خط الحماية الأساسي والملجأ الحصين لآل الحسن ، حيث يلجأون إليها في أوقات الفتن والأزمات للتحصن بها ، وطلبا للإمداد والعتاد .

ثم تولى حكم مكة المكرمة بنو عمومة الجعافرة الحسنيين وهم بنو أبي الطيب السليمانيين وهم أيضا من آل الحسن الذين يقمون بينبـــع ويتخذونهـــا مستقرا لأسرهم ، وأشهر من تولى مكة المكرمة منهم حمزة بن وهـــاس[٣] ، ولكن في منتصف القرن الخامس الهجري ، ظهر فرع آخر من البيت الحسني هم (الهواشم) نسبة إلى محمد بن جعفر بن أبي هاشم ، وكان يقيم أيضا بينبع

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٣٠ ، ابن عنبة : عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ص٢٣٢ ومابعدها .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص٤٦ .

(٣) ابن عنبة : مصدر سبق ذكره ، ص٢٢٤ .

مع أسرته . ودار القتال بين السليمانيين وبينهم سنة ٤٥٤هـ ، وهزم الهواشم أبناء عمومتهم السليمانيين وطردوهم إلى اليمن(*) ، ولكنهم عادوا من اليمن حوالي سنة ٤٥٦هـ مرة أخرى وحاربوا محمد بن جعفر الذي هزم في الجولة الأولى وسرعان مافر إلى ينبع الخط الثاني للدفاع والحصن والملاذ وموطن الرجال والعتاد للحسنيين ، ومالبثت ينبع أن أدت دورها في مساعدة زعيم الهواشم حتى استطاع الانتصار على أبناء عمومتهم السليمانيين .

وهكذا كانت ينبع محورا هاما في تاريخ الحجاز السياسي آنذاك فمن رجالها طبقات الحكام ، وهي قاعدة للاستعداد والإمداد في الأزمات ، وساعدها على ذلك موقعها الهام على البحر ، وقبائلها المخلصة لآل الحسن ، وقربها من المدينة ، ووجود الحسينيين بها وهم بني عمومتهم أيضا .

ثم قامت دولة الأشراف من بني قتادة سنة ٥٩٧هـ وهم أيضا من قرية العلقمية بينبع واستمروا يحكمون مكة وماجاورها لمدة سبعة قرون ونصف حتى أجلاهم عنها السعوديون عام ١٣٤٣هـ .

وستتضح تلك الأحداث في المبحث التالي .

(*) يبدو أن الصليحيين سمحوا للسليمانيين من آل الحسن بالإقامة في اليمن ، حتى يكونوا تحت أعينهم وسيطرتهم ، ويبدو أن ذلك كان بتعليمات من الفاطميين .

إقليم الحجاز من أهم أقاليم الجزيرة العربية ، لذا حظي باهتمام أمـــراء المسلمين وملوكهم وتنافسوا في فرض سلطاتهم عليه ، ولعل من أهم مايتمتع به الحجاز أنه مهبط الوحي ، وبه المدينتين المقدستين عند المســلمين مكــة المكرمة والمدينة المنورة .

وكانت ينبع إمارة تابعة لمكة المكرمة تارة والمدينة المنورة تارة أخرى أما أمراؤها خاصة وأمراء الحجاز عامة فجميعهم من الأشراف وهم طبقـــات متعددة .

ويشير الرشيدي إلى تبعية ينبع لمكة في قوله : "أمير ينبع يشرف على إدارة ينبع ، وهي ثغر يقع على البحر الأحمر في منتصف المسافة بيــن مكــة والقاهرة ، وهذا الحاكم ينتمي دائما إلى شريف مكة"(١) (*) .

ومن تتبعنا للمصادر التاريخية نستطيع أن نؤكد على أن الأشراف الذين سيطروا على مكة بداية من أواخر القرن الرابع الهجري ماهم إلا أشراف مــن

---

(١) الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، ص٢٤-١٢٨ .

(*) أفادت المصادر بأن سكان ينبع هم حكامها من الأشراف الحسنيين ، وأشهرهم قتادة بن إدريس المكنى بأبي عزيز الينبعي المكي ، حكم مكة وماحولها من ينبع إلى وادي الصفراء ، واستمر الملك لآل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان حوالي سبعة قرون ونصف القرن ، وذكرت المصادر بما يفيد أن قتادة تولى أمارة مكة بعد مكثر بن عيسى ، وامتدت ولايته إلى ينبع وحلي ، وكان يحارب صاحب المدينة ، ويغلب كل منهما الآخر حينا ، ودامت ولايته إلى أن قتله ابنه الحسن سنة ٦١٧هـ وقيل سنة ٦١٨هـ .

انظر : الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٢٥٤ ، ج٨ وفيها ترجمة ص٣٩-٦١ برقم ٢٣٣٤ ، الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٩ ، عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٥٥٠-٥٧٧ برقم ١٥٢ .

ينبع خرجوا إلى مكة وحكموها(*) حتى القرن العاشر ومجئ العثمانيين ، وأمراء ينبع بنو عمومتهم ومن تلك الطبقات طبقة الموسويين ، التي تولت إمارة مكة وتعرف ببني موسى(١) (**) نسبة إلى جدهم موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب(٢) كما أنهم عرفوا بالجعافرة نسبة إلى جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى ابن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويعتبر أول أمير تولى إمارة مكة منهم(٣) سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م ، وهي السنة التي توفي فيها كافور الاخشيدي(***) ، وقيام الدولة الفاطمية في مصر وأعلن جعفر بن محمد استقلاله بإمارة مكة المكرمة والدعاء للفاطميين ، وحذا

(*) وكان أشراف ينبع يحصلون في العصر المملوكي أحيانا على تفويض مستقل يباشرون الحكم في إقليم ينبع بعيدا عن سيطرة بني عمومتهم في مكة والمدينة لأهمية موقع المدينة الساحلي .

(١) ابن عنبة : عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ص٢٢٥ ، الدحلان : أمراء البلد الحرام ، ص٢٨ .

(**) لما كانت الفترة الزمنية لبحثنا فيما بين (٣٦٢-٩٢٣هـ) ، وابتداء حكم الأشراف الجعافرة بمكة المكرمة سنة ٣٥٨هـ وهم من بني الحسن وكان على رأسهم أبو جعفر محمد ثم طبقة الأشراف السليمانيين ثم الهواشم وأخيرا كانت أسرة قتادة بن ادريس بن مطاعن رأس أشراف ينبع ، وعاصر شريف منهم هو بركات بن محمد بن بركات (٩٢٣هـ/١٥١٧م) الفتح العثماني ودخل في طاعة السلطان سليم الأول ، لذا كان تاريخ الفترة الزمنية مناط البحث مرتبط بتاريخ أشراف مكة حيث كانت ينبع في أغلب هذه الفترة من توابعهم .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤٧ .

(٣) ابن عنبة : المصدر السابق ، ص٢٣٢ ، مورتيل : الأحوال السياسية بمكة ، ص١٦ .

(***) أسند الخليفة الراضي ولاية الحرمين سنة ٣٣٧هـ إلى محمد بن طغج الاخشيد حاكم مصر بعد أن ثبتت عدم قدرة العباسيين على حماية الحجاز خاصة بعد حادثة القرامطة المشهورة سنة ٣١٧هـ .

حذوه آل الحسين حيث قام طاهر(*) الحسيني (٣٦٠هـ/٩٧١م) باستقلاله بالمدينة والدعاء للفاطميين أيضا(١) .

وهكذا نرى أن السادة من آل البيت(**) الذين تولوا إمارة المدينتين المقدستين مكة والمدينة قد قامت الدولة الفاطمية بتقديم المساعدات لهما من أموال وخلع وشحنات حبوب إلى المدينتين المقدستين ، والمدن والقرى المجاورة لهما(٢) .

وبما أن ينبع تعتبر من المدن المجاورة للمدينة ، فلاشك أنه كان يخصها الكثير مما يجلب للمدينة من تلك الخيرات ، خاصة ,انها مهد الأشراف الحسنيين حكام مكة المكرمة .

أما رد الفعل فقد كان واضحا عند العباسيين حين قام ولاة مكة والمدينة في إعلان ولائهم للفاطميين .

(*) طاهر بن الحسين : هو طاهر بن يحيى بن مسلم بن عبد الله المحدث بن الحسن بن جعفر ويلقب عند الشيعة (حجة الله) . ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠٨-١٠٩ . تولى إمارة المدينة سنة ست وستين وثلاثمائة وأمير مكة كان عيسى بن جعفر محمد بن الحسن بن محمد الحسني المتوفي سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م . انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص٤٦٧ .

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٠ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٤٤ ، البرادعي : الدرة السنية ، ص١١٣ ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص٢٤ .

(**) آل البيت : هم العلويون آل الحسن وآل الحسين أولاد علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ ، واستقرت هاتان الأسرتان في مكة والمدينة واستطاعت الدولة الفاطمية مناصرتهما ، واستقلالهما بإمارة مكة والمدينة ، من هنا أطلق عليهم الأشراف لتشريفهم بإمارة مكة والمدينة ، وأما الأسر التي لم تتول منهم الحكم فأطلق عليهم السادة آل البيت . انظر البرادعي : الدرة السنية ، ص٤ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٤٥ ، البرادعي : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، سرور : مرجع سابق ، ص٢٤ .

وبالطبع فقد كان ذلك إيذانا ببدء الصراع والتنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية على السيادة والخطبة بمكة المكرمة[١] وذلك طوال عهد الأشراف الجعافرة ومن جاء بعدهم من الحكومات الأخرى[٢] كالسليمانيين[*] أبناء عمومة الأشراف السابقين .

ولقد تأزمت العلاقة بين الفاطميين والجعافرة في عهد أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م .

وكانت مدة ولايته على إمارة مكة ستة وأربعين سنة[٣] وكان مستمرا في ولائه للفاطميين[**] رغم ماقدم له من اغراءات من قبل الخلافة العباسية[٤] لكن الوزير أبا القاسم حسين بن علي المغربي استطاع أن يحول بينه وبين ولائه للفاطميين بما أطمعه في الرئاسة والخلافة أيضا وبأخذ مافي خزانة الكعبة من المال وماعليها من أطواق الذهب والفضة لأنه كان ناقما على الخليفة الفاطمي لقتله أباه وأخاه وعمه[٥] وجعله ينتحل لقب الخلافة حيث

---

(١) الزيلعي : مكة وعلاقتها الخارجية ، ص٤١ .

(٢) الهمداني : علاقة مكة المكرمة في عهد أسرة الهواشم ، رسالة ماجستير لم تنشر ، ص٣٨ .

(*) السليمانيون : نسبة إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٧٤ .

(٣) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص١٩٨ .

(**) الفاطميون : نسبة إلى فاطمة الزهراء ، وإن كان بعض المؤرخين يشككون في هذا الانتساب إلى آل البيت . ولقد نجحوا في إقامة دولة لهم في المغرب الإسلامي سنة ٢٩٨هـ ، وكانوا يعتقدون أحقيتهم في الخلافة عن بني العباس في بغداد ، وبني أمية في الأندلس وهم ينتسبون إلى الدعوة الاسماعيلية وهي من العقائد المتطرفة عند الشيعة ومن أشهر خلفائهم عبيد الله المهدي والمعز لدين الله الفاطمي ، ثم فتحوا مصر سنة ٣٥٨هـ ولعبوا دورا سياسيا في منطقة الشام وأرض الجزيرة حتى قضى عليهم الأيوبيون في عهد العاضد سنة ٥٥٦هـ .
انظر : أبو الفدا : المختصر من أخبار البشر ، ج٢ ، ص١٤٨ ، المقريزي : الخط ، ج١ ، ص٣٤٨

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٥٢ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤٢١ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠١-١٠٢ ، عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٤٨٤-٤٨٥ .

أخذت له البيعة من القبائل أمثال بني سليم(*) ، وبني هلال(**) ، وبني عوف وبني عامر(***)(١) سنة ٤٠١هـ/١٠١١م وخرج عن طاعة الحاكم بأمر الله الفاطمي(****) .

وهكذا أخذت لأبي الفتوح البيعة(*****) وأقيمت الخطبة له في فلسطين وفي كثير من مدن الشام(٢) الأمر الذي أغضب الخليفة الفاطمي وأمر بعزل أبي الفتوح وعين مكانه ابن عمه أبا الطيب(******) داود بدلا عنه وأغدق عليه الأموال ليوزعها على القبائل حتى يصرفهم عن طاعة أبي الفتوح ونجح أبو الطيب في تحقيق مطالب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حيث انصرفت القبائل عن أبي الفتوح مما أضعف من شأنه(٤) وتحقق للخليفة الفاطمي ماأراد

(*) بنو سليم احدى قبائل مضر ، لها عشائر متعددة وديارهم تمتد من مشارف تهامة إلى محلة الشامية وفي القرن الخامس الهجري هاجر كثير منهم إلى افريقية واستقروا هناك حول برقة .
البلادي : معجم قبائل الحجاز

(**) بنو هلال : بطن من الحوازم يسكنون وادي الصفراء .
البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ص٢٢٦،٢٢٧ .

(***) بنو عامر : لم نستطع الاستدلال عليهم لوجود أكثر من بني عامر في معجم البلادي ، ص٢٩٥ .

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٥٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ، ص١٠٨ ، دحلان : خلاصة الكلام ، ص٢٥ .

(*****) وتلقب بلقب الراشد بالله وبويع في فلسطين من قبل قبائل الجراح أعداء الفاطميين .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ، ص١١٣ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص٩٥ .

(٣) أبو الطيب : هو داود بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان ، وينتهي نسبه إلى الحسن المثنى الحسن السبط إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقد سبق التعريف عنه ولكل الأشراف .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج٧ ، ص١٥٧ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص١٣٨-١٣٩ ، الزيلعي : مكة وعلاقتها الخارجية ، ص٥٦ .

وأيقن أبو الفتوح خطورة الموقف كما أدرك أن تخلي تلك القبائل والمساندين له سيجعله في موقف حرج ، فذهب إلى الوزير وقال له (أنت أوقعتني وأخرجتني من بلدي وجعلتني في أيدي هؤلاء وأوقعت بيني وبين الخليفة الحاكم والواجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني) [١] لكن لم يجد أبو الفتوح أي مساعدة من قبل الوزير فلجأ إلى مفرج الطائي والد حسان رأس المتخلين عنه ليتوسط له عند الحاكم ويعيده إلى الأمارة ، فما كان من مفرج أن سوى الأمور بين الخليفة الفاطمي وأبي الفتوح وانتهى الأمر إلى تنازل أبي الفتوح عن دعوته وعزل أبي الطيب وعودته إلى أمارة مكة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ولم يفكر أبو الفتوح لحظة في الخروج عن الفاطميين[٢] طوال عهود خلفاء الحاكم كالظاهر[*] والمستنصر .

إلى أن توفي سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م وجاء بعده ابنه شكر[٣] الذي اتصف بالشجاعة والقوة حتى لقب بملك الحجاز ، وقام شكر بتأديب المتمردين من القبائل وتميز حكمه بالاستمرار في الولاء للفاطميين ومساعدتهم له بالمعونات المادية ومساندة شكر في الأزمات التي مر بها ومنها مع

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤٣٩-٤٤٠ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١١٥ ، سرور سياسة الفاطميين ، ص٢٧ ، السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص١٨٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٦٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٦ ، العوضي تجارة مصر في البحر الأحمر ، ص١١٢-١١٣ .

(*) الظاهر الفاطمي : ابن الحاكم بأمر الله ابن العزيز ابن المعز العبيدي ، خطب له على منابر مصر والشام وافريقية والحجاز ، وساعدته عمته ست الملك في بداية ولايته حتى سنة ٤١٥هـ وكان ملكا عادلا محبا للخير على عكس والده . توفي سنة ٤٢٧هـ . انظر المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص١٤٥ .

(٣) شكر : هو تاج المعالي محمد شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر . انظر ابن عنبه : عمدة الطالب ، ص٢٣٣ .

الحسينيين(*) حكام المدينة الأمر الذي أدى إلى انضمام مكة والمدينة تحت إمرة شكر(١) ، كما انضمت إليه بلاد ينبع وحرص على ذلك لأهميتها الجغرافية على البحر الأحمر ، وهذا دليل على قوة العلاقة بين أمير مكة والفاطميين كذلك موقف أهالي مكة الذين نظروا للخليفة الفاطمي نظرة تقدير واحترام وخصوصا بعدما وفر لهم جميع متطلباتهم(٢) واستمر الأمر إلى وفاة شكر سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م(٣) .

وبوفاته كانت نهاية إمرة الموسويين على مكة لأن شكر لم يكن له من الأبناء من يخلفه في إمارة مكة المكرمة(٤) مما أدى إلى اضطراب الأحوال في

(*) وفي المدينة تمدنا المصادر بأن آخر وال عباسي كان يحكم المدينة هو أبو عبد الله محمد حوالي سنة ٣٥٠هـ ، ويبدو أن استيلاء الأشراف الحسينيين على المدينة من العباسيين كان متزامنا مع قيام بني عمومتهم الأشراف الحسينيين بالاستيلاء على مكة من الاخشيديين أي حوالي سنة ٣٦٠هـ وشملت الفترة من ٣٥٩هـ إلى ٩٢٣هـ حكم الفاطميين والأيوبيين في مصر واليمن والمماليك البحرية والبرجية وظهر واضحا تدخلهم في الشئون السياسية والاقتصادية في الحجاز ، ولاتمدنا المصادر بمعلومات وافية عن الأمراء الحسينيين في المدينة على عكس ماتمدنا به المصادر التي أرخت لتاريخ مكة وأول شريف للمدينة أرخ له كان عز الدين أبو فليتة القاسم بن مهنا الذي حارب إلى جانب صلاح الدين في بيت المقدس ٥٨٣هـ ، وكان أولاد العم يكثرون من الخصومات والمنازعات الحربية فتارة ينتصر الحسينيين أو العكس فهي كما يقول قائلهم بعد إحدى المعارك "ياابن العم كسرة بكسرة والبادي أظلم" ، ومنهم سالم بن فليتة ٦٠٠هـ الذي تحارب مع قتادة شريف مكة ومن أواخر أشراف المدينة قسيطل بن زهير بن سليمان حكم حوالي سنة ٩٠١هـ ، وكانت ينبع تقع بين شقي الرحى بين البيتين الطالبيين .
انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، صفحات متفرقة ، أمراء المدينة من عهد الرسول حتى الوقت الحاضر وذكر أسماء بعض أمراء ينبع جمعها الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله ، مخطوط مصور ، مكتبة مكة المكرمة .

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠٢ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص٢٦٦-٢٦٧ .

(٢) خسروا : سفر نامه ، ص١٢٣ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج٢ ، ص١٨١ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص١٧١ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤٦٨ .

مكة وتشجيع الطامعين في الاستيلاء عليها حيث تمكن أحد عبيد شكر ويسمى (طراد بن أحمد) من التحكم في أمر مكة مستغلا الظروف المتدهورة والمتمثلة في انقسام الأشراف الأمر الذي أدى إلى تفرق كلمتهم[١] وبوجسود طراد زاد الأمر سوءا حيث الاضطرابات والمعارك والمنازعات بينه وبين بني أبي الطيب من الأشراف الذين رأوا في تلك الإمارة حقا مغتصبا وهم الأحق به ونجحوا في إقصاء طراد وإبعاده عن إمارة مكة وتغلبوا عليه[٢] .

وتولى الإمارة حمزة بن وهاس[*] ويلقب أبناؤه وأحفاده باسم بني الطيب نسبة إلى جدهم أبي الطيب داود الذي ولاه الخليفة الفاطمي إمرة مكة حين أخرج أبو الفتوح منها سنة ٤٠١هـ/١٠١١م ، وقد أطلق عليهم بعض المؤرخين اسم السليمانيين نسبة إلى داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[٤] لكن الأمور في مكة لم تنته عند هذا الحد إنما زادت سوءا نتيجة للسياسة التعسفية التي انتهجها حكام تلك الأسرة وتطلب الأمر تدخل الفاطميين لإصلاح الأمور في مكة فعهد الخليفة الفاطمي المستنصر إلى داعية الفاطميين في بلاد اليمن

---

(١) ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٤٩٧ ، مورنيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ، ص٢٣ .

(٢) السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص٢٠١ .

(٣) دحلان : خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام ، ص٣٠ .

(*) حمزة بن وهاس : هو أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . انظر ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٤٤ ، الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، ص١١٢ ، القلقشندي : نهاية الأرب ، ص١٣٨ .

لإصلاح الأمور هناك وهو الأمير علي بن محمد الصليحي[*] الـــذي اســتطاع إصلاح الوضع وإعادة الأمور إلى نصابها والدعاء للفاطميين علـــى منابرهــا وهكذا أصبحت مكة من جديد تحت النفوذ الفاطمي وبترحيب من أهالي مكة لما لاقوه من تعسف السليمانيين[١] وحين استقرت الأمور في مكـــة للصليحـــي ، وثبتت السيادة الفاطمية رأى أنه لابد من البحث عن حكومـــة شــرعية تديــن بالولاء للفاطميين وتوفر الأمن والاستقرار في البلاد[٢] فعين محمد بن جعفـــر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طـــالب أميرا على مكة المكرمة[٣] .

وبدأت طبقة أخرى من حكام مكة وهي طبقة الهواشـــم الذيــن كــانوا يسكنون منطقة ينبع ــ وتاريخ ينبع هو تاريخ رجالها ــ[٤] لكن بعض المصادر

(*) الصليحي : هو علي بن محمد وهو الملك الكامل أبو الحسن علي بن محمد بـن علي بـن يوسـف بـن عبد الجبار الصليحي وهـو مؤسـس الدولـة الصليحيـة في اليمـن ، كـان أبـوه قاضيـا علـى المذهـب الشافعي وله شهرة عظيمة ، تتلمذ على أحد الدعاة الفـاطميين يدعـى عـامر بـن عبـد الله الرواحـي فوجد في علي النباهة والذكاء والاعتماد عليه في نشر المذهب الشيعي وأطلعه على كتبها فعكـف على دراستها واستطاع أن يكون داع للفاطميين في اليمن والحجاز ، كما استطاع أن يوحد اليمـن وملكها وأصبحت صنعاء عاصمة لملكه سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م .

انظر : ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٢٤٦-٣٤٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ج١ ، ص٢٤٧ ، الزركلي : الأعلام ، ج٤ ، ص٣٢٨ .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص٩٦ ، ابن فهد : إتحاف الـورى ، ج٢ ، ص٤٦٨ ، ابـن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٣٦ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٧٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٤٤ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

(٤) ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٣٦ .

تشير إلى أنهم كانوا يسكنون ببطن مر[١] وهي إحدى المناطق التابعة لإمـــارة مكة ، وربما كانوا يسكنون ينبع فهي قريبة من المدينة وهم من سلالة علـــي ابن أبي طالب ولهم صلة قوية بينبع ابتداء من عهد الرسول ولهم بها الـــدور والضياع والآبار ، ومنهم من سكن المدينة وهم آل الحسين كما تســـتدل مـــن قول الرشيدي في كتابه حسن الصفا والابتهاج أن حاكم ينبع ينتمي إلى شريف مكة غالبا[٢] .

ويؤكد قولنا هذا ماذكره ابن فهد[٣] أن الأمير محمد بن جعفر غادر مكة واتجه إلى ينبع حتى يرتب إمرته ويستنهض عشيرته[*] ضد بني أبي الطيـــب الذين أخرجوا من مكة حين أجلاهم الصليحي[٤] والهواشم ينتسبون إلى أبـــي هاشم محمد بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب[**] . ولقد استطاع أبو هاشم محمد أن يســـتولى علـــى المدينة من أبناء عمومته بني الحسين كما سيطرت قواته على ينبـــع القريبـــة منها[٥] .

---

(١) البكري : معجم ماستعجم ، ج٢ ، ص١٤٠٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٥٠ .

(٢) الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، ص٢٤ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤٧٠ .

(*) حيث كانت تسكن تلك العشيرة قرية العليقمة وهي وادي ينبع إلى أن آلت لقتادة القادم ذكره . انظر الحسيني : العقود اللؤلؤية ، ص١١٨ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤٦٩ .

(٥) ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٣٢-٢٣٥ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

(**) وعن مؤسس طبقة الأشراف الأولى فهو جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم (غاية المرام ، ج١ ، ص٤٨٠) . =

وقد اختلفت سياسة الهواشم عن السليمانيين في ولائهم للفاطميين لأن المساعدات المقدمة من قبل الفاطميين قد لعبت دورها في خدمة تلك السياسة(*) فقد كان الهواشم يتقبلون المساعدات من العباسيين نتيجة ضعف الفاطميين اقتصاديا وسياسيا مما أدى إلى تأرجح وتذبذب العلاقة بين الخلافتين فكثرة الأعطيات من الخلافة العباسية مع عدم انقطاعها من الفاطميين أدى إلى الدعاء لهم مع استمرار الإضافة في الأذان بقولهم (حي على خير العمل) ، رغم طلب الخليفة العباسي حذف تلك العبارة ، وهذا دليل على محاولة استرضاء الخلافتين ، واستمر الشريف محمد بن جعفر في إمارته إلى وفاته سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، ثم تولى بعده ابنه قاسم بن محمد الذي تميز عهده بالولاء للعباسيين وبالمقابل استمرت الأعطيات منهم إلى أمراء مكة[1] لكن الوضع تغير حين أعلن ولاءه للفاطميين مرة أخرى مما يؤكد على تأرجح العلاقة بين الفاطميين والعباسيين ، فأثار بذلك عداوة العباسيين الذين أرسلوا إليه حملة استطاعت إجلاءه عن أمارة مكة وفر إلى ينبع .

ولكنه عاد إليها بعد فترة ، واستمر بالدعاء للفاطميين إلى وفاته سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م .

= وعن مؤسس طبقة الأشراف الثالثة يقول الفاسي في عقده الثمين ، ج١ ، ص٤٣٩-٤٤٤ برقم ١٢٨ هو : محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني المكي ، وهو المكنى بأبي هاشم ، وهو أمير مكة ، وبعد أن زحف بجيشه على المدينة وأخرج منها بني حسين ملكها وجمع بين المدينتين إلى وفاته سنة ٤٨٧هـ ، انظر أيضا ترجمته في غاية المرام ، ج١ ، ص٥٠٩-٥١٦ برقم ١٤٠ ، ترجمة ابنه قاسم في الكامل لابن الأثير ، ج٨ ، ص١٧٣،٣٠٥،٣١٤ ، العقد الثمين ، ج٧ ، ص٢٨-٣١ برقم ٢٣٢٤ ، غاية المرام ، ج١ ، ص٥١٦ برقم ١٤١ .

(*) مالكي : بلاد الحجاز ، ص٣٦ .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص٢٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص١٤٢ .

وتولى ابنه بعده الأمير فليتة بن قاسم(*) وقد تميز عهده بأن كسب ود الخلافتين الفاطمية ، والعباسية(١) ، وتوفي فليتة سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢-١١٣٣م ، وجاء بعده ابنه هاشم (ت٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وقيل ٥٥١هـ) ، وتميز عهده أيضا بالتأرجح بين الخلافتين حسب الأعطيات قلتها وكثرتها(٢) لكن العلاقة مع الفاطميين لم تنقطع بدليل تلك السفارات القائمة بين أمير مكة والخليفة الفاطمي والتي قام بها الشاعر عمارة اليمني(٣) وهذا دليل يوضح لنا مدى اهتمام أمراء مكة في تقربهم للفاطميين وكسب رضاهم على الرغم مما قامت به الدولة العباسية من البذل والعطاء لاستمالة هؤلاء الأمراء وصرفهم عن الخلافة الفاطمية(٤) ، واستمر الوضع إلى أن بدأ نفوذ الفاطميين في الضعف ومجئ صلاح الدين وإزالتهم نهائيا وإنهاء ذلك التنافس(٥) .

وأما بالنسبة لأمير مكة فحين قتل قاسم في سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م وقيل في سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م تولى إمرة مكة بعده عمه عيسى وهو الذي تزامن عهده مع مجئ الأيوبيين ٥٦٧هـ/١١٧١م ودامت ولاية عيسى بن فليتة على مكة إلى وفاته سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م فولي مكة بعد عيسى داود

(*) فليتة بن قاسم بن محمد بن أبي الفضل جعفر حكم مكة من أولاده وأحفاده ستة من الأشراف ويعرفون ببني فليتة . ريتشارد مورتيل ، ص٢٤٠ .

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص٢٥١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٤٠ ، الفاسي شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٨ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٥ ، الغساني : العسجد المسبوك ، ص٢١٤ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٧ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٩ ، السباعي : تاريخ مكة ، ص١٨٨ .

(٥) ابن فهد : مصدر سابق ، ص٢٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ، ج١١ ، ص٢٧٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٧٦ .

ابن عيسى ودامت ولايته إلى منتصف رجب سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م[١] ولكن الأخير لم يستمر حيث قام الخليفة العباسي بعزله وتعيين مكثر بن عيسى الذي حدثت في عهده مناوشات مع الحاج العراقي وانتهت بخروج مكثر من مكة ، وتسلم القاسم بن مهنا أمير المدينة حكم المدينتين المقدستين ، لكن القاسم وضح عجزه عن إمرة المدينتين مما أدى إلى رجوع داود أخو مكثر إلى إمرة مكة وحده لمدة عشر سنوات وكان آخرها سنة ٥٩٧هـ ، وهي السنة التي جاء فيها أبو عزيز قتادة الينبعي وطردهم بالسيف وملك مكة[٢] .

وابتدأت صفحة جديدة في تاريخ الحجاز قامت بها أسرة قتادة والتي حكمت فترة طويلة بلغت أكثر من سبعة قرون ونصف ، وبذلك أسهمت ينبع في قيام حكومات الأشراف بالحجاز حيث خرج منها كل حكام مكة وماجاورها ابتداء من سنة ٣٥٨هـ وحتى سنة ١٣٤٣هـ وارتبط تاريخ الأشراف بينبع حيث كانت الأصل المنشأ والمدرسة التي تعلموا فيها كيف يصبرون على استلاب الحكم منهم في عهد الأمويين والعباسيين حتى خرجوا منها يعلنون سيطرتهم على مكة وتتقرب إليهم القوى السياسية الكبرى في المنطقة .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٨ .

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٠٤-٢٠٦ .

المبحث الثاني

أمراء ينبع
وأبرز أحداث عصرهم

كنا نود أن نكتب مبحثا مطولا مؤيدا بالأدلة التاريخية والترجمات الوافية عن ولاة ينبع وأمرائها خلال فترة البحث ، ولكن للأسف لاتسعفنا المصادر المعاصرة للأحداث بمعلومات تشفي غلتنا ، فلاتوجد أي معلومات أو أحداث في أغلب الفترات وإذا وجدت في بعضها فهي شحيحة متناثرة في بطون الكتب التي بين أيدينا ـ خاصة عن أمراء ينبع في بدايات حكم الأشراف حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، وعلى الرغم من أن أمراء مكة كانوا كلهم ينبعيين إلا أن المصادر ترجمت لهم كحكام لمكة ، ولم يرد اسم ينبع إلا في حواشي المعلومات ويبدو أن ذلك يعود إلى عدة أسباب لعل من أبرزها أن المؤرخين قد ركزوا على حكام مكة والمدينة لما للمدينتين من ثقل في العالم الإسلامي فهما في بؤرة الضوء إن صح التعبير .

أما ينبع ـ وغيرها ويندرج ذلك على باقي المدن الصغيرة ـ فعلى الرغم من أنها مسقط رأس الجعافرة ، والهواشم ، وآل قتادة إلا أنها صارت في دائرة الظل مثلها مثل غيرها من المدن والقرى .

كما أن ينبع كانت تتبع أمير المدينة أو أمير مكة سياسيا فتوارت أحداثها نوعا ما بحكم هذه التبعية ، اللهم إلا في بعض فترات العهد المملوكي الجركسي حيث منحت استقلالا ذاتيا نظرا لأهمية الميناء وحيوية الموقع ، فتعيين أمير قوي من قبل المماليك يضمن للسلطة المركزية في مصر تأمين ركب الحجيج في الموسم ، ووصول شحنات الغلال والغذاء والأموال بسلامة إلى ذويها ومستحقيها في المدينة المنورة أو مكة المكرمة في حالة حدوث أي شئ في ميناء جدة .

كما يبدو أن كثرة عهود الفتن والاضطراب التي سادت المنطقة في عهد الأشراف كانت سببا في كثرة التولية والعزل ، حتى أن بعضهم تولى حكم المدينة لعدة أيام أو شهور أو سنة على الأكثر ، بالإضافة إلى سوء الأخلاق السياسية بين بعض زعماء الأشراف وماقاموا به من التصفيات السياسية

والجرائم الأخلاقية من قتل لأقرب الناس إليهم ، فضاعت الأسماء وتداخلت الفترات واختفت المعلومات والأحداث بل أخفيت وضاعت عمدا ، وتوارت المعلومات الصحيحة الدقيقة خاصة في عصور الفتن والثورات ، وغاية ماحصلنا عليه : هذه المعلومات التي دوناها عن أشهر الولاة كما سيأتي ذكر لبعضهم في مباحث العلاقات مع مكة والمدينة ومصر على اعتبار أن التبعية السياسية للحجاز في أغلب الأحوال كانت معها .

ولقد حاولت الباحثة في هذا المجال وسافرت إلى ينبع للاتصال ببعض أشراف ينبع لتحصل على أي معلومات عن أشهر الولاة والأمراء على ينبع ، ولكن للأسف لم تستدل على معلومات أو إرشادات في هذا المجال وغاية ماحصلت عليه صورة ضوئية لمخطوطة شحيحة بالمعلومات هي مجرد سلاسل للأنساب وليس بها أي معلومات تاريخية وكل مافيها عن ينبع هو ذكر لأسماء أمراء ينبع من أسرة ذوي هجار الأشراف وهم فرع من بني قتادة بن إدريس وهي من جمع الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله بن سرور وهي شبيهة بشجر الأنساب أكثر منها معلومات تاريخية .

وقد أعطى الشريف مساعد صورة منها إلى الباحثة(*) .

وإذا كانت ينبع في أغلب فتراتها التاريخية كانت تتبع مكة ، اللهم إلا بعض الفترات البسيطة التي كانت ينبع فيها تتبع أشراف المدينة الحسينيين أو تحظى باستقلال إداري وسياسي في العصر المملوكي .

(*) قامت الباحثة بالسفر إلى ينبع وبحثت عن أي معلومات تفيد بحثها وخاصة مايتلعق بأمراء ينبع وكانت تعتقد أنها ستجد بغيتها عند بعض أشراف ينبع ـ ولكن ماكل مايتمنى المرء يدركه ـ ولقد قامت الباحثة بالبحث عن أي مخطوطات تفيدها في هذا المجال ولكنها لم تجد أيضا ، ولقد قامت بتسجيل زيارتها بالتقاط بعض الصور الضوئية والتي يوجد بعضا منها في ملاحق البحث.

فيبدو لنا أن أغلب أمرائها هم فعلا حكام مكة من آل الحسن والدليل على ذلك ارتباطهم العضوي بينبع حيث يلجأون إليها عندما يهزمون أو يحسون بالأخطار أو طلبا للحماية والمدد من عشائرهم ، بل إن آل الحسن كانوا يملكون أرض المنطقة ويسيطرون عليها ، سيطرة القبائل على أراضيها وكانت القوى السياسية في العالم الإسلامي والمتطلعة إلى حكم الحجاز تعرف ذلك ، ودليلنا في هذا أن الأيوبيين في سنة ٦٢١هـ أرادوا أن يجعلوا من ينبع الميناء الرئيسي للمدينة المنورة ، فاشتروه من الأشراف الحسنيين أهل ينبع النخل بأربعة آلاف مثقال(١) وأقاموا فيه بعض المنشآت .

كما أن الرسوليين في أثناء صراعهم مع الأيوبيين اشترى سلطان اليمن نور الدين علي بن رسول من الحسن بن علي بن قتادة قلعة ينبع وقاموا بتخريبها حتى لايلجأ إليها الأيوبيون .

ونستدل من هذه الحادثة الأخيرة أن شريف مكة الحسن بن علي بن قتادة كان هو المتحكم والمسيطر على ينبع بدليل أنه هو الذي أتم عملية البيع ولم يعترض عليه أي معترض من أهل ينبع وهم آله وأقربائه .

وفي هذا المبحث نستعرض أبرز أمراء ينبع الذين وردت أسماؤهم في ثنايا الأحداث الخاصة بينبع وعلاقتهم بغيرهم .

استمر الأشراف (الجعافرة) على إمرة مكة خمسة وتسعين سنة من سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م إلى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م وتأرجح ولاؤهم بين الفاطميين والعباسيين ، ولكن ولاءهم للفاطميين كان أطول زمنا وأقوى اتجاها بدليل أن آخر خطبة دعي فيها للخليفة العباسي الطائع لله ومعه عضد الدولة بن بويه كانت سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م(٢) ، ويبدو أن استمرار العلاقات

---

(١) السلوك ، ج١ ، ص٢١٥ .

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص١٥٠ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٤١٦ .

الودية بين الفاطميين والجعافرة كان بسبب المنح والعطايا حتى يروى أن المنحة السنوية سنة ٣٨٢هـ وصلت إلى (٣٠٠) ألف دينار[١] .

وتدل أحداث سنة ٣٨٤هـ على أن أبا الفتوح عيسى بن جعفر ، تلقى مساعدات عسكرية واقتصادية من الحاكم بأمر الله الفاطمي ـ بعد زوال جفوة طارئة بينهما ـ ساعدته على السيطرة على الحجاز كله من المدينة المنورة شمالا ، حتى حدود اليمن جنوبا[٢] .

ونستنتج من هذا أن ينبع كانت تابعة لمكة المكرمة وإن كانت النصوص التي بين أيدينا لاتسعفنا بأي إشارة على اسم الأمير الذي عين واليا على ينبع من قبل أبي الفتوح ، ومن الممكن أن تكون تحت إمرة حاكم مكة مباشرة لأهمية الموقع وقربها من المدينة حيث خضعت لأميرها .

كما تشير أحداث سنة ٤٤٣هـ على أن تاج المعالي محمد شكر بن أبي الفتوح بن الحسن بن جعفر ، كان مخلصا للفاطميين كأبيه ، وكان يلوم بني الحسن ـ بني عمومته ـ في المدينة على تبعيتهم للعباسيين ، وإقامة الخطبة باسم الخليفة القائم العباسي وأرسل إليهم عدة رسائل يذكرهم بوقائع العباسيين مع الطالبيين ، ولما يئس الشريف محمد شكر منهم عاونه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله[*] بالأموال والقوات اللازمة حتى انتصر على المدينة والحجاز كله[٣] .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٤٦ .

(٢) البكري : المسالك والممالك : جزيرة العرب ، تحقيق الغنيم ، ص٤٩ .

(*) المستنصر بالله الفاطمي : هو معد المستنصر بالله بن علي الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله أبو تميم من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، ولد وتوفي فيها ، تولى بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٧هـ وهو طفل في سن السابعة ، قام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ثم تغلبت أمه على الدولة فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم .
انظر : الزركلي : الأعلام ، ج٧ ، ص٢٦٦ .

(٣) ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٣٣ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص٢٦٦ .

ونستنتج من ذلك أن ينبع كانت تحت إمرة أمير مكة في تلك الآونة وحتى سنة ٤٥٣هـ وعلى الرغم من أن المصادر تلتزم الصمت عن الوضع السياسي لينبع في أغلب فترات عصر الجعافرة إلا أنني أميل إلى أنها كانت تحت حكمهم ، فهي بلدهم وبها عصبيتهم ، فكان من الأمور البديهية أن تبقى معهم وتحت سيطرتهم ، كما أن أهلها من جهينة وليث وبطن من حرب وبني ضمرة وبنو إبراهيم هم عصبتهم وعماد دولتهم .

واستمرت تلك التبعية السياسية طوال عهود جعفر بن محمد وابنه عيسى ٣٦٥هـ .

وفي عهد الهواشم(*) (٤٥٦-٥٩٧هـ) برز على الساحة السياسية أول أمير لهم وهو : محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم وينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٤٥٦هـ ، وفي فاتحة عهده اصطدم بفرع من بني عمومته من بني أبي الطيب سليمان ، وكانوا يطمعون في إمرة مكة بدلا منه ، وسرعان ماهزم محمد بن جعفر عميد الهواشم في الجولة الأولى فيتجه إلى ينبع ، وفي ذلك أبلغ إشارة على أهمية ينبع للهواشم كما كانت من قبل على نفس الدرجة من المكانة عند الجعافرة ، وبعد استعادة قوته القتالية وبمعاونة من الصليحيين من اليمن استطاع الانتصار على حمزة بن وهاس السليماني وانفرد بحكم مكة ، وكان محمد بن جعفر ذا طموح سياسي فأعاد إلى الأذهان مافعله أبو الفتوح وابنه شكر إذ سرعان ماستولى على اقليم الحجاز كله وخضعت له ينبع والمدينة كما خضع له غيرهما من المدن(١) .

(*) يطلق بعض المؤرخين على الهواشم "بنو فليتة" نسبة إلى الأمير فليتة بن القاسم الذي تميز عهده بالنجاح في السياسة الداخلية والخارجية .
انظر العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٠٤ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠٤ .

(١) الهمذاني : علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، صفحات متفرقة .

وفي هذا إشارة على خضوع ينبع للشريف محمد بن جعفر الهاشمي ويبدو أنها كانت تتبع أمير مكة لما لها من مكانة وأهمية[١] .

واستمر الهواشم يحكمون مكة قرابة قرن ونصف من سنة (٤٥٦-٥٩٧هـ) ومن الأحداث الهامة التي وقعت خلال عهدهم ، زوال النفوذ الفاطمي ٥٦٧هـ ، وظهور الأيوبيين الذين دخلوا حلبة الصراع على المكانة والزعامة الدينية في منطقة الحجاز ، وحماية الحرمين الشريفين ، وقد كانوا فعلا يستحقون هذه المكانة والمنزلة للدور التاريخي الذي قاموا به في الحجاز خاصة ، والبحر الأحمر عامة ومنذ سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أخذ يخطب لهم على منابر مكة والمدينة[٢] ، كما ضربت الدراهم والدنانير باسم صلاح الدين الأيوبي[٣] .

وثمة حادثة أخرى وقعت سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م ــ قبل أن يخطب للأيوبيين على منابر مكة والمدينة ــ عندما قام العباسيون بعزل الشريف مكثر بن عيسى وتم تعيين الأمير قاسم بن مهنى الحسيني أمير المدينة المنورة على مكة ، وبالتالي أصبح الحجاز كله بما فيه ينبع يتبع الفرع الثاني وهم آل الحسين[٤] .

ولكن الأثر لم يدم إلا أياما ، حيث طلب الشريف قاسم من طاشتكين القائد العباسي اعفاءه من منصبه واضطرت الخلافة العباسية إلى الإتيان بداود بن عيسى أخو مكثر رغم كراهيتهم له لظلمه واضطراب الحجاز في عهده[٥]

---

(١) ابن عنبة : مصدر سبق ذكره ، ص٢٢٤،٢٣٦ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص٢٣٩ ، شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٣١١ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٣ .

(٢) عائشة باقاسي : بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، ص٤٥ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص١١٠-١١١ .

(٤) شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٣٢ ، الدحلان : خلاصة الكلام ، ص٢١ ، إبراهيم باشا : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص٣٦١ .

(٥) السنجاري : منائح الكرم ، ج١ ، ص٢٧٨ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٤ ، دحلان : خلاصة الكلام ، ص٢٠-٢١ .

ويبدو أن ينبع كانت خاضعة للهواشم طوال عهدهم وإن كانت المصادر لم تشر إلا إلى استيلاء محمد بن جعفر رأس الهواشم على الحجاز كله ، ويؤيد ذلك إلى قوتهم وتمام سيطرتهم على مكة وأحوازها ، اللهم إلا في فترات بسيطة .

وكان عهدهم في أغلبه يتميز بالأمن والاطمئنان على الطرق الداخلية إلى مكة والمدينة ، والازدهار التجاري ، وإسقاط المكوس والعدالة ، والنجاح في السياسة الخارجية .

وكانت ينبع تتأثر بالحالة الداخلية كبوابة للمدينة ، فهي المحطة الأولى على الطريق وإليها تصل الميرة والأمداد والقوافل البرية .

ومن أبرز أمراء مكة وينبع بل الحجاز كله قتادة بن إدريس الينبعي .

ويعتبر الشريف قتادة(*) بن إدريس بن مطاعن السبط العاشر من أولاد موسى الحسني الهاشمي الذين كانوا يحكمون مكة المكرمة في القرن الرابع الهجري .

وقد تمكن قتادة في بداية القرن السادس الهجري أن يقيم إمارة حسنية بمكة استمرارا لتلك الأسرة في سلالته واستمرت حتى سقوط حكومة الأشراف ١٣٤٣هـ[1] .

(*) قتادة : ابن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله ابن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٣٩ .

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١٦٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ص٣٥٤ ، القلقشندي : ج٤ ، ص٢٧٧ .

ولد قتادة في العلقمية(*) عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م من قرى ينبع وبها نشأ حيث يوجد أبوه وجده فيها هناك[١] وكانت أمه من الأشراف الهواشم (الطبقة الثالثة) [٢] .

وتاريخ قتادة جزء هام من تاريخ ينبع وماتاريخها إلا تواريخ رجالها الذين حرصوا دائما وهم في مكة على أن تكون ينبع تحت مسئوليتهم ، ولذا وقعت حروب ومشاحنات بينهم وبين بني عمومتهم الحسينيين في المدينة من جراء ذلك .

وقتل قتادة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بمكة وهو في سن التسعين[٣] وهناك اختلاف في زمن مقتله حيث ذكر المنذري بأنه توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[٤] ، وقيل سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م .

وذكر ابن الأثير أن وفاته في جمادى الآخرة في الثامن عشر من ذلك الشهر ويوافقه صاحب العقود اللؤلؤية[٥] .

ويختلف كل من أبي شامة[٦] والذهبي[٧] وابن كثير[٨] في أن وفاته في جمادى الأولى ، وعلى ذلك تكون مدة ولاية قتادة بن إدريس عشرين سنة أو

(*) العلقمية : نسبة إلى علقمة بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن أبي طالب .
انظر الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١١٦ .
والعلقمية هي قرية بوادي ينبع لها عين جارية وفيها حوانيت ونزل .
انظر : البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص١٥٩ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٥٣ .

(١) الحسني : العقود اللؤلؤية ، ص١١٤،١١٧،١١٨ .

(٢) مرجع سابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢١ ، الشريف الحسني : العقود اللؤلؤية ، ص١٢٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٥٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص٣٤٥ ، العقود اللؤلؤية ، ص١٢٣ .

(٦) ذيل الروضتين ، ص١٢٣ .

(٧) تاريخ الإسلام ، ج٢٩ ، ص٢٣٨ ، ج٢٩ .

(٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٢ .

نحوها للاختلاف في منتهاها كما رأينا ، وأيضا في بداية ولايته اختلاف مابين السنوات ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ، ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، ٥٩٩هـ/١٢٠٢م[(١)] .

وكان سبب وفاته أن عدا عليه ابنه الحسن بالاتفاق مع جارية وغلام كانا يخدمان أباه حيث قاما بخنقه ، وأراد حسن إخفاء عمله فقتل كلا من الجارية والغلام وقيل أن ابنه حسن قتله بالسم[(٢)] [(*)] .

وذكر ابن واصل أن الحسن وثب على أبيه وخنقه خلافا للعصامي أنه قتل أباه بمساعدة جارية[(٣)] وقد سار صاحب اليمن الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب إلى مكة وقت تولي حسن بن قتادة الإمرة في مكة .

ويذكر العصامي أن لقتادة من الأبناء على الأكبر وشقيقه حسن[(٤)] وهو جد الأشراف ذوي هجار حكام ينبع بداية من ٦٦٥هـ إلى حوال ١٣٤٣هـ ، ثم راجح أمير السرين ، وعلى الأصغر ، وإدريس[(٥)] ولقد حارب قتادة بني حراب بني عيسى وأخرجهم من ينبع وملك الصفراء[(٦)] ووادي ينبع من بني

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٨-١٩٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(*) فتح الحسن بن قتادة بابا من الشر في بداية حكم دولة أبيه ، وصار الاغتيال السياسي لعنة تصيب آل قتادة طوال سبعة قرون ونصف ، فالابن يغتال أبيه ، والأخ يتآمر ضد أخيه أو عمه ، حتى صار بأسهم بينهم شديدا ، وداهمتهم الخطوب وصاروا ألعوبة في يد الأيوبيين ثم المماليك فالعثمانيين حتى زالت دولتهم ، أما الزبد فيذهب جفاء ، ويظل الخير والعدل هو الأساس سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

قال تعالى : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ .

(٣) ابن واصل : نفس المصدر والجزء ، ص١٢٣ .

(٤) العصامي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص٢٠٧ .

(٥) الشريف الحسني : مرجع سابق ، ص١٢٢ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٤٠ ، القلقشندي : مرجع سابق ، ج٤ ، ص٢٧٧ ، العصامي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص٢٠٧ .

عمومته ثم تطلع إلى إمارة مكة حيث انتزعها من بني عمومته الهواشم مكثر وأبنائه وانقضت دولة الهواشم[١] واتسع ملك قتادة حتى أصبح يمتد من بلاد اليمن إلى المدينة المنورة[٢] وذكر التيجي عن قتادة إنه ملك مكة وجميع جهاتها حيث دخلت بلاد الحجاز في طاعته ولم يدخلها أحد من بني الحسن من قبل[٣] . وأضاف الفاسي أن ملكه امتد إلى ينبع شمالا وحلى[*] جنوبا[٤] ويذكر الموسوي أن الخليفة العباسي اقتطعه قرى متعددة وأكرمه بصلات متجددة[٥] .

وأضاف الفاسي ، وابن واصل ، والدحلان أن قتادة عظم شأنه وأصبح له مكانه بين العرب لم تكن لغيره من قبل إضافة إلى كثير من الصفات التي اتصف بها في بلوغه البراعة في الأدب والشعر حيث يشهد له بنبله وعلو همته[٦] .

وأضاف العصامي إنه كان قوي النفس شجاعا مقداما مهيبا وقورا حيث كان الجميع يهابه ويطيعه[٧] . وهذه الصفات كانت المؤهلات الأولى لبناة الدول والدويلات في العصور المختلفة .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص١٢١ ، الدحلان : خلاصة الكلام ، ص٢٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢١ .

(٣) التجيبي : مستعاد الرحلة ، ص٣٠٥ .

(*) حلى : بلد حجازي على ساحل البحر الأحمر جنوب غرب مكة وتبعد عن القنفذة التابعة لإمارة مكة (٦٠) كيلو متر سميت بذلك الاسم نسبة إلى ابن يعقوب مؤسس الأسرة الحاكمة بتلك المدينة وتعرف اليوم باسم حلى قديم وقد هاجر أكثر سكانها إلى القنفذة .
انظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٢٠ ، البلادي : بين مكة واليمن ، ص١٧٦ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٣١٥ .

(٥) الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص١٢٧ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢١ ، الدحلان خلاصة الكلام ، ص٢٣ .

(٧) العصامي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص٢٠٧ .

كما يضيف أبو شامة في وصف قتادة إنه كان عادلا منصفا شديدا على المفسدين حيث أصبح الحجاج في عهده مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وكان عفيف النفس لم يطأ بساطا لخليفة ولالغيره وقد كانت تحمل إليه الخلع والذهب وهو في داره[١] .

وكان لقتادة من الأعمال البارزة إنه حرص على أن تكون ينبع دائما من ممتلكاته ويتخذها مقرا للهجوم على بني الحسين في المدينة أبنـاء عمومتـه ومن أعماله أيضا أنه أحاط مكة بسور من أعلاها يحميها ويحفظهـا مـن أي سوء[٢].

ولقد ظلت الأسرة التي أرسى دعائمها في الحكم : قتادة بـن إدريـس تحكم مكة لمدة سبعة قرون ونصف في الفترة من (٥٩٧-١٣٤٣هـ) تولـى خلالها عدد كبير من أولاده وأحفاده ، كما توالى على حكم ينبع عدد كبير مـن ولاة بني الحسن ، كما أن ينبع خضعت في أغلب عهود تلك الأسرة إلى التبعية المباشرة لأمراء مكة في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وفي بعض الأحيـان كان المماليك هم الذين يعينون أمير ينبع وذلك بعد بروز الميناء وأهميته فـي استقبال سفن الشحن ، ولأهمية موقعها على طريق الحج الـبري المصـري ، والشامي والمغربي ، ولطول عهد تلك الأسرة التي استمر قرابة (٧٥٠ سـنة) لم تسعفنا المصادر بثبت لأسماء أمراء ينبع ، أو وصف لأحداثهـا السياسـية التي تدور حول أميرها ، بل إن المصادر قد صمتت عن التـأريخ لكثـير مـن الأحداث مما أوجد لنا كثيرا من الفجوات التاريخية التي لم نستطع للأسـف أن نستفيد منها عند كتابتنا لهذا المبحث . وغاية ماوجدناه أسماء متفرقة وأحداث موجزة أو مبتورة لبعض أمراء ينبع ومن الذين تمكنا من العثور على بعـض النبذ القليلة عنهم في بطون المصادر هم :

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص١٢٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٢١ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٦١ .

إدريس بن حسن بن قتادة ، ويشير ابن فهـــد[١] فـــي حـــوادث سـنة ٦٧٥هـــ إلى أن إدريس تحالف مع أمير المدينة جماز بن شيحة واشتركا فـــي حرب ابن عم ادريس (أبو نمي صاحب مكة) لأن العلاقات ساءت بينهما لأن أبا نمي كان يتهم أولاد حسن بن قتادة باغتيال أبيه ســــنة ٦٥١هـــــ ، والتقـى الجيشان في مر الظهران قرب مكة ، ويروي ابن فهد أن أبا نمي هزم عســكر المدينة وأسر إدريس بن حسن بن قتادة بينما لاذ غانم بـــن إدريـــس بـــالفرار ولحق بالمدينة ومن هذا النص نستدل على أن أمير ينبـــع كـــان مـــن أبنـــاء عمومة حكام مكة آل الحسن[٢] .

وزاد الأمر صعوبة عند التعرف على أمراء ينبع والكتابة عنهم ، تداخل الأحداث ، واختلاف الأسماء وتضاربها في الأحـــداث والتواريـــخ حتـــى فـــي المراجع الحديثة ، فما بالك بالمصادر .

فيشير عبد الكريم الخطيب إلى غانم بن إدريس الذي تولى إمرة ينبـــع سنة ٦٦٩هـــ[٣] ثم يسقط اسم غانم ويشير إلى أبيه إدريس ، بينما يذكر كـــلا من الفاسي والجزيري اسم غانم مستدلين من ابن محفوظ[٤] ويختلفا في تاريخ الحملة إذ يشيران إلى أنها حدثت سنة ٦٧٠هـــ ثم يضيف إلى أنهما انتصـــرا في أول المعركة وظلت الأمرة لهما لمدة أربعين يوما ، حتى أخرجهمـــا أبـــو نمي.

ويروي في أحداث سنة ٦٩٣هـــ أن ينبع كـــان يحكمهـــا (راجـــح بـــن إدريس بن حسن بن قتادة) بعد أبيه ادريس الذي أسر قرب مكة وقد قتله أبـــو نمي ثأرا منه ، وكان راجح قد أخذ إلى مصر صغيرا أثنـــاء توليـــة أي نمـــي

---

(١) اتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٥ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٦٠-٤٦١ .

(٣) تاريخ ينبع ، ص٦٨ .

(٤) العقد الثمين ، ج٧ ، ص٤ ، درر الفوائد ، ج١ ، ص٦٠٤ .

وعمه ادريس الحكم سويا على مكة . وفي عام ٦٩٣هـ كان راجح قد عاد من مصر وتولى إمارة ينبع بعد مقتل أبيه إدريس ، وحين اتجه أبو نمي إلى مصر لمقابلة الملك الأشرف خليل بن قلاوون(*) ، اتجه إلى ينبع أولا ، وقابل راجحا ، ويبدو أنهما تصافيا ، فثبت أبو نمي راجحا على ولاية ينبع ، وفي تلك الأثناء وصل خبر مقتل الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر ، فرجع أبو نمي إلى مكة(١) .

ومن أمراء ينبع سنة ٧٨٥هـ الشريف سعيد بن أبي الغيث الحسيني ، وعلى الرغم مما تمنحه له الدولة المملوكية إلا أنه كان طماعا ، يقال إنه نزل على حجاج المغاربة ، فسألهم أن يعطوه شيئا غير الضريبة المفروضة عليهم ويقال انهم احتالوا حتى قبضوا عليه وربطوه معهم ماشيا وفي حجاج المغاربة حدة وطيش ، فتبعهم كثير من عربه وجنوده فقاتلوهم وأفنوا كثير منهم ، وأفلت منهم الشريف سعد ، وتصادف مرور حجاج التكرور فقاتلوهم ، وقتلوا كثيرا منهم واستولوا على قوافلهم وأموالهم(٢) .

ويشير ابن فهد في أحداث سنة ٧٩٢هـ(٣) أن من أمراء ينبع (وبير بن نجار) وكان في عهد توليه (عنان بن مغامس وعلي بن عجلان) إمرة مكة سويا سنة ٧٩٢هـ ، ويخالفه الخطيب فيذكر أن إمرته كان في عام ٧٦٢هـ(٤) ، ويرجع نسب وبير أمير ينبع إلى قتادة فهو ابن محمد بن عقيل

(*) الأشرف خليل بن قلاوون هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٩هـ وكان والده قد ولاه ولاية العهد بعد موت أخيه الصالح علي وقد اغتال الأشرف خليل مماليك أبيه لفساده وسوء سيرته سنة ٦٩٣هـ .

انظر ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٣ .

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٧٨٧،٨٠٣،٨٠٤ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٣١٣ .

(٣) اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٣٧٧ .

(٤) تاريخ ينبع ، ص٦٩ .

ابن راجح بن إدريس بن حسن بن قتادة الحسني وله من الأولاد (هلمان ، وهجار ، وسنقر ، وعقيل) وظل أميرا على ينبع لمدة عشرين سنة أو أكثر ثم قتل واتهم أخوه وابنه بقتله غيلة .

ومن أمراء ينبع هجار بن وبير بن نجار مكث واليا على ينبع إلى أن توفي سنة ٨٢٤هـ[١] .

ومن أمراء ينبع مقبل بن مخبار الذي استمر في حكمها إلى أن قبض عليه سنة ٨٢٨هـ وتم ترحيله إلى الاسكندرية حيث مات في سجنها سنة ٨٣٠هـ[٢] وقد تم القبض عليه هو والأمير رميثة بن عجلان حين جاء من اليمن وأرسل إلى القاهرة .

ويروي ابن فهد في[٣] أحداث سنة ٨٣١هـ أثناء حديثه عن حادثة مقتل الخواجا الكيلاني في البحر وهو في طريق عودته من إحدى ولايات الهند إلى مكة المكرمة ، حيث وقع خلاف بينه وبين صاحب السفينة فانتهز فرصة نومه وقتله ، ثم رمى به في البحر بمساعدة بعض التجار الموجودين على السفينة وعندما وصلت السفينة وعلم أميرها عقيل بن وبير بالخبر ، توجه إلى الساحل ، وقبض على من كان بالسفينة وأخذت الأموال ونقلت البضائع إلى مخازن ينبع وأخبر عقيل الملك الأشرف بما حدث ، حيث أرسل الأمير تغري بردي[*] للتحقيق وجمع أموال المقتول ، وأنعم على الشريف عقيل ، كما أن السخاوي يؤكد على أن أمير ينبع سنة ٨٣١هـ كان الشريف عقيل وأنه ترك

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص٢٠٨ ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص١٤٩ ، ج١٠ ، ص١٦٧ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٤ ، ص١٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٣١٧ .

(٣) اتحاف الورى ، ج٤ ، ص١٨ .

(*) أمير مملوكي وهو والد المؤرخ أبي المحاسن ، تولى مناصب عدة في دولة المماليك الجراكسة آخرها نيابة دمشق وعاصر غزو تيمور لنك للمدينة سنة ٨٠٣هـ .

الولاية سنة ٨٤٢هـ[١] وتوفي سنة ٨٤٤هـ .

ونجد تعارضا بين المؤرخين سببه كثرة التعيين والعزل ، وتداخل فترات حكم الأمراء ، وتعدد الجهات التي تصدر أمر التفويض والترشيح ، ونقص المعلومات وندرتها ، بل عدم وجودها في الأعم الأغلب ، من ذلك مايذكره السخاوي أن الأمير صخرة بن مقبل استمر في ولايته إلى أن مات سنة ٨٤٦هـ وقيل سنة ٨٤٢هـ . فربما يقصد السخاوي أن مدة صخر تكون من سنتين إلى أربع سنوات بعد موت عقيل بن وبير ، أما إذا كان صخر قد توفي سنة ٨٤٢هـ فعلى هذا الرأي لم يتول أمر ينبع أصلا ، أما إذا كان يقصد أنه توفي سنة ٨٤٢هـ بعد تركه لإمارة ينبع فيكون هناك تداخل بين عهدي عقيل وصخر ، بينما يذكر ابن فهد في حوادث سنة ٨٤٥هـ أن أمير ينبع كان صخر ابن مقبل بن نجار[٢] .

بينما يذكر كلا من ابن فهد[٣] والجزيري[٤] أن الشريف سبعا بن هجار قد خرج بالحويرة في جمع كبير ضد الشريف علي بن بركات أمير مكة وكان معه جمع كبير من التجار الاسكندرانيين حيث نهب أجمالهم وأمتعتهم ، وحين علم شريكه في الإمرة الشريف خنافر بن وبير أرسل في طلبهم ليسترجع لهم ماغنمه سبع منهم ، مع أنهم حين وصلوا إلى الشريف سبع ومن معه وجدوهم قد اقتسموا الغنائم ومع ذلك فلقد جمعت الأجمال والأسلاب ثم ردت إلى التجار وقد قتل لسبع في تلك المعركة أخوين هما سبيع وسباع .

---

(١) الضوء اللامع ، ج٥ ، ص١٤٩ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٤ ، ص١٧٠ .

(٣) اتحاف الورى ، ج٤ ، ص٤٨٥-٤٨٦ .

(٤) درر الفوائد ، ج١ ، ص٧٤٩ .

ومن أحداث سنة ٨٥٢هـ أن الذي تولى إمرة ينبع هو (حلام بن أجود) وكان زيديا[*] أنشأ مسجدين كبيرين بالمدينة ، وعمرت في عهده بالأسواق والمتاجر ، وهدأت الطرق وسكن العربان واطمأن الناس .

ومن أحداث سنة ٨٥٨هـ أن الشريف مسلط بن وبير تولى إمرة ينبع وظل في الإمارة حتى توفي ولم تذكر أي أحداث أو وقائع معاصرة لولايته[١] .

ويروي صاحب الضوء اللامع[٢] أن الشريف مخدم بن عقيل بن وبير بن نجار تولى الإمرة بعد الشريف معزى بن هجار وقتل مخدم في صفر ٨٥٩هـ واستقر بعده في إمرة ينبع الأمير هجار بن محمد بن مسعود الضويمر .

بينما يذكر السخاوي أميرا آخر لينبع[٣] هو مقدم بن محمد بن مسعود وهو أخو هجار السالف الذكر ولم يذكر له تاريخ ولاية أو وفاة .

وفي أحداث سنة ٨٧٥هـ يذكر كل من السخاوي[٤] والجزيري[٥] أن الشريف خنافر بن وبير ، تولى إمرة ينبع بعد هجار بن محمد بن مسعود ، وأشرك معه في الإمرة سبع بن هجار ، وبعد سنة انفصل عنه خنافر ، ثم دارت عدة معارك بينهما بعد أن تولى الأمير سبع وقتل الشريف هجار فيها .

(*) الزيدية من الفرق المعتدلة عند الشيعة وتقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وهم أقرب الفرق إلى أهل السنة وهم منتشرون في اليمن إلى الآن ويزيدون في الأذان عبارة (حي على خير العمل) والزيدية نسبة إلى زيد بن عبد الله بن الحسن .

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٥٨ .

(٢) السخاوي ، ج١٠ ، ص١٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٦٨ .

(٤) الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢٠٧ .

(٥) درر الفوائد ، ج١ ، ص٧٥١ .

ومن وفيات سنة ٨٨٧هـ يذكر السخاوي[١] أن إمـرة ينبـع تتولاهـا الشريف سبيع بن هجار بن محمد بن مسعود الحسني ، ثم جاء بعده دراج بن معز بن هجار بتفويض من صاحب الحجاز ، وإن كان لم يذكر لنا أي أحـداث مصاحبة للتعيين أو العزل .

ويشير حمد الجاسر[٢] في كتابه (بلاد ينبع) أن الأمير دراج هو جد ذوي هجار الأشراف المعروفين إلى الآن بينبع النخـل ويؤكـد ذلـك المخطوطـة المصورة[٣] التي اطلعنا عليها في مكتبة الحرم المكي وسنذكر قائمة بأسـماء ذوي هجار ولاة ينبع في ملاحق البحث ووثائقه .

وفي أحداث سنة ٨٨٧هـ يذكر السخاوي[٤] أن الشريف دراج بن معز بن هجار بن وبير بن نجار استقر في إمرة ينبع لمدة عشر سنوات حتى سـنة ٨٩٨هـ ، وكان بتفويض من صاحب مكة ولكنه لم يحدثنا عن أهـم أحـداث إمارة ينبع في عهده .

ومن أمراء ينبع ٩٠١هـ الأمير دراج جد ذوي هجار أشراف ينبع وله موقف كريم من مدينة الرسول ﷺ عندما قام أمير المدينة حسن بن الزبير من آل نعير بالاعتداء على حراس المسجد النبوي وسلب كل ماتحتويـه الحجـرة الشريفة من التحف والنفائس ، بالإضافة إلى تعدد سرقاته وكثرة أسلابه مـن السكان . وسارع الأمير دراج بعد أن استغاث الناس به إلى نجدة أهل المدينة بجيش كبير جمعه على عجل ومعه ابنه وتوفي دراج سنة ٩٠٢هـ .

---

(١) الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢٤٣ .

(٢) الجاسر : مرجع سابق ، ص٥١ .

(٣) جداول لأمراء المدينة من عهد الرسول ، وذكر لأسماء أسرة ذوي هجار حكام ينبع ، مخطوطة مصورة لم تحرر لها مقدمة جمعها الشريف مساعد بن منصور آل عبد الله .

(٤) الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢١٧ .

ومن أحداث ينبع عام ٩٠٣هـ الثورة التي قام بها أميرها يحيى بن سبع ضد المماليك مع أن هذا الأمير لم يقم بواجبه كما ينبغي في تأمين طريق الحج عبر ينبع . وقد سير له المماليك الجيوش وأنهك الدولة في صراع طويل ولكن اقتضت الظروف السياسية للسلطان قايتباي العفو عنه ، وسنتحدث عن ثورته بالتفصيل في المبحث الخاص بعلاقة ينبع بمصر .

ومن أمراء ينبع سنة ٩١١هـ (هجار بن دراج) عين أميرا على ينبع أثناء فتنة يحيى بن سبع(١) واشترك ضده في المعارك واستمر في ولايته حتى أوائل عام ٩١٧هـ(٢) .

أما آخر أمير على ينبع في عصر دولة المماليك الجراكسة فهو (علي بن هجار) الذي عين مكان أبيه (هجار بن دراج) ٩١٧هـ وظل أميرا على ينبع حتى توفي سنة ٩٢٨هـ وكانت الدولة المملوكية قد سقطت سنة ٩٢٣هـ بعد هزيمتها العسكرية في مرج دابق ، واستولى العثمانيون على أملاكها ومنها اقليم الحجاز . ويصف ابن اياس على بن هجار بقوله : "كان من خيار من ولي أمر ينبع" .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٠١ .

المبحث الثالث

علاقة بلاد ينبع بالمدينة المنورة

اتسمت العلاقة بين أشراف مكة والمدينة بالصراع تارة وبالوئام والتعاون تارة أخرى ، ولكن فترات الصراع كانت أطول وأعمق وهذا شئ يدعو إلى الغرابة خاصة أنهما فرعان من دوحة واحدة .فهما من أحفاد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وفاطمة الزهراء ابنة الرسول ﷺ[١] .

وكان المفروض من الناحية العقلية ، والمصلحة المشتركة ، والذكاء السياسي أن يسود بينهما الود والتفاهم واتحاد الكلمة والرأي لمواجهة الأطماع الخارجية للفاطميين والعباسيين ومن بعدهم الأيوبيين والمماليك .

ويبدو أن الخصومة بين الفرعين ـ آل الحسن في مكة المكرمة وبني الحسن في المدينة المنورة[٢] ـ ترجع إلى عدة أسباب لعل من أبرزها :

المنافسة على حكم الحجاز والسيطرة على كلتا المدينتين المقدستين تحت حكم فرع واحد منهما ، والطمع في الاستحواذ على الأموال والهبات والمنح التي ترسل إلى الحرمين الشريفين من جميع بقاع الأرض ، وخاصة مايفد إلى الحجاز سنويا من مصر والعراق .

ومن الواجب ألا نغفل سببا جوهريا من أسباب سوء العلاقة بين البيتين فلقد كان الحجاز حلبة للصراع بين القوى الفاطمية والعباسية طمعا في الحصول على المكاسب السياسية والدينية والمكانة السامية أمام العالم الإسلامي واليمنية ثم الأيوبية فالمملوكية ، لذا لعب الفرقاء المتنافسون دورا في تفرقة الفرعين ، والوقيعة بينهما حتى يتسنى لهم السيطرة عليهما ، وحتى يضمنا عدم اتحادهما ووقوفهما صفا واحدا أمام الأطماع الخارجية ، وهم يريدون ألا يهدد أحد سيطرتهم على الحرمين الشريفين حتى يظهر كل منهم أمام العالم الإسلامي كحامي حمى الحرمين .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٧٣ ، البرادعي : الدرر السنة ، ص٤ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٠٣ ، القلقشندي : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

ولنا أن نتساءل مادور ينبع في الصراع بين البيتين الطالبيين في مكة والمدينة؟

لقد قامت هذه المدينة بحكم موقعها التاريخي والجغرافي بدور كبير في هذا الصراع ، فلقد كانت ينبع هي ديار بني الحسن ، وفيها مضاربهم ومعاقلهم وأنصارهم فاتخذوها محورا جوهريا في صراعهم مع أبناء عمومتهم بني الحسين أو غيرهم . فإليها يركنون استعدادا للوثوب على المدينة ، أو غيرها ، فهي مؤخرة جيوشهم ، وخط دفاعهم الثاني ، ساعد على ذلك موقعها في مكان فريد بالنسبة للمدينة ومكة ، كما أن بها فرعا من جهينة هم (بنو ابراهيم) الذين عرفوا بالشدة والشكيمة والجلاد في الحرب ، فكانوا هم عدتهم وعتادهم عندما يهزم بني الحسن أو عندما يشكلون قوات جديدة لمحاربة أي خصم لهم وسيتضح الدور الذي لعبته ينبع خلال هذه الفترة الطويلة ، ذلك لأن بني الحسن الذين حكموا مكة من سنة ٣٥٨هـ عقب سقوط الدولة الاخشيدية إلى نهاية عهد الأشراف ١٣٤٣هـ كانوا كلهم ينبعيين ، وصدق حمد الجاسر عندما يعبر عن مكانة ينبع فيقول : "وماتاريخ ينبع إلا تاريخ رجالها" .

وسوف نلاحظ خلال الصراع بين الطالبيين في مكة والمدينة دور ينبع البارز فالجيوش تفد إليها وتخرج منها ، وإليها يلجأ الهاربون من آل الحسن فرارا من الهزيمة واستعدادات للوثوب تارة أخرى ، وإليها يلجأون حماية من المطاردة ، وفي معاقلها يختفون عندما تحدق بهم الأخطار من كل جانب ، وكيف كان رجالها من جهينة وليث ، وحرب ، وبنو ضمرة ، والأشراف والأنصار هم العدد والعدة لكل حسني حكم مكة ، ولأهميتها كان لايعين عليها إلا فرد من البيت الحسني ، حتى يستطيعوا السيطرة والإشراف على هذا الميناء الحيوي من ناحية ، وحتى يضمنوا تأمين طريق العودة إليها في أوقات الأزمات السياسية .

ومما لاشك فيه أن العلويين ـ على الرغم مما أصابهم من اضطهاد وطوال العصرين الأموي والعباسي ـ كانوا يحسون في قرارة أنفسهم أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم المسلمين ـ ولسنا هنا في معرض مناقشة هذه القضية التاريخية .

ولكن العلويين تحت الضغط والخوف ـ سكنوا ولو إلى حين ، واستقر كثير منهم من آل الحسن وآل الحسين في مكة والمدينة[(١)] .

حتى سنحت لهم الفرصة عندما ضعفت الدولة العباسية ، وعجزت عن حماية أقاليمها ومنها اقليم الحجاز (درة عقد الخلافة) فعاث فيه القرامطة[(*)] فسادا[(٢)] ، ولم تلبث الدولة العباسية أن عهدت بالحجاز إلى الاخشيديين[(٣)] حكام مصر .

وفي عهد كافور الاخشيدي ٣٥٨هـ استطاع أحد الأشراف الحسنيين أن يستولى على مكة ويعلن قيام حكم العلويين وأطلق على تلك الأسرة الأولى التي حكمت مكة اسم الجعافرة وتنسب إلى أول مؤسس لها وهو جعفر بن محمد واستمرت تحكم مكة من سنة ٣٥٨هـ واستمرت في الحكم حوالي مائة سنة ، أما الطبقة الثانية من الأشراف فهم (السليمانيون) أبناء عمومة الطبقة الأولى ولما وجد الفاطميون أنهم لايميلون إليهم حرضوا عليهم شيعة اليمن

---

(١) دحلان : خلاصة الكلام ، ص٦ ، الفاكهي : المنتقى في أخبار أم القرى ، ص٧٦ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٨٧ .

(*) استطاع أحد القرامطة لعنه الله وهو أبو طاهر القرمطي الهجوم على مكة عام ٣١٧هـ ، وقتلوا الوالي العباسي وخلعوا الحجر الأسود من مكانه ونقلوه إلى ديارهم في هجر (البحرين) واستمروا يعيثون فسادا في الحجاز لمدة عشرين سنة .
ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص٣٤٠ ومابعدها .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٤٨ .

وأجلوا السليمانيين عن مكة ولم يحكم منهم غير أمير واحد ، ثم سلموا الأمر إلى الطبقة الثالثة وهم أولاد هاشم بن محمد بن جعفر وأطلق عليهم الهواشم وحكموا مكة من سنة ٤٥٥هـ إلى سنة ٥٩٧هـ ، ثم كانت الطبقة الرابعة من حكام مكة الأشراف وهم أبناء قتادة بن إدريس الذين ظلوا يحكمون مكة حتى نهاية حكم الأشراف(١) وظلوا في الحكم لمدة ٧ قرون ونصف من سنة ٥٩٧هـ إلى سنة ١٣٤٣هـ .

أما المدينة المنورة فقد تولى حكمها طبقة واحدة من الأشراف من آل الحسين وهم أحفاد طاهر بن مسلم الحسيني الذي أعلن قيام حكومة الأشراف سنة ٣٦٠هـ بعد سنتين من إعلان حكومة الأشراف الحسنيين في مكة ، وعرفت هذه الأسرة فيما بعد بأسرة مهنى ، ولم تنتقل الشرافة إلى بيت غيرهم طوال هذه الحقبة وحتى سنة ١٣٤٣هـ .

وكما سبق أن ذكرنا لم يكن معظم الأشراف على مستوى المسئولية في إدارة دفة البلاد ، فعلى الرغم من استقلالهم في الحكم فترات طويلة اللهم إلا في أواخر العهد الجركسي لم يقوموا بحمل الأمانة الملقاة على عواتقهم ، فلم يؤمنوا الطرق والدروب أمام القوافل والحجيج ، بالإضافة إلى جشعهم وأطماعهم في فرض الضرائب والمكوس على الناس لذا كرهتهم الرعية من القاطنين والوافدين .

وكانت ثالثة الأثافي كما يقولون سوء العلاقة بينهم في البيت الواحد عامة وبين البيتين آل الحسن في مكة ، وبني الحسين في المدينة خاصة ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، حتى حاربوا بعضهم البعض ، وخرجت الجيوش والتجريدات العسكرية بينهما .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤٩ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص٢٠٦ .

وقامت ينبع بدور كبير في أثناء الصراع بين البيتين . فهي كما سبق أن ذكرنا موطن الحسنيين ، وتجمع أنصارهم ، وملجأهم وحصنهم عند التقهقر أو الاستعداد للانقضاض .

ومن أبرز تلك المعارك التي دارت بين أشراف مكة والمدينة حدثت المعركة الأولى بسبب تأزم العلاقات بين البيتين العلويين في مكة والمدينة وحدثت بينهما معارك كثيرة لعل من أبرزها ماحدث سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م عندما قام أبو الفتوح حسن بن جعفر بناء على أوامر[١] وصلته من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بهدف الاستيلاء عليها من أيدي الحسن بن طاهر بن مسلم من بني مهنى الحسينيين ، لأن أمراءها قاموا بقطع الخطبة للفاطميين[٢] بل وصلت الجرأة بالحسينين إلى حد الطعن في نسب الفاطميين مما أوغر صدورهم ، ويقال إن أبا الفتوح قد نجح في مهمته واستولى على المدينة وحكمها بجانب مكة لمدة سنتين[٣] ، وأخيرا تركها لبني مهنى عندما انصاعوا للدولة الفاطمية .

ولقد عانت ينبع كثيرا في هذه المعركة المبكرة إذ استعان أبو الفتوح ببني إبراهيم الينبعيين في حربه ضد بني مهنا بالمدينة ، علاوة على تعطل طريق القوافل بين ينبع والمدينة ، ومهاجمة البدو للقوافل وانعدام الأمن .

وفي سنة ٤٤٣هـ كان الشريف شكر بن أبي الفتوح الملقب بتاج المعالي[٤] والذي حكم بين سنتين ٤٣٠-٤٥٣هـ ، واستطاع الانتصار على الحسينيين في المدينة وساعدته قبائل بني هلال وبني عامر ويقال إنهم حرضوه على حرب بني مهنى الحسينيين واستمر حاكما للمدينة ومكة حتى

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٩٩ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠٢ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص٥٥ .

سنة[١] ٤٥٠هـ ثم أعاد بني مهنى بعد عقد صلح بين الطرفين ، ولقد استعان أبو المعالي بأمداد كبيرة وصلته من الحسنيين بينبع كما عانت ينبع ويلات الحرب لقربها من المدينة ، وماوقع عليها من مسئولية تموين جيش أبي الفتوح وإمداده بالرجال والعتاد ، وفي هذه المرة قطع بنو مهنى الخطبة للفاطميين وخطب لبني العباس على منابر المدينة ، ولعل السبب يكمن في عدم وصول الميرة والأموال من الفاطميين بسبب الشدة المستنصرية[*] .

وفي خلال حكم الهواشم لم يحدث اعتداء من جانب حكام مكة على بني عمومتهم في المدينة اللهم إلا ماحدث عندما عاد أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر بعد طرد السليمانيين ويروى أنه سير جيشا من الأتراك إلى المدينة المنورة وضمها إلى إمارته وأصبح حاكما لمكة وينبع والمدينة[٢] وبذلك جمع بين الحرمين الشريفين .

ثم رد بنو مهنى على هذه المحاولة سنة ٥٧١هـ عندما انتهزوا فرصة وقوع نزاع بين مكثر أمير مكة وبين طاشتكين أمير الركب العراقي ، فاتصل بنو مهنى بالخليفة العباسي المستضئ بالله فعهد بإمارة مكة وينبع إلى الأمير هاشم بن مهنى الحسيني أمير المدينة وتم عزل مكثر ، ولكن لم يستطع هاشم ابن مهنى إدارة مكة من ناحية ، والسيطرة على بني الحسن وشيعتهم في ينبع من ناحية أخرى فطلب اعفاءه من الجمع بين الولايتين وتنازل عنها لداود بن عيسى أخو مكثر[٣] .

---

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٥٠ .

(*) نسبة إلى المستنصر بالله الفاطمي لأنها حدثت في عهده واستمرت لمدة سبع سنوات من عام ٤٥١هـ بسبب جفاف نهر النيل وجاع الناس حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب .
المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص١٣٢ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص١٩٦ ، جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين في بلاد الحجاز ، ص٣٠،٣١ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٨ .

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ظهر بينبع قوم من الحسنيين بزعامة قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم ويلتقي مع الهواشم والجعافر في جدهم محمد الثائر بن موسى الثاني ، وكانوا يقيمون في العلقمية من وادي ينبع[١] ، ولما تم له السيطرة على نواحي ينبع وجه وجهته شطر مكة واستطاع أن يطرد مكثر بن عيسى آخر أشراف الهواشم ويستولى عليها سنة ٥٩٧هـ[٢] .

وحدث في أول عهد قتادة أن ساءت علاقته بالخلافة العباسية لأنه رفض السفر إلى بغداد لمقابلة الخليفة العباسي الناصر لدين الله[٣] بناء على طلب الأخير فاستنجد ببني عمومته في المدينة فنجدوه وجمع قوات غفيرة من المدينة ومكة وينبع وتمكن من الحاق الهزيمة بجيش عباسي أرسله له الخليفة[٤] .

ولكننا نجده ينقلب على المدينة ـ ناسيا وقوفها بجانبه أيام محنته ويشن عليها فجأة هجوما عنيفا سنة ٦٠١هـ وتمكن من هزيمة أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني ، وظل قتادة يحاصر المدينة عدة أيام ولكن سالما استطاع بذكاء أن يخذل بين أنصار قتادة ثم شن سالم هجوما سريعا على قتادة فهزمه وأسر بعض رجاله[٥] .

ثم انحاز قتادة إلى ينبع لجمع الأنصار وترتيب القوات والاستعانة ببني عمومته من بني إبراهيم ، ويبدو أنه كان ينوي إعادة الهجوم إلى المدينة من

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٢٠٦ ، ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٠٥ .

(٢) ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص٢٣٩ .

(٣) ابن خلدون : مصدر سبق ذكره ، ج٤ ، ص١٠٥ .

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٠٩ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٤٢ .

ينبع ولكنه خاف من مباغته سالم له لقرب ينبع من المدينة ، فتوجه إلى مكة ولكن سالما لم يمهله فحاصره بمكة ولم يتمكن قتادة من فك الحصار إلا باللجوء إلى نفس الحيلة التي استخدمها سالم معه وهي الوقيعة بين أنصاره

وانتهى صراع عام ٦٠١هـ برسالة من سالم إلى ابن عمه قتادة يقول فيها : "ياابن العم كسرة بكسرة وأيام حصار بمثلها والبادي أظلم ، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب في القابل"[١] .

وهكذا كانت ينبع تدفع الضريبة في كل مرة ، فهي تقع بين شقي الرحى في الطريق بين مكة والمدينة ، وهي مسقط رأس شريف مكة وأميرها من الأشراف الحسنيين تحت إمرة شريف مكة ، فكانت تتحمل تكاليف الحرب من إمداد الجيش برجال القبائل الأشداء وتقوم بتموين الجيش المحارب ، وتحمي ظهره ، وتؤمن أجنابه من المفاجآت .

وانتهى الأمر بعقد صلح بين الفرقاء[٢] .

وحدث في عام ٦١١هـ/١٢١٥م تطور جديد في الصراع بين أبناء العم من الأشراف ، ودارت بينهما رحى معركتين شرستين في ينبع نفسها . فلقد حدث في هذه السنة أن الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكربن أيوب صاحب دمشق عزم على أداء فريضة الحج ، ولما توجه من الشام على طريق قلعة الكرك قصد المدينة فاستقبله شريفها سالم بن قاسم الحسيني بالتشريف والحفاوة التي تليق بالملوك والأمراء ويقال أنه استضافه في داره ، وسلم إليه مفاتيح المدينة وأهدى إليه ، ثم ودعه بعد انتهاء الزيارة[٣] .

---

(١) نجم الدين عمر بن فهد : اتحاف الورى ، انظر حوادث سنة ٦٠١هـ ، ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية ، ص٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج١٢ ، ص٢٠٥ ، السليمان : العلاقات الحجازية ، ص١٢ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص١٨٠ .

ولما وصل الملك المعظم عيسى الأيوبي إلى مكة في اليوم السادس من ذي الحجة استقبله قتادة وعامله بجفاء ولم يؤد واجبات وحق الضيافة التي تقدم للملوك والأمراء فاستاء المعظم وأسرها في نفسه ، وبعد انتهاء الحج وعقب عودة المعظم عيسى إلى دمشق اصطحب معه سالما أمير المدينة ليرد له صنيع ماأكرمه به ، ويقال إن قتادة انتهز فرصة غياب سالم بن قاسم عن المدينة وهاجمها ولكن أهلها رفضوا التسليم وأصروا على المقاومة ، ولما طلب سالم النجدة من المعظم عيسى أمده بجيش شامي نكاية في قتادة وردا على إهانته له ، وحدث ذلك في شعبان سنة ٦١١هـ ، غير أن سالما توفي في الطريق فتولى قيادة الجيش أخ له يدعى (جماز بن قاسم) الذي اسرع لمقابلة قتادة ووقع الاشتباك بينهما قرب ينبع في وادي الصفراء في ذي القعدة وانتصر جيش الشام[١] وهرب قتادة إلى قلعة ينبع وتحصن بها بين أنصاره وأعوانه ، فتتبعه جماز إلى ينبع ودارت بينهما رحى معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة قتادة هزيمة ثقيلة ، وحطم جماز القوة الضاربة للحسنيين بأسره عددا كبيرامن اشرافهم في ينبع واصطحبهم قائد الجيش الشامي معه إلى دمشق ، كما غنم جماز معظم أموال قتادة وأنصاره[٢] .

وكانت لطمة قاسية لقتادة فكانت السبب الذي عجل بموته إذ أنه قد قتل سنة ٦١٧هـ ولكنه في الحقيقة قتل سنة ٦١١هـ ، قتلا أدبيا عندما حاقت به هذه الهزيمة في ينبع مسقط رأسه ومجمع أنصاره ، وملجأه الحصين .

ثم وجه الأيوبيون ضربة جديدة لقتادة سنة ٦١٣هـ عندما قام نواب الملك الكامل محمد الأيوبي صاحب مصر ، بتسلم ينبع لأهميتها البحرية والبرية من نواب قتادة من الأشراف الحسنيين لعجزهم عن صد هجمات قاسم ابن جماز الحسيني أمير المدينة[٣] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٦٧ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٤٣ .
(٢) الفاسي : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ، المقدسي : ذيل الروضتين ، ص٨٧،٨٨ .
(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤٤،٤٥ ، المقدسي : المصدر السابق ، ص٩٢ .

وبذلك انتهت صفحة قتادة الذي أطلق عليه الفاسي "صاحب مكة وينبع وغير ذلك من بلاد الحجاز"[١] .

وبسبب سوء العلاقات بين مكة والمدينة في بعض الفترات عانت ينبع من اضطراب الأحوال وتعطل الوارد إليها من المراكب وعزوف التجار عن القدوم إليها في أوقات الفتن بين الفريقين المتحاربين لقربها من المدينة من ناحية ولكونها إحدى المحطات الهامة للوصول إلى مكة من ناحية أخرى .

ولكن على الرغم من الأطماع والصراعات والوقائع المتبادلة بين آل الحسن حكام مكة ، وبني الحسين حكام المدينة إلا أنه كانت هناك صلات حميمة بينهما في كثير من الأوقات خاصة في فترات الهدوء والصفاء النفسي وتحسن الأوضاع الاقتصادية ، أو عندما يتعرض اقليم الحجاز لغزو خارجي من بغداد أو مصر أو اليمن .

حتى إننا نلمح تلك الصرخة التي تدل على عمق الروابط بين أبناء البيت الواحد عندما سارع قتادة في طلب النجدة من المدينة وينبع أثناء نزاعه مع العباسيين ، كما قال في رسالته إليهم :

بني عمنا من آل موسى وجعفر   وآل حسين كيف صبركم عنا

وبالفعل أتته النجدات من المدينة وينبع واستطاع أن يهزم العباسيين شر هزيمة حتى أن الخليفة عندما أحس بقوة قتادة ـ وماقوته إلا بالتفاف أهله وبني عمومته حوله ـ سارع بطلب الهدنة[٢] .

بالإضافة إلى ذلك كان لينبع دور هام في علاقتها بالمدينة ، فلقد كانت ينبع هي باب المدينة ورئتها التي تتنفس منها على العالم الخارجي ، حتى أن البشاري[٣] قد اعتبرها أعمر من المدينة حوالي القرن الرابع الهجري ، بل إن

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٣٩ .

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٠٩ ، الدحلان : مصدر سبق ذكره ، ص٢٤ .

(٣) روضة الأزهار ، مرجع سابق ، ص٤٢٥ .

ميناء ينبع كان فرضة للمدينة من قديم ، ولقد قوى أمره بعناية الأيوبيين له في الربع الأول من القرن السابع الهجري ، وجعلوه الميناء الرئيسي للمدينة[١] فاشتروا الميناء من أهل ينبع النخل بني الحسن وأنشأوا فيه الأرصفة والمخازن التي تشون فيها الحبوب والبضائع والحظائر التي توضع فيها الخيول ، وتم توسيع مداخل الميناء ومخارجه ، وتدمير جزء كبير من الشعاب المرجانية التي تعوق حركة الملاحة ، وجعلوه الميناء الرئيسي للمدينة في غرب البحر الأحمر وأمدوه بالحاميات المجهزة بالجند ، وصارت ينبع حلقة الوصل بين المدينة والعالم الخارجي فكانت السفن تبحر إليها من السويس أو القصير أو عيذاب في الأزمنة المختلفة تحمل وفد الحجيج كل موسم ، كما تحمل على متونها كل مايلزم الحجاج طوال موسم الحج ، مايراد توزيعه على فقراء الحرمين ، بالإضافة إلى شحنات القمح التي ترسل سنويا إلى الأشراف[٢] .

ولما كان حكام مصر يرغبون في اجراء عمارة بالحرمين الشريفين في بعض السنوات كان يرسل عن طريق ينبع الرجال والزاد للمدينة المنورة ومايحتاجه العمال في عمارتهم ، بالإضافة إلى إرسال كل مايحتاجه أمراء الحج عن طريق ميناء ينبع .

وأسترعى ازدهار المدينة وموقعها نظر المؤرخين والرحالة فنجد أن أحدهم وهو الشيخ أحمد بن هارون يصفها بقوله : "ينبع من أعظم مدن الحجاز ، إلا أنها صغيرة ، وهي بندر التجار ، ومحل المكاسب ، وبها دور واسعة ، ولها أمير مثل مكة ، وفيها دكاكين وزروع وعيون وأشجار"[٣] .

كما أن وقوع ينبع أيضا على طريق الحجاج البري لحجاج مصر وماوراءها من الأقطار الاسلامية مرورا بالعقبة ، ثم يأخذون ساحل البحر إلى الحجاز مارين بينبع بعد أن كانوا يأتون بحرا من عيذاب والقصير إلى جدة ،

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٩١٧ ، الجزيري : مصدر سابق ، ج١ ، ص٢٨٩ ، حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩،٥٠ .

(٢) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٥ .

(٣) روضة الأزهار ، مرجع سابق ، ص٤٢٥ .

ولقد ازدهر هذا الطريق وعمه العمران في أواخر عهد الدولة الأيوبيــة ، ثــم اهتمت به دولة المماليك حتى أصبح طريق الحج الرئيسي[١] .

وفي سنة ٦٦٠هـ سير الملك الظاهر بيبرس البندقداري قافلة حجــاج مصر من هذا الطريق وأرسل معهم قافلة المحمل ومعها كسوة الكعبة .

واهتمت الدولة المملوكية بهذا الطريق على امتداد ثلاثة قرون ، ونتيجة لذلك اكتسبت بلاد ينبع أهمية كبيرة ، وصار طريق الحج البري تحت رعايــة المماليك "تقوم باصلاحه وبناء المحطات فيه لحراسته ، وبحفر الآبار ، واتخاذ مختلف الوسائل لحماية وضمان سلامة الحجاج"[٢] .

وساعد هذا الطريق على تقوية الروابط وسرعة اتصال ينبع بالمدينــة حيث تسلك الوفود طريقها إليها في حراسة الجند عندما يشتد أذى العربــان ، أو بسلامة وأمان في أوقات الهدوء والسلامة[٣] .

ونتج عن الاهتمام بالطريق البري العناية بالميناء حيــث ترســل عــن طريقه كل ماتتطلبه جموع المسافرين والمعتمرين ، وكل مايلزم قوافل الحراسة والمحمل من الحاجات الضرورية علاوة علىكل مايلزم المدينــة مــن حبــوب وأطعمة وكسوة أو مايلزم الحرم النبوي من أخشاب أو مواد بنــاء أو عمــال لبناء المدارس والأربطة والسبل والخنقاوات .

وكان جزء كبير منها يأتي إلى مكة المكرمة فتبحر السفن من السويس أو الطور إلى جدة ومنها إلى مكة .

---

(١) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٩ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، سلسلة أعلام العرب ، ص٧٥ .

(٣) حمد الجاسر : ينبع ص٦٨ ومابعدها .

أما مايخص المدينة فصار يرسل بحرا من الطور أو السويس إلى ينبع ومنه إلى المدينة ، ولذا لزم العناية بالطرق بين ينبع والمدينة حتى تتمكن الدولة من إيصال هذه الأشياء في سلامة وأمان ، بالإضافة إلى حراسة الطريق حتى يأمن الحجاج على أنفسهم في رحلتي الذهاب والعودة إلى المدينة ولذا وضعت ضريبة مقدارها ٥٠٠ دينار تحصل من أمير ينبع ، وتدفع للعربان حتى يحافظوا على سلامة الحجيج والقوافل بين ينبع والمدينة ومكة(١) .

ولأهمية ينبع على الطريق البري والبحري إلى المدينة صارت مدينة عامرة بها الأسواق والدكاكين والصاغة والأقمشة والأفران وبها الخانات لنزول المسافرين ودوابهم وأسواقها عامرة بالدقيق والمأكولات والفول والعليق واللبن والتمر والزبد والعجوة والبطيخ والخضروات واللب والريحان والطيب والبخور للبيع لأهلها ، وليشتري منها كل مايحتاجه المسافرون إلى المدينة من المتاع والزاد .

وحافظت ينبع على مكانها ومكانتها كبوابة لمدينة الرسول ﷺ فسعدت بهذه المنزلة ، واستوطنها كثير من الناس للعمل بالملاحة وغيرها من المدن التي تشتهر بها الموانئ ، وكانوا سعداء بخدمة مدينة الرسول والحجاج القاصدين إليها وكان فيهم علاوة على السكان الأصليين من البدو ، جاليات كثيرة من الشوام والمصريين والهنود والحضارمة .

وقويت العلاقة بين ينبع والمدينة على امتداد القرون ، واتخذ التعاون أشكالا شتى خاصة في المجال التجاري ، وكان كثير من أهالي المدينة يعملون في ينبع سواء في العهد الأيوبي أو المملوكي أو قبلهما ، وكانت هناك جالية كبيرة من المدينة يتولى شئونها (أمين المدينة) (٢) وهي وظيفة استحدثت في

---

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ص٥٣٦ .

(٢) الخطيب : بلاد ينبع ، ص٦٥٦ .

العهد المملوكي وزادت صلاحياتها فيما بعد ، وكان لتجار المدينة معتمدون في ينبع لاستقبال متاجرهم واخراجها من جمارك الميناء ، ودفع مايلزم من رسوم الجباية والمكوس عنها .

وكان تجار المدينة يستوردون من الهند ومصر عن طريق ينبع ، ونشأت علاقات ومصاهرات بين تجار المدينة وينبع ، وكان لكثير من تجار ينبع دور وقصور في المدينة ولتجار المدينة دور وقصور في ينبع . كما انتشرت الأوقاف التي أقامها الينبعيون في المدينة من مساجد وربط وزوايا ومدارس وأسبلة ومتاجر ، وكذلك للمدنيين منشآت كثيرة في ينبع وكانت أغلب الأسر التي أقامت تلك الأوقاف من الأسر الوافدة من مصر وليبيا والمغرب والشام والهند وغيرهم .

وكان الطريق بين المدينة وينبع تقطعه الجمال في أربعة أيام وتمر بمنازل أربعة للراحة وسقي الدواب ، والطريق عامر بالعلامات والآبار والعيون والنخيل .

وكانت المرحلة الأولى من ينبع إلى بئر سعيد ، وهو منهل من مناهل بني ضمرة في صدر الاسلام قرب جبال نصع ، والمرحلة الثانية في وادي الصفراء ناحية قرية الخيف ، والثالثة تعرف بالمنصرف أو كما أطلق عليها فيما بعد بالمسيجيد ، أما المرحلة الرابعة والأخيرة فيطلق عليها آبار علي وهي تحمل نفس الاسم إلى الآن وهي عامرة بالمياه والنخيل والمزروعات(١) .

---

(١) الخطيب : بلاد ينبع ، ص٦٥٨ .

المبحث الرابع

علاقة بلاد ينبع بمكة المكرمة

استوطن علي رضي الله عنه ينبع قبل أن يلي الخلافة ، وكان معجبا بها ، فاشترى بها أرضا ، ويقال أنه أقطع أماكن أخرى في عهد الرسول ﷺ والخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١) .

ويروى أن عليا رضي الله عنه ، نظر إلى جبال ينبع فقال : "لقد وضعت على نقب من الماء عظيم"(٢) .

ولقد حفر بها كثيرا من الآبار والعيون ، تصدق ببعضها ، كما عمر بعض البيوت والأماكن ، ثم استوطن من بعده بنوه وأحفاده من آل الحسن(٣) ديار ينبع ، وانتشروا في مرابعها وأقاموا المزارع وحفروا الآبار ، وكثروا فيها طوال العهدين الأموي والعباسي على الرغم ما تعرضت له ديارهم من تخريب وإحراق ، وطمر للعيون والآبار(٤) .

ورغم هذه المحن فلقد كثر آل الحسن بمناطق ينبع وتناسلوا وزاد عددهم حتى صارت ديارهم غزيرة الماء ، كثيرة النخل ، عامرة الدور ، ولقد ظلوا قانعين بعيدا عن العمل السياسي ــ اللهم إلا من نزح منهم ورغب في الاشتغال بالسياسة كادريس بن عبد الله بن الحسن الذي فر إلى بلاد المغرب سنة ١٦٩هـ بعد هزيمة العلويين في معركة فخ بقرب مكة حيث قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن ، واستطاع هذا الحفيد أن يؤسس دولة الأدارسة(*).

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٥٠ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٧ .

(٣) ياقوت : مصدر سابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٥ ، ص٨٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص٣٠ .

(*) دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ) : أسسها ادريس بن عبد الله بن الحسن الذي كان مقيما ينبع واجتمعت عليه قبائل زناته ومكناسة وبايعوه بالإمارة ، ومن آثار هذه الدولة مدينة فاس بناها ابنه ادريس الثاني ، وانتهت هذه الدولة على يد الفاطميين ٣٤٩هـ . =

ولما ضعفت الخلافة العباسية وعهدت بادارة ولاياتها إلى حكام الأقاليم وكانوا من جنسيات مختلفة من الفرس والترك والبربر وغيرها من الأجناس وتوالى على إدارة الحجاز دويلات قامت في مصر حتى إن أحمد بن طولون أرسل قواته للسيطرة على الحجاز بداية من أواسط القرن الثالث وفي عهد الدولة الاخشيدية(*) استطاع بنو الحسن أن يقيموا دولة لهم في الحجاز ٣٥٨هـ ويسيطروا على مكة ، وتتقرب إليهم دول الخلافة الفاطمية والعباسية.

وكان من أكبر فروع آل الحسن (بنو قتادة الينبعيون) سكان العلقمية من عيون ينبع المعروفة إلى الآن ، ولقد حكم هذا الفرع من آل الحسن مدة طويلة قربت من السبعة قرون ونصف من سنة ٥٩٧هـ حتى سقوط دولتهم .

ويهمنا في هذا المبحث أن نبين أن آل الحسن وعلى الرغم من حكمهم لمكة هذه المدة الطويلة ، لم ينسوا اقليم ينبع بل عاش في وجدانهم يرتبطون به ارتباطا جذريا ، حيث مقر العصبية ، والديار الأولى . إليها يحنون وبها يرتبطون ، يلجأون إليها لطلب النصرة والمدد وإعادة التجمع وتنظيم الصفوف وهي عيونهم على العالم الخارجي عن طريقها تصل الأخبار ، وعبر مينائها يصل الوارد ، ويرتحل الصادر ، حتى عندما كان يحتدم الجدل وتشتد الخصومات وتقع الأحداث وتشتعل الفتن والحروب ، يلجأ الفار منهم والمهزوم إلى حضن ينبع طلبا للحماية وتضميدا للجراح .

= د. محمد المنسي : تاريخ المغرب والأندلس ، ص٦٧ .

(*) الدولة الاخشيدية : دولة قامت في مصر (٣٢٥-٣٥٨هـ) أسسها محمد بن طغج الاخشيد من أتراك فرغانة ، ثم حكمها من بعده ولد له صغير فتولى كافور الاخشيدي الوصاية عليه وكان مربيا له واستمر كافور يدير دفة الحكم حتى استولى الفاطميون على مصر .

ويهمنا أن نشير إلى أن دور ينبع واتصالها بمكة قد زادت أهميته على وجه الخصوص في مستهل القرن السادس الهجري فقويت الروابط والوشائج بين ينبع ومكة .

وليس معنى ذلك أن الروابط كانت منعدمة بينهما في عهد كل من الجعافرة والهواشم ، بل على العكس كانت الروابط موجودة والاتصالات قائمة ولاغرو في ذلك فهما فرعان من فروع دوحة آل الحسن ، وهي بلادهم حيث الآل والسكن والمستقر والمستودع .

وتتضح كل هذه الأحداث في المبحث التالي .

لم تكن ينبع سوى قلعة يتحصن بها آل قتادة فحين يكون الهجوم على مكة تكون ينبع ملاذا أو حصنا[١] لهم وحين ينهزم أمير مكة يلجأ إلى ينبع ليأتي بجنوده ويحارب أعدائه فيها ، وهذا ماحصل لحسن بن قتادة حين خرج من مكة مهزوما[٢] فلجأ إلى ينبع[٣] وخرج لملاقاة أمير مكة الذي كان آنذاك نور الدين عمر بن رسول[٤] القادم من اليمن للتدخل في شئون الحجاز ومكة وكان ذلك سنة ٦١٩هـ/١٢٢٣م .

وذلك حين كان التنافس على السلطة في الحجاز بين الأيوبيين والرسوليين فيما بين سنتي ٦٢٦-٦٣٩هـ/١٢٢٩-١٢٤٢م وكان شجاع الدين أبي بكر بن عمر بن محمد الطغتكين في مكة من قبل الملك الكامل جاءت

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٤٢-٤٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٩ ، نجم الدين بن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٦١٩هـ ، الدحلان : خلاصة الكلام ، ص٢٥ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٢١٣ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٦٢٤ .

حملة رسولية من اليمن بقيادة ابن عبدان[١] وكان ذلك سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م مع راجح بن قتادة الذي سعى إلى استمالة أهل مكة ورؤسائهم للميل نحو المنصور نور الدين عمر بن رسول وذلك بتذكيرهم بما قام به صاحب اليمن ، وأفضاله عليهم وقدم جيش اليمن إلى مكة وتخاذل أهلها عن نصرة طغتكين لأن راجحا أعطى زعماءهم أموالا كثيرة حينئذ هرب طغتكين إلى ينبع مع جنده وطلب الامدادات وكان معه مائتي فارس وفي ينبع وجد مخازن وغلة وذخيرة وحامية للملك الكامل[٢] من مصر حيث أجيب إلى طلبه كما انضم إلى طغتكين أمير ينبع أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة ، وأمير المدينة شيحة[*] بن القاسم بناء على طلب الملك الكامل ، كما أرسل إليه الملك الكامل نجدة سريعة إلى طغتكين بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ وكان النصر لهم وهزيمة ابن عبدان من قبل صاحب اليمن إضافة إلى هزيمة أهل مكة[٣] . ويروى أن طغتكين بعد انتصاره في مكة استباح المدينة ثلاثة أيام فغضب الكامل وأمر بعزله[٤] .

لكن مالبث الملك المنصور نور الدين الرسولي ومعه راجح بن قتادة أن استردا مكة سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ولكنهما هزما مرة أخرى في نفس السنة وطرد راجح والعسكر الرسولي من مكة[٥] .

---

(١) هكذا ورد اسمه في أغلب الروايات اليمنية . انظر : ابن حاتم : السمط الغالي الثمن ، ص٢٠٤ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٤٩ ، أما الفاسي فيقول : "ابن عبدان بالباء الموحدة تحت" . انظر العقد الثمين ، ج٤ ، ص٣٧٥،٣٧٦ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٥٠ .

(*) هو شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسيني أمير المدينة . ترجم له صاحب العقد الثمين ، ج٥ ، ص٢٢-٢٤ .

(٣) العليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص٩١-٩٢ .

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ص٢٠٥ .

(٥) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٣٧٤-٣٧٦ .

وفي سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣-١٢٣٤م نجح بنو رسول في السيطرة على مكة .

وفي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م حين قاد الملك المنصور تجريدة واستولى على مكة وهرب العسكر الأيوبي هنا استدعى الملك المنصور الشريف أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة صاحب ينبع واشترى منه قلعة ينبع وأمر بإخرابها حتى لاتكون قاعدة للأيوبيين في بلاد الحجاز وعين أبا سعد نائبا عنه في وادي مر[٢] (*) .

إذن لم تكن ينبع قلعة حصينة لأمرائها فقط من مكة والمدينة ، إنما كانت قرارا وملجأ لكثير من البلاد الأخرى مثل مصر في أثناء نزاعها مع القوى الأخرى التي تنافسها في الحجاز ، وهذا ماحصل حين اشترى نور الدين عمر بن رسول صاحب اليمن قلعة ينبع حتى لاتكون مستقرا لأعدائه[٢] .

كما كان لينبع دور كبير في الأحداث المكية حيث نجد أن أمراءها لايتوانون عن تقديم أي مساعدة لأمير مكة وخصوصا حين تولى أبو سعد(**)

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٦١ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٨ ، عز الدين عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٦٣٥ .

(*) يسمى مر الظهران بفتح الميم وهو من أكبر أودية مكة بينه وبينها حوالي خمسة أميال وسمي بذلك لمرارة مياهه وأكثر سكانه من أشراف بني الحسن ويعرف اليوم بوادي فاطمة ومركزه الجموم ويشتمل على عدة قرى ومياه جارية ونخيل كثير وهي على طريق حجاج مصر والشام .
انظر : أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص٩٥ ، ياقوت الحموي : مصدر سبق ذكره ، ج٥ ، ص٢٠٤

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٣ ، ص٣١٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٤٩ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٦٨-٦٩ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢١٩ .

(**) ساعدت الظروف أبا سعد على الاستقلال بمكة فقد شغلت الدولة الأيوبية بالدفاع عن مصر ضد الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م وموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخذت الأميرة شجر الدر تجهز نفسها لتولي السلطة في مصر ، أما الدولة الرسولية في اليمن فبعد موت عمر بن رسول ٦٤٧هـ تولى ابنه المظفر يوسف الذي انشغل بتوطيد حكمه ولم يهتم بما حدث في مكة .

الحسن بن علي بن قتادة بن ادريس سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م مكة فانطلق عمه الشريف راجح بن قتادة إلى المدينة مستنجدا بأخواله الأشراف بني الحسين أمراء المدينة على ابن أخيه الشريف أبي سعد الحسن بن قتادة فأنجدوه لاخراج الحسن بن قتادة ، هنا طلب أبو سعد المساعدة من ابنه أبا نمي وهو صبي في ينبع لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره وخرج معه أربعون شخصا واتجه إلى والده في مكة ونجح في التغلب على خصوم والده وإن كانوا من نفس سلالة بني قتادة(١) .

كما نرى دورا لينبع سنة ٦٥١هـ/١٢٥٤م حين استنجد الشريف جماز أمير المدينة بصاحب دمشق الملك الناصر يوسف الأيوبي(*) ليساعده ضد شريف مكة أبا سعد علي بن قتادة على أن يدعوا له بدل صاحب اليمن فاستجاب له وأمده بجيش سار معه إلى مكة في منتصف سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٤م حيث قتل ابن عمه أبا سعد علي بن قتادة وتولى إمرة مكة لكن بعد انتهاء الموسم تسلم عمه راجح بن قتادة الامرة في مكة وفر جماز بدون قتال إلى ينبع(٢) .

إذن كانت ينبع بمثابة مخبأ أو ملجأ للفارين أو الهاربين أثناء نزاع بني الحسن(٣) .

---

(١) العصامي : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص٢٢٥ ، عبد الفتاح راوة : أمراء مكة عبر عصور الإسلام ، حاشية ، ص١٥٧ .

(*) الناصر يوسف الأيوبي ابن الملك العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب الشام ، توفي سنة ٦٥٨هـ .
انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٠ .

(٢)

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٣٥ ، ج٤ ، ص١٦١ ، الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٠١ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٧٥ .

وحين وقع الخلاف لثالث مرة بين أبـي نمـي وعمـه ادريـس سـنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م انتصر ادريس على ابن أخيه أبي نمي وطرده من مكة الأمر الذي اضطره إلى التوجه إلى ينبع للاستنجاد بأميرها وكان له مأراد حيث جمع جندا واتجه إلى مكة بعد أربعين يوما من إخراجه من مكة حين وصل أبو نمي التقيا بقواتهما في خليص(*) ، وطعن أبو نمي إدريسا ، وألقاه من على فرسـه وقطع رأسه(١) .

وتشير المصادر أنه في سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م جاء جماز بن شيحه(**) لإخراج أبي نمي من مكة لكنه سرعان مارجع جماز إلى المدينة بعد أن أعطاه أبو نمي مبلغا من المال وخلى بين أبي نمي وبين قتله والده أبي سعد الحسن بن قتادة وهجم أولاد حسن بن قتادة ومنهم ادريس(٢) الذي أصبح صاحب ينبع وفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م كانت هناك وقعة بين أبي نمي صاحب مكة وجماز ابن شيحة صاحب المدينة وإدريس بن حسن بن قتادة صاحب ينبع الذي أعـاد

(*) خليص : تقع شمال مكة على بعد مائة كيلو متر ، وعلى بعد عشرين كيلو مترا من شمال عسفان فيها خضرة وزراعة نخيل .
انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨٥ .

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٦٠ ، ج٣ ، ص٣٧٩ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٨٣ .

(**) جماز بن شيحة بن هاشم بن مهنى الحسيني أمير المدينة وكان بينه وبين بني عمومته آل الحسن خلافات عسكرية ، ولما سويت تعاون مع ابن عمه ادريس وأبي نمي في قتال الأمير مبارز الدين علي بن حسين بن برطاس أميرا للملك المظفر يوسف بن رسول ومبعوثه للاستيلاء على مكة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، ولكن ابن برطاس أوقع بهم هزيمة ثقيلة واستولى على مكة ، وعاود الأشراف هجومهم عليه سنة ٦٥٣هـ وهزم ابن برطاس وأسر وافتدى نفسه بخمسة آلاف دينار وعاد إلى اليمن .
انظر الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص١١٥ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٦٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٠٣-١٠٤ .

التحالف ضده مرة أخرى ولكن أبا نمي انتصر عليهم وأسر أمير ينبع وهـرب جماز صاحب المدينة ولحق بها رغم ماكان معهم من الفرسان أكثر مما كـان مع أبي نمي[١] ، وبعد هذا الانتصار توقف النزاع بين مكة والمدينـة لبضع سنوات ونستدل من تلك الحادثة أن أمراء ينبع أثناء علاقتهم بمكة قد يلجأون إلى بني عمومتهم الحسينيون في المدينة وبذلك تسوء العلاقات بين ينبع ومكة ولكن ذلك لم يحدث إلا في أحوال قليلة .

ولقد تولى جماز بن شيحة أمير المدينة الإمرة في مكة سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ومعه من أمراء ينبع غانم بن ادريس بن حسن بن قتادة أمير ينبـع وقتها ولقد عاون جماز في تحقيق غايته أنه طلب من السـلطان قـلاوون أن يساعده بجيش من مصر ليحارب أبا نمي وفعلا حقق طلبه وكان هذا سببا في انتصار جماز على أبي نمي والسيطرة على مكة ، وفي سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م حين عزم أبو نمي على التوجه إلى مصر لمقابلة الأشرف خليل بـن قلاوون اتجه إلى ينبع أولا ليسافر منها إلى مصر وبينما هو في ينبع علـم أن الأشرف خليل قد قتل فرجع من ينبع إلى مكة بعد أن أعاد إليهـا راجـح بـن إدريس[٢] في مطلع سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م حيث كان راجح مقيما بها بعدمـا حدث في موسم حج ٦٩١هـ/١٢٩٢م[٣] .

وهكذا ظلت العلاقات بين أبي نمي والدولة المملوكية ودية منـذ سـنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م واستمرت إلى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م وكـانت الخطبـة

---

(١) ابن شداد : سيرة الملك الظاهر بيبرس ، ص١٠٣-١٠٤ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٦١ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد المنظمة ، ص٦١١ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٦٤ ، المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٨٠٣-٨٠٤ .

لسلاطين المماليك ولكن الأمر تبدل سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م حيث قطعت الخطبة للمماليك وأقيمت للملك المؤيد داود الرسولي(*) ورفع أبو نمي علم الملك المؤيد على جبل عرفات وأمر بالدعاء له فوق قبة زمزم كما حلف للملك المؤيد بالوفاء والطاعة الأمر الذي أدى إلى تقديمه هبات كثيرة لأبي نمي مثل أربعمائة درهم والكساوي والطيب والمسك والعود والصندل والعنبر والثياب والخلع النفيسة(١) .

وفي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م قام أمير الركب المصري بكتمر الجوكندار(**) بالإنفاق وتجهيز المراكب المشحونة بالغلال حتى توزع على أهالي مكة(٢) مقابل إقامة الخطبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون(***) ، لكن الشريف أبا نمي توفي في العام المقبل سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م بعد أن تولى خمسين عاما ، وقد ظهر الخلاف بين أبنائه قبيل وفاته وهم رميثة وحميضة وعطيفة ، وأبو الغيث ، وقد عهد أبو نمي قبل وفاته لرميثة وحميضة شريكين في إمرة مكة والدعاء لهما فوق قبة زمزم بالمسجد الحرام سنة

(*) هو الملك المؤيد بدر الدين داود بن المظفر يوسف الرسولي ، حكم بلاد اليمن من سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م إلى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٢م .
انظر الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٢٩٩-٤٤٢ .

(١) الخزرجي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٣٥-٣٣٧ .

(**) بكتمر أمير الجوكندار المنصوري ، توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦-١٣١٧م .
انظر ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٤٨٤ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٢٨٩-٢٩٠ .

(***) تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة ثلاث مرات وبذلك كانت فترته أطول الفترات عهدا في عهد دولة المماليك البحرية .
انظر المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٨٧٢ .

٧٠١هـ/١٣٠٢م أي قبيل وفاته بيومين فقط[١] ، ودب الخلاف بين أشراف مكة وقوادها فمال فريق منهم إلى رميثة وحميضة ومال الفريق الآخر إلى عطيفة وأبي الغيث ، وحين أيقن أميرا مكة حميضة ورميثة أن الانقسام والتفاف بعض أشراف وقواد مكة مع أخويهما عطيفة وأبي الغيث يمثل تهديدا لحكمهما بادرا إلى اعتقالهما[٢] ، لكنهما لم يستمرا في الحبس طويلا وهربا إلى ينبع حيث أبناء عمهما أولاد ادريس بن حسن بن قتادة ، ويبدو أن أولاد ادريس بن حسن بن قتادة أصحاب ينبع استقبلا أبا الغيث وعطيفة ، ومدوا لهما يد العون والمساعدة وذلك بسبب توتر العلاقات بينهم وبين أميري مكة حيث أن هناك من أتباع حميضة ورميثة من أشار عليهما بقتل محمد بن ادريس ولكن حميضة رفض ودارت بينهم وقائع كثيرة ، حتى قيل إن هناك أكثر من عشرين مرة التقى فيها الفريقان في شهر واحد بين حميضة ورميثة أميري مكة وبين أبناء ادريس بن حسن بن قتادة أصحاب ينبع[٤] .

كما كانت ينبع محطة أو مركزا لاستقبال القادمين من مصر من السلاطين والأمراء والمبعوثين من قبلهم ، ففي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م وحين حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة استقبله الشريف رميثة في ينبع ومع رميثة حريمه وقواده وعدد من الأشراف دليل الاحتفاء به ومن ثم رافقه إلى مكة[٥] .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٠٣ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٢٣٣-٢٣٤ ، ج٦ ، ص٩٥-٩٦ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢١ ، ص٢٦٧ .

(٣) العيني : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٢١-٤٢٢ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج٣ ، ص١٢٨-١٢٨ .

(٥) المقريزي : الذهب المسبوك ، ص١٠٦-١٠٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص١٠٤-١٠٥ .

وكذلك كانت ينبع مقرا لاستطلاع الأخبار فتترصد بها العيون لاستطلاع أي أنباء تصل من مصر خاصة بمكة ، فقد قام مبارك بن عطيفة بن أبي نمي للاطمئنان على أبيه وعمه وماحدث لهما في القاهرة فأوفد في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م أربعة أشخاص إلى ينبع للاستطلاع من الركب المصري القادم ، إلا أن أمير الركب قبض على هؤلاء الأربعة إلا واحدا هرب إلى مكة وأعلم مبارك ابن عطيفة عن سجن الناصر محمد بن قلاوون لأبي مبارك وتولية عمه رميثة إمرة مكة بدلا منه فرأى مبارك أن من الأفضل له عدم البقاء في مكة ولحق به أخوه مسعود وحين اقترب الركب المصري من مكة غادراها إلى اليمن .

وفي عهد عجلان بن رميثة سنة ٧٥١هـ/١٣٥١م شهدت مكة فترة من اضطراب الأمور فيها فقد حدث خلاف بين مصر واليمن وناصرت مصر عجلان بن رميثة بن أبي نمي بينما أيدت اليمن ثقبة واخوته سند ومغامس إضافة إلى وجود الخلاف الذي كان يؤدي إلى قيام بعض المعارك في مكة سواء قبل الحج أو في أثناء التواجد في منى أي قبل انتهاء مناسك الحج ، فعندما حدث الخلاف بين الأخوين عجلان وثقبة كانت المعارك تنشب بينهما في خيت بني شديد بوادي مر فكانت ينبع ملجأ ومقرا للأشراف وحتى غير الأشراف من الحجاج من الذين ينتهون من مناسك الحج ويرغبون في زيارة المدينة أو الفرار من الاضطرابات فلابد لهم من المرور على ينبع[١] .

ففي عهد عجلان بن رميثة وحين دب الخلاف مع السلطان المجاهد علي بن رسول لأنه حضر إلى مكة مناديا باعادة النفوذ اليمني من جديد وكان معه (ثقبة وسند ومغامس) أشقاء عجلان وأرهب الحجاج وقبض على الحريم في موسم الحج كان لينبع دور كبير حين فتحت صدرها للحجاج الفارين ولجأ

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص١٢١-١٢٢ ، نجم الدين بن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٧٣٧هـ .

إليها كثير منهم دليل ذلك حين توجه طيلان(*) للقضاء على الفتنة ومقاومة النفوذ اليمني وجد الحجاج بينبع[١] .

ولما أراد عجلان وأخوه ثقبة السفر إلى القاهرة تلبية لدعوة الملك السلطان الناصر حسن سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م استقرا بعض الوقت في المدينة ثم واصل عجلان المسير إلى ينبع بينما بقي أخوه ثقبة في المدينة وتخلف عن الرحيل إلى القاهرة حيث خشي من اعتقال السلطان الناصر حسن له لأن له سابقة مع الملك المجاهد علي بن رسول بالتحالف معه ضد المماليك ، وحين علم عجلان بتأخر أخيه رجع إلى مكة واعتذر للسلطان الناصر حسن بحجة استيلاء أخيه ثقبة على الإمرة في مكة وكانت المفاجأة أن سافر ثقبة بعد رجوع عجلان إلى مكة حيث توجه إلى ينبع ثم اتجه إلى مصر وربما لكسب رضا السلطان الناصر حسن عنه وخصوصا حين اعتذر أخوه عجلان عن الذهاب إلى مصر[٢] .

وليظهر أخاه عجلان بمظهر الذي يخالف أوامر السلطان ، أما هو / ثقبة فنفذ أمر السلطان حسن ، ويطلب منه أن يسامحه على الذنب القديم الذي ارتكبه عندما تحالف مع بني رسول ضد المماليك .

وهكذا كانت ينبعا معبرا لآل قتادة في سفرهم إلى مصر والعودة إليها في رحلة الإياب ، ولذا حرصوا على أن تكون في أيديهم ، وكان أميرها ــ في أغلب الأحيان ــ تابعا لهم ، ويعين من قبلهم بتفويض من السلطان المملوكي في مصر .

(*) هو طيلان الجاشنكير أحد أمراء المماليك وهو من كبار موظفي قصر السلطان المملوكي . وهو موظف مهمته أن يذوق الطعام والشراب قبل تقديمه للسلطان .
انظر سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٤٧٦ ، حسن باشا : الفنون ، ص٣٣٤ .

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٤٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٢٣٥ ، المقريزي : السلوك ، ج٣،٢ ، ص٨٣٥ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٧٥٢هـ .

وفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م كان الشريف عجلان في مصر ومعه ولديه أحمد وكبيش وكان ثقبة في مكة يرسل العيون إلى ينبع ينتظر أخبارا من مصر وهل هناك عسكر قادم؟ أو أي خبر عن أخيه عجلان[١] .

وكانت ينبع ملجأ للفارين من مكة حتى ولو لم يكونوا من الأشراف ، لطلب المساعدة والنصر .

ففي سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م حين وقع اشتباك مسلح بين الشريف سند بن رميثة وبين الحامية المملوكية في مكة وانتصر سند[٢] وتم أسر جماعة من المماليك ، ورغبة في إذلالهم نودي عليهم للبيع في مكة بيع الأرقاء وبيعوا بأرخص الأثمان ومنهم الأمير قندس المملوكي أمير الركب الذي عذب عذابا شديدا وبيع بدرهمين فشفع فيه القاضي تقي الدين الحرازي وأعتقه فخرج قندس من مكة هو ومن معه من المماليك حتى إنه اقترض مايوصله إلى ينبع[٣] وخرجوا مقهورين أذلاء على وجوههم الرعب والخوف بعد أن استجاروا بالشريف ثقبة بن رميثة بن أبي نمي وهم في حالة مؤلمة حاملين معهم ماخف من أمتعة على هجن خفاف ومتجهين إلى مصر مع غلمانهم ونسائهم عن طريق ينبع ، وكذلك الأمير قندس الذي سافر مع أهله[٤] وفر أيضا الشريف محمد بن عطيفة مع خروج الحامية المملوكية إلى ينبع متجها إلى مصر خائفا مما حصل بسبب ماكان بين ذوي عطيفة من الصراع والقتل[٥]

وحين يتم عزل أي أمير من الأشراف عن إمارة مكة لايجد أمامه سوى التوجه من مكة إلى ينبع للاستقرار بها بعيدا عن مشاكل الإمرة ، أو طلبا

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٢٨٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٦١٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٢٨٤ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١-٣ ، ص٥٤ ، ابن فهد : مصدر سابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر والجزء ، ص٢٨٥ .

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة .

للمقاومة حتى يعاود الكرة من جديد . ففي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م حين كان عجلان شريكا في إمرة مكة مع أخيه ثقبة والذي كان يعاونهما أخاهما سندا فخرج ثقبة لاستقبال أخيه عجلان ولكن ثقبة توفي بعد أيام قليلة[١] ، هنا حذف عجلان اسم سند الذي كان معاونا لهما حيث أصبح الدعاء له وحده[٢] وأشرك عجلان ابنه أحمد معه ، هنا نجد سند بن رميثة لم يحاول استعادة إمارة مكة له فما كان منه إلا أن غادر مكة متجها إلى ينبع وأقام فيها[٣] .

وعندما أراد حسن بن عجلان التنازل عن إمرة مكة لابنه بركات سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م أدى ذلك إلى استياء ابنه الآخر أحمد من والده وتمييز أخيه بركات عنه مما جعله يفارق مكة متجها إلى ينبع[٤] .

كما قام عجلان بتجريدة عسكرية ضد مدينة حلي بني يعقوب في سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١-١٣٦٢م وأنزل بهم الهزيمة وضم المنطقة إلى إمارة مكة وأخذ الكثير من الأموال التي غنمها مما أدى إلى سخط الأشراف الحسنيين فاعتزلوه وساروا صوب مكة وراسلوا سندا وهو مقيم في ينبع أن يقدموا له العون والمساعدة ضد أخيه عجلان إذا ماحضر إليهم فأجابهم بالقبول ولم يتردد وتوجه من ينبع إلى جدة[٥] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص٦٧-٦٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٧٦٢هـ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٦١٨ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص٦١٨-٦١٩ ، ابن فهد : مصدر سبق ذكره ، حوادث سنة ٧٦٢هـ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص٦٢٠ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٦١٩-٦٢٠ ، ابن فهد : المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٦٣هـ .

وكانت ينبع في أغلب الأوقات تابعة لمكة فحين تولى عجلان سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م اتجه ابنه أحمد إلى ينبع لحرب أميرها ليخضع لهم ويكون تابعا لمكة وقيل لإزالة أمر بوادي الصفراء يسبب ضررا للحاج(١) .

كما كانت ينبع مقرا لأبناء الأشراف الذين لم يكن لهم دور في الإمارة بمكة وملجأ لهم من القتل أو الموت وذلك حين أخبر كبيش أخاه أحمد بن عجلان أنه لابد من اعطاء عنان بن مغامس وحسن بن ثقبة ماأمر به السلطان الملك الظاهر برقوق أو التخلص من عنان فرأى أحمد أن الرأي الأخير هو الأصوب وقرر قتل عنان وكان ذلك سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م وحين علم عنان بن مغامس بعزم أحمد بن عجلان على قتله فر إلى ينبع وتحصن بها ولحق به حسن بن ثقبة(٢) .

وكما ذكر أن ينبع ملتقى الطريق بين مكة ومصر فحين اتجه عنان بن مغامس إلى مصر يسأل السلطان برقوق إمرة مكة وكان ذلك سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م تشفع له كبير مماليكه الأمير بطا الدوادار(*) فأجاب السلطان سؤاله على أن تكون نصف إمرة مكة لابن عجلان والنصف الآخر له ، وحين قدم عنان بن مغامس ومعه شخص تركي من جهة السلطان ليقلده الولاية مرا بينبع وأحسن له أميرها وبير بن مخيار وقابله بحفاوة وطلب من عنان مساعدته في حرب بني إبراهيم وربما وعده بشئ نظير ذلك فقبل عنان

---

(١) ابن فهد : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص٢٨٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص٤٣٢ ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج٢ ، ص٢٤٨ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج٣ ، ص٢٠٨ .

(*) هو سيف الدين بطا بن عبد الله الطولوتمري الظاهري ، ولي نيابة الشام في سنة ٧٩٣هـ/١٣٩١م ٧٩٤هـ/١٣٩١م .

انظر المقريزي : السلوك ، ج٣ ، ص٧٧٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٢٩.

وانتصروا على بني إبراهيم ثم سار عنان إلى مكة[١] .

وحين وصل حسن بن عجلان إلى مكة ومعه التجريدات العسكرية ضد بني الحسن الأشراف المناوئين له وخصوصا أنه عزم على الأخذ بالثأر لأخيه علي الذي قتل وقد اتهم الأشراف من بني الحسن بقتله ووقعت بعض المناوشات بين حسن بن عجلان والأشراف الحسنيين لكن لم تسفر عن أي نتيجة الأمر الذي جعل بني الحسن يقررون الرحيل من مكة إلى ينبع وكان ذلك سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م[٢] .

وفي سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م وبعد أن أشرك حسن بن عجلان ابنه بركات معه في الإمرة أراد أن يشرك ابنه الآخر أحمد حتى لاتدب الغيرة بينهما والخلاف فأرسل الشريف حسن بن عجلان إلى سلطان مصر الناصر فرج بن برقوق يستأذنه في دخول ابنه أحمد شريكا مع ابنه بركات فأجيب بالرضا والقبول[٣] إضافة إلى تعيين حسن بن عجلان السلطنة في الأقطار الحجازية أي ضم حكم المدينة وينبع وخليص والصفراء وأعمالها إلى حكمه بينما يبقى بركات وأحمد أبناء حسن نائبين عن أبيهما في إمرة مكة[٤] .

وقد كانت ينبع المركز الذي يتم فيه تبليغ القرارات لحكام مكة سواء بالتمكين أو العزل .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص٤٣٨ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٣٧٧ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٨٨-٨٩ ، المقريزي : السلوك ، ج٣ ، ص٨٥٥ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٠٥ ، نجم الدين عمر بن فهد : الدر الكمين ، ج٣ ، ص٦٩،٩٨ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ، المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٧٦ ، العيني : عقد الجمان ج٢٥ ، ص٢٨٣ .

ففي سنة ٨١٢هـ/١٤١٠م أوعز بعض التجار – ومنهم جابر بن عبد الله الحراشي وهو أحد أعداء حسن بن عجلان – إلى السلطان الناصر فرج ابن برقوق بعزل حسن بن عجلان وابنيه عن إمرة مكة والأقطار الحجازية فوافق السلطان ، ويبدو أن هذا التاجر كان ذا حظوة لدى السلطان وساق إليه مبررات مقنعة وأرسل مرسوما سريا مع أمير الركب المصري بيسق الشيخي[١] الذي مأن وصل إلى ينبع حتى أعلن عن محتويات المرسوم في عزل حسن وابنيه وتعيين علي بن مبارك بن رميثة إمرة مكة[٢] ، وحين علم حسن بذلك استعد للقتال لكن مالبث سلطان مصر أن عدل عن قراره وأبقاهم في مناصبهم وأمر بعدم التعرض لهم[٣] .

وفي سنة ٨١٥هـ/١٤١٢-١٤١٣م بدأت بوادر التدهور في مكة بعد الاستقرار حين نشب خلاف بين أحمد بن محمد بن عجلان وبين مسعود الصبيحي نائب حسن بن عجلان في جدة وذلك بسبب مماطلته في اعطاء أحمد بن محمد بن عجلان بعض الأموال الأمر الذي أدى إلى خروج أحمد وأخيه رميثة أبناء محمد بن عجلان عن طاعة عمهما حسن بن عجلان واتجها إلى مصر وطلب النجدة من الملك المؤيد شيخ المحمودي لكنه لم يستجب لهما فما كان منهما إلا أن غادرا مصر واتجها عائدين إلى الحجاز وأقاما بينبع فهي المستقر لهم[٤] .

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٢هـ .

(٢) المصدر السابق ، حوادث نفس العام .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص٢٥٣ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢٥ ، ص٣٠٢ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٢هـ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١١٢-١١٣ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٥هـ .

ولم يمكث رميثة بن محمد إلا سنة واحدة حتى خرج منها إلى حـــداء(*) وهو مكان استراتيجي بالنسبة لقربه من مكة ، علاوة على أنه يربط بين مكة وجدة ، وقد أدرك حسن بن عجلان خطورة الموقع الذي أقام فيه ابـــن أخيــه رميثة بن محمد فسار عمه حسن بن عجلان ليخرجه من حداء وحيـــن علـم رميثة بقدوم عمه حسن رحل مرة أخرى إلى ينبع قبل مجئ عمه(١) .

ورغم وجود أمراء في ينبع من بني مخبار في تلك الفترة إلا أن أبنـــاء عجلان حين يدب أي نزاع بينهم ليس لهم سوى ينبـــع والهـروب إليهـا أو الخروج منها في حرب أو شن غارة على أي معارض لهم ، وكان بعض أمراء ينبع وبطون بني الحسن يغيرون ولاءهم كثيرا للعناصر المتحاربة مـــن بنـــي عمومتهم ، فقد قام رميثة من ينبع واتجه إلى وادي نخلة شمال شـــرق مكـــة بجمع المعارضين للشريف حسن بن عجلان وحين علم بقدوم عمه إلـــى وادي نخلة اتجه هو إلى الطائف حيث ناصر بعضا من أهلها هناك(٢) ، وشن بعـــض الغارات الأمر الذي جعل حسن بن عجلان يستعين بأمير ينبع مقبل بن مخبـــار حين أقبل إلى مكة ضد ابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان في نفس الســـنة ٨١٦هـ/١٤١٤م واتجها إلى محل إقامته في وادي نخلة وهو يقـــوم بجمـــع الخصوم ضد عمه وحين علم بقدوم عمه ومقبل بن مخبار أمير ينبـــع اضطـــر إلى الهرب لبلاد اليمن قبل وصولهما إليه(٣) .

ونستدل من ذلك إن ينبع وأميرها كانا مواليين لأمير مكة آنذاك وتقديم المساعدة له مما حرم رميثة من العودة إلى ينبع .

(*) حداء : موضع كان به حصن ونخيل على الطريق بين مكة وجدة .
انظر ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١١٥ ، نجم ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٦هـ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١١٦ ، نجم ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٦هـ .

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١١٧ ، نجم ابن فهد :. اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٦هـ .

كما نجد أن أمير ينبع مرة يناصر أميرمكة حسن بن عجلان ومرة ينضم مع خصوم ابن عجلان ، فقد وجدنا أمير ينبع مقبل بن مخبار يقف إلى جانب حسن ضد ابن أخيه رميثة سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م .

وفي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م ينضم أمير ينبع إلى خصوم حسن من قواد العمرة مما اضطر حسن من ترك المعركة والعودة إلى مكة ورجوع مقبل بن مخبار إلى ينبع(٢) وفي السنة التي تليها توجه رميثة إلى ينبع(٣) بعد فشله في تأليب من انضم إليه سابقا من الأشراف والقواد وأخذ يؤلب ويناصر خصوم أمير ينبع الذين ينازعونه على الإمرة في منطقته ، فما كان من مقبل بن مخبار أمير ينبع إلا أن أرسل إلى أمير مكة حسن بن عجلان وأعلن له الولاء والطاعة وأيقن أنه ليس باستطاعته مقاومة أميرها .

كما كانت ينبع تتدخل إلى جانب أمير مكة كثيرا إذا ماتعرض لهجوم خارجي ، وحين هرب رميثة بن محمد بن عجلان من عمه إلى اليمن قصد سلطانها الملك الناصر أحمد الرسولي الذي أكرم وفادته لأن علاقة سلطان اليمن بالشريف حسن بن عجلان لم تكن على وفاق فقوى ذلك من شأن رميثة بالإضافة إلى خروج عمه حسن من مكة متجها إلى شمال الحجاز ولكنه مالبث أن عادة سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م بمساعدة أمير ينبع مقبل بن مخبار وآل نمي وعسكرا من المماليك(٤) الأمر الذي أدى بعد مناوشات من إحراق باب المعلاه

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٢٩ ، ابن فهد : الدر الكمين ، ص٦٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٤٣ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٣ ، ص٢٦٦ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٤٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨٢٥هـ ، ابن فهد : الدر الكمين ، ص١٠٧ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٢٢ ، المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٣٦٩،٣٧٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨١٩هـ .

وتنقيب سور مكة[١] ، وتدخل الفقهاء والقضاة لوقف القتال وغادر رميثة مكة مرة أخرى إلى اليمن مع أتباعه من الرسوليين[٢] .

وكانت ينبع مقرا لقواد التجريدات المملوكية القادمة إلى مصر ، وأمراء قوافل الحجيج وقادة الحاميات العسكرية بالحجاز وخصوصا حين يستبد الأشراف أمراء مكة ويسرفون في ظلم الرعية ، ويستولون على بضائع التجار ومتحصلاتهم ويرهبون قوافل الحجيج ، يساعدهم على ذلك مايحيطون به أنفسهم من حاشية[٣] فاسدة ، الأمر الذي أدى بأمير الحاج المصر قرقماش الشعباني[*] أن يستدعي الشريف حسن بن عجلان لمحاسبته على بعض مارتكبه في حق الحجاج والتجار ولكنه لم يحضر مما جعله يقصد ينبع وينتظر وصول التجريدات العسكرية من مصر حتى يحارب بها شريف مكة حسن[٤] ويستقر هو في إمرة مكة عوضا عنه[٥] ، وكان ذلك سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص١٠-١١ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٢٣-١٢٤ ، المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٣٧٠-٣٧١ ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج٣ ، ص٩٨ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج٢٥ ، ص٥٤٥ .

(*) هو قرقماش الشعباني الظاهري الناصري وعرف (بقرقماش ضاغ) وهو اسم ولقب تركي ولي الحجوبية الكبرى وإمرة حلب في عهد السلطان برسباي ثم ثار على السلطان جقمق وانهزم وسجن بالاسكندرية وقتل سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م .

انظر : ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٢ ، ص٥٥٤-٥٥٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص٤٦٦-٤٦٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦ ، ص٢١٩-٢٢٠ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٤٧ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢٥ ، ص٥٤٥-٥٤٦ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٥٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٢٦٠-٢٦١ .

وفي سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣-١٤٢٤م أرسل السلطان برسباي تقليدا للشريف علي بن عنان بن مغامس على إمرة مكة وعزل حسن بن عجلان منها هو وابنيه[١] ، ويذكر المقريزي أن السلطان برسباي أشرك الأمير قرقماش مع علي بن عنان في إمرة مكة[٢] .

ثم أرسل السلطان تجريدات عسكرية من مصر إلى الحجاز لمساعدة الشريف علي بن عنان بن مغامس على القيام بالإمرة[٣] ، هنا نجد أن العسكر وصل إلى المحطة (ينبع) مستعدا للدخول إلى مكة بعد أن فارقها الكثير من أنصار حسن بن عجلان ثم دعى لعلي بن عنان بن مغامس وتم تقليده[٤] .

وفي فترة حكم بركات بن حسن سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م لمكة قام بعض الأشراف بنهب بعض المناطق في وادي مر منتهزين فرصة غياب الشريف بركات وأخيه إبراهيم في مصر فقام أخوهم الثالث أبو القاسم والذي كان نائبا عن أخويه في مكة فترة غيابهما إلى دعوة أعوانه وأنصاره لمحاربة الأشراف الذين انهزموا إلى ينبع كالمعتاد[٥] .

ودليل ذلك أيضا حين رجع بركات من مصر وقرئ عهد الولاية له ودعي له سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م[٦] اختلف اخوته على الإمرة وهم أبو القاسم

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٤٧ ، ابن حجر : أبناء الغمر ، ج٣ ، ص٣٢٤ ، ابن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٥٦ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص٦٥٦-٦٦٠ ، ابن حجر : أبناء العمر ، ج٣ ، ص٣٢٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٢٦٣ .

(٤) الفاسي : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٤٧-١٤٨ ، المقريزي : نفس المصدر والجزء ، ص٦٦٣ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ورقة ١٥٤ .

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨٢٩هـ ، ابن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٨٤ .

(٦) ابن فهد : المصدر السابق ، حوادث سنة ٨٢٩هـ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج٢ ، ص٢ .

وإبراهيم واشتد الخلاف بينهم مما أدى إلى الشريف بركات بالاستنجاد بالسلطان برسباي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م الذي أرسل له تجريدة عسكرية من العساكر المماليك[١] تبقى نجدة له مما جعل الأخوين يتجهان إلى ينبع قبل وقوع الاشتباك بينهما[٢] .

وفي عهد إمرة الشريف محمد بن بركات لمكة أراد أن ينشر نفوذه السياسي في شتى الأقطار الحجازية واليمن وكانت حدوده من ينبع شمالا إلى جازان جنوبا[٣] ، أي أن ينبع في كثير من فترات حكم أشراف مكة تحت سيطرة حكامها وتابعة لهم .

ولقد خرج الشريف محمد بن بركات سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦-١٤٦٧م لمحاربة بني إبراهيم[*] في ينبع عندما حاولوا الاستقلال عن إمرة مكة فجهز حملة كبيرة لذلك واتجه إلى ينبع لقتالهم[٤] .

وثمة دليل آخر يؤكد تبعية ينبع لأمراء مكة الأشراف وهو المرسوم الذي قرئ بمكة ٨٩١هـ/١٤٨٦م والذي أكد فيه قايتباي أن جميع ولايات الحجاز منوطة إلى أمير مكة وعلى أمير مكة مهمة نشر الأمن والقضاء على الفتن والاضطرابات[٥] ، مما جعل الشريف محمد بن بركات يولي اهتماما كبيرا بينبع ويحارب بني إبراهيم مرة أخرى الذين كانوا يكثرون من الشغب ونبذ

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٧٨١ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٨٣١هـ .

(٢) ابن فهد : المصدر السابق ، حوادث نفس العام ، ابن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٩١ .

(٣)

(*) بنو إبراهيم : هم بطن من بني مالك من جهينة كانت ديارهم في ينبع النخل وماحولها .
انظر : البلادي : معجم قبائل الحجاز ، ج١ ، ص٩-١٠ ، حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٨-٢٩، ٥٤ .

(٤) ابن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٨ .

(٥) عبد العزيز بن عمر بن فهد : بلوغ القرى ، ص٣١ .

الطاعة حين توجه إليهم في سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وألحق الهزيمة بهم مما جعلهم يرحلون إلى خيبر(١) (*) .

ولما كرهوا المقام بخيبر والانضمام إلى ذويهم رغبوا في الدخول في طاعة شريف مكة سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م ودفعوا له مبلغ ستة آلاف دينار كما التزموا بإرسال مبلغ ثلاثة آلاف دينار إلى مكة سنويا(٢) .

وهكذا استمرت ينبع وأعمالها تحت حكم أشراف مكة وماحولها من بلاد الحجاز(٣) .

ولم يقبل الشريف هزاع بن محمد بن بركات سيطرة أخيه على كل الحجاز وقد كان يطمع في إمرة مكة والاستقلال بها الأمر الذي جعله يفارق أخاه بركات بن محمد بن بركات ويرحل إلى ينبع سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م ومعه أخوه أحمد الملقب بجازان ومن ينبع راسل هزاع السلطان المملوكي وعرض عليه أن يعطيه مبلغا من المال مقابل استقلاله بإمرة مكة لكن السلطان لم يقبل وأرسل للتوسط بين الأخوين قاضيه (بدر الدين بن مزهر) كاتب السر حيث أصلح الأمور بين الطرفين(٤) .

وفي سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م التقى الأمير قانصوه المحمدي مع أمير الحج سودون بن جاني بك العجمي في ينبع وأقنعه أن يلبس هزاع بن محمد

---

(١) عبد العزيز بن عمر بن فهد : بلوغ القرى ، ص٣٢ .

(*) خيبر : موضع شمال المدينة على مسافة ١٧١ كيلو مترا فيه عيون ونخيل .
انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٩-٤١١ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص١٧٠-١٧٨ .

(٢) عبد العزيز بن عمر بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٩١ .

(٣) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٧٨ .

(٤) عبد العزيز بن عمر بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١١١ .

بن بركات الخلعة المرسلة من السلطان الأشرف قانصوه الغوري(*) بمصر بالولاية والخاصة بإمرة مكة فاستجاب له وكان ذلك حقدا من الأمير قانصوه على الشريف بركات بن محمد الذي تجاهله ولم يلتفت إليه حين إقامته في مكة(١) .

لكن في نفس السنة تأكد للشريف هزاع عدم مقاومة أخيه والاحتفاظ بالإمرة لنفسه فما كان منه إلا أن صحب الركب حين مغادرته عن طريق ينبع إلى مصر واستقر هو بينبع وترك إمرة مكة لأخيه بركات بن محمد بن بركات(٢) .

وحين استعاد هزاع بن محمد إمرة مكة لم تدم له طويلا فقد انتقل إلى رحمة الله سنة ٩٠٧هـ/١٥٠٢م وجاء بعهد أخوه جازان في إمرة مكة لكن تبين لجازان أن أهالي مكة ليسوا على استعداد لنصرته وخصوصا عند عودة أخيه بركات إليها فما كان منه إلا أن غادرها إلى ينبع دون أي مقاومة(٣) .

وفي سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م وقعت حادثة نادرة حيث كان أمير ينبع من القوة السياسية بحيث عهد إليه السلطان المملوكي بتعيين أمير مكة أو يتولاها أمير ينبع إن رغب لكن حين وصل ركب الحاج وادي مر استنجد الأمير

(*) تولى الملك الأشرف قانصوه الغوري السلطنة المملوكية من ٩٠٦هـ/١٥٠١م إلى أن قتل في مرج دابق ٩٢٣هـ/١٥١٧م .
انظر ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣-٤ ، ج٥ ، ص٦٨-٧٠ .

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٤٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ج٢ ، ص٦٢٦-٦٢٧ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٨٢ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢١ ، الجزيري : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن ظهيرة القرشي : الجامع اللطيف ، ص١٩٩ .

(٣) عبد العزيز بن عمر بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٢٦ ، يحى بن الحسين : غاية الأماني ، ج٢ ، ص٦٢٨ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج٢ ، ورقة ٢٣ .

اصطمر المملوكي قائد الركب بالشريف بركات بن محمد أمير مكة ضد أخيه جازان وسأله أن يرافقه بعد انتهاء الحج حتى يبتعدوا عن ينبع خشية من جازان المتحالف مع أميرها ، لكن حين وصلوا الدهناء(*) قرب ينبع وقع ماتوقعه الأمير اصطمر حيث تم الاشتباك بين قوات جازان وأمير ينبع وقوات اصطمر والشريف بركات[١] ونزلت بهما الهزيمة ، فأرسل السلطان الغوري إلى يحيى بن سبع أمير ينبع أن يقوم بتولية الشريف جازان إمرة مكة مقابل دفع دية كل من قتل من المماليك قرب ينبع[٢] وهذه أول مرة يتدخل فيها أمير ينبع ويولي أمير مكة من قبل سلطان المماليك فقد كانت ينبع هي التابعة لأمير مكة وأمير مكة يعزل ويعين من يشاء ، لكن الأمر تبدل حين أمر السلطان يحيى بن سبع في تعيين جازان على إمرة مكة وفي سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٣م لكن الشريف بركات تحين فرصة عدم وجود جازان في مكة ودخلها مع عسكره وقام بحفر الخنادق وتحصينها لمقاومة أخيه جازان ، لكن جازان تمكن من دخول مكة منتصرا وفر أخوه بركات إلى اليمن وقد قتل عسكر جازان نفرا كثيرا من أهل مكة ومنهم من هرب إلى مصر[٣] حيث أرسل السلطان الغوري الأمير قيت الرجبي ومعه ستمائة مملوك من المماليك السلطانية[٤] ، وحين علم الشريف بركات خرج لاستقبال أمير المحمل قيت الرجبي لكن أمير المحمل مالبث أن قبض على بركات وإخوته قايتباي وشرف الدين ورميثة وأرسل في

(*) الدهناء : تقع على بعدخمسة وثلاثين كيلو مترا تقريبا شرقي ينبع البحر وكان سكانها بنو إبراهيم. انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٣ ، ص٢٤٢-٢٤٣ .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣٧-٣٨ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٥١-٣٥٢ .

(٢) عبد العزيز بن عمر بن فهد : المصدر السابق ، ورقة ١٣٢ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٣٢-١٣٤ .

(٤) الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٥٣ ، ابن فرج : السلاح والعدة في تاريخ جدة ، مخطوط ورقة ١٥-١٦ .

طلب يحيى بن سبع أمير ينبع حتى يوليه إمرة مكة لكن يحيى بن سبع لم يلب دعوة الأمير قيت الرجبي[١] ورفض الإمارة ، وحين تأزم الموقف وخلا كرسي إمرة مكة رحل الركب إلى ينبع ومعهم الشريف بركات وإخوته مقيدين ومرسلين إلى مصر وحين وصلوا ينبع اتفق الأمير قيت الرجبي مع أهل ينبع على تولية جازان أخو الشريف بركات إمرة مكة[٢] . هذا وقد كان في ينبع أنصار كثيرون للشريف جازان الأمر الذي أدى إلى رجوع جازان إلى إمارة مكة في شهر الحج سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٣م وألبس خلعة الولاية على شرط دفع ستين ألف دينار إلى السلطان تعويضا عما نهبه أتباعه من مخازن مكة ، وكذلك مبلغ آخر قدره خمسون ألف دينار مقابل توليه إمرة مكة[٣] .

كذلك نجد أن الشريف قايتباي تعهد بدفع مبلغ خمسين ألف دينار للسلطان الغوري وثلاثة آلاف دينار لأمير ينبع يحيى بن سبع مقابل تأييده له[٤] ، وهذا دليل على مكانة ينبع وأميرها لمكة بدليل دفع المبالغ المالية مقابل أخذ التأييد منهم والنصرة لشريف مكة . أما بالنسبة للشريف حميضة ابن محمد فلقد اتجه من مكة إلى جدة بعد أن قام بنهبها وتوجه هو وجماعته إلى ينبع[٥] ولكنه أراد الإقامة في مكة فترة من الزمن قبل رحيله إلى اليمن وقام قائد العسكر المملوكي بمكة بتحليف حميضة على عدم القيام بأي اضطراب وإطاعة السلطان قانصوه الغوري[٦] ، لكن حميضة نقض العهد

---

(١) عبد العزيز بن فهد : المصدر السابق ، ص١٣٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٥٤ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج٢ ، ورقة ٢٩ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص٢٨٦ .

(٢) العصامي : مصدر سبق ذكره ، ج٤ ، ص٢٨٦ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٤٥ .

(٥) المصدر السابق ، ورقة ١٤٥ .

(٦) المصدر السابق ، ورقة ١٥٠-١٥١ .

وحنث بيمينه ودار قتال بين الفريقين أدى إلى هزيمته ومن ثم هربه إلى ينبع سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م[١] .

وفي سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م تولى محمد أبي نمي بن بركات مع أبيه شريكا في إمرة مكة وينبع وجدة وسائر الأقطار الحجازية بتقليد من السلطان الغوري ثم قام محمد أبو نمي بتلبية دعوة السلطان نائبا عن أبيه[٢] .

وفي سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م توجه الشريف بركات بن محمد إلى القاهرة حتى يوثق علاقات الود بينهما وحلف للسلطان يمين الولاء والطاعة حين وصوله وبالتالي أقره السلطان في النظر في حكومة جدة وينبع ، أي الإشراف عليها من قبل أمير مكة مقابل دفع الشريف إلى الخزانة السلطانية مبلغا كبيرا من المال[٣] .

وفي سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م فتح السلطان سليم خان الأول سلطان الدولة العثمانية مصر وأراد ضم الحجاز لدولته لكنه نزولا على نصيحة العلماء وأهل الرأي بعدم القتال على أرض الحرمين الشريفين ، بالإضافة إلى ماعرف عن سياسة الشريف بركات من الفهم والحزم مما جعل السلطان سليم يرسل خطابا إلى الشريف بركات ويعلمه باستيلائه على مصر واستدعائه للحضور ليعبر له عن الطاعة[٤] فأرسل الشريف بركات ابنه محمد أبا نمي إلى مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م حيث أكرم السلطان وفادته وأقر أباه بركات في إمرة مكة[٥] .

---

(١) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٥١ ، الجزيري : المصدر السابق ، ص٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٨٧ ، ابن ظهيرة القرشي : الجامع اللطيف ، ص٢٠٠ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج٢ ، ورقة ٣٨-٣٩ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٢٢٦ ، ابن اياس : مصدر سبق ذكره ، ج٤ ، ص٤٥٥

(٥) العصامي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص٣١٨-٣١٩ ، الدحلان : خلاصة الكلام ، ص٥٠ .

وكذلك كانت ينبع تابعة اقتصاديا لمكة ، فحين تمر السفن بميناء ينبع يأخذ أمير مكة المكس المقرر له منها وهذا ماحصل في سنة ٨١٩هـ حين وصلت المراكب الكارمية والجلاب الى ينبع أخذ الشريف حسن بن عجلان المقرر له ولخواصه حيث قدر بمبلغ ثلاثة عشر ألف مثقال[١] ومائتي مثقال وسمح لهم بالسفر من جدة ثم الرجوع إلى ينبع[٢] .

وهكذا كان لينبع علاقة وثيقة مع مكة ، طوال عصر الأشراف ، وكان لها وجود ملحوظ في أغلب أحداثها السياسية والعسكرية .

---

(١) المثقال :اسم لما ثقل سواء كان صغيرا أو كبيرا وصار في عرف الناس اسم على الدينار ، ويرجع إطلاق المثقال على الدينار في العصر الإسلامي إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٦هـ بعد أن أصلح نظام النقد في عهد الدولة الأموية إذ جعل المثقال من وحدة الذهب وقرر أن يكون وزن الدينار مثقال واحد أي ٦٥,٥ حبة أو ٤,٢٥ جرام .

المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص٤٩ ، آمنة جلال ، طرق الحج ومرافقه ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص١٩٧ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٢٢ ، اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٣٠-٥٣١ ، ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ، ص١٨٢ .

المبحث الخامس

علاقة بلاد ينبع بمصر

لبلاد ينبع علاقة وطيدة بمصر حتى في عصور ماقبل الميلاد ــ كما بينا في مقدمة البحث ــ ثم تطورت تلك العلاقة واتضحت آثارها في العصر الإسلامي ، خاصة عندما ضعفت الدولة العباسية وعهدت بولاية الأقاليم إلى حكام الولايات ، الذين استقلوا بحكم إماراتهم ، إما برضا الخلافة ومباركتها لهذا الاستقلال ، وإما رغما عنها ، وماذا يفعل الخليفة والترك يتحكمون في مقدرات الخلافة واختصاصاتها .

وكانت بغداد ترضى بتبعية هزيلة ، أقصاها أن يذكر اسم الخليفة على منابر الولاية ، كما ترسل إليه بعض الأموال من دخل الخراج والجزية كل عام وبدأت العلاقة تزداد قوة بين مصر وينبع في أول دولة مستقلة أقيمت في مصر بعد ذلك ترغب في السيطرة على منطقة الحجاز حتى تظهر أمام العالم بمظهر حامي حمى الحرمين الشريفين . ويتضح ذلك طوال عهود الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وكانت السيطرة على الحجاز تتم بمباركة الخلافة العباسية وموافقتها ، أو رغما عنها ، حدث ذلك في كل عصور هذه الدول المستقلة اللهم إلا في حالة الفاطميين الذين أعلنوا أنفسهم خلفاء على العالم الإسلامي ، وأنهم أحق بالخلافة من العباسيين في بغداد ، والأمويين في الأندلس ، فهم عترة النبي وأحفاد علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ، وسبطي النبي الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين .

ولما أسس ابن طولون دولة ثابتة الأركان(١) أراد أن يقوم بدور فعال في العالم الإسلامي وحاول السيطرة على الحجاز ونازل قوات الموفق أخو الخليفة المعتمد العباسي في مكة(٢) ، ولكن الدائرة دارت على ابن طولون ،

---

(١) د. حسن محمود ، أحمد الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص٤٢٥ ومابعدها .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص١٤٢ .

وهزمت قواته في مكة ولعن على منابر المسجد الحرام[١] وذلك بأمر من الموفق أخو الخليفة ، ورغم الهزيمة فإن محاولة ابن طولون السيطرة على الحجاز دليل على رغبته في أن يظهر أمام العالم الإسلامي بأن الحجاز تحت اشرافه ، ويخطب له على منابره .

ولما انتهت الدولة الطولونية في أوائل القرن الرابع ، قامت الخلافة العباسية بتولية مصر لقائد تركي جديد ، ليحميها من خطر الشيعة الذين أنشأوا لهم دولة قوية في بلاد المغرب وهي الدولة الفاطمية ، فولى الخليفة الراضي العباسي محمد ابن طغج الاخشيدي واليا على مصر سنة ٣٢٣هـ ونجح الوالي الجديد في تكوين دولة مستقلة عرفت في تاريخ مصر بالدولة الاخشيدية ، ونجحت هذه الدولة في السيطرة على الحجاز ، ودخلت مكة والمدينة في يدها ، وخطب للخليفة العباسي ومحمد بن طغج وابنه أنوجور على منابرها[٢] .

ولقد شهدت ينبع أحداث الدولتين الطولونية والاخشيدية حيث كانت الجيوش تأتي من مصر عبر طريق أيله وساحل البحر الأحمر إلى ينبع . وزادت هذه التجريدات العسكرية في عهد الطولونيين وأثناء النزاع مع الموفق العباسي ، كما شهد كل من مينائي الجار وينبع قدوم أعداد من السفن والشاحنات البحرية للإمداد والتموين .

ثم زاد تدخل مصر في شئون الحجاز ، وحكومة الأشراف بداية من عهد الفاطميين ثم تزايد مع ظهور الأيوبيين ، وانتهاء بالعصر المملوكي الذي استمر قرابة ثلاثة قرون ، كما سيتضح في المبحث التالي .

---

(١) الطبري ، ج١١ ، ص٣٢٠ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص٢٨٦ .

لقد ارتبطت ينبع بمصر وقبل أن يقوى ميناؤها ويجهز لاستقبال السفن الكبيرة ، وتوسع أرصفته ، وتطهر مداخله من الشعاب المرجانية فقد كان ميناء الجار أو مايسمى بالبريكة عبارة عن "مدينة محاطة من جهاتها البرية الثلاثة بسور والجهة الرابعة يحدها ويحميها البحر الأحمر وهي خزانة المدينة" كما يصفها البشاري ويجلب الماء إليها من بدر والطعام من مصر[١] .

فارتباط الجار منذ القدم بمصر ارتباط حيوي حيث الأرزاق والأقوات ترسل في أوقات منتظمة لأهل المدينة وخاصة الفقراء منهم والمجاورين وطلاب العلم والمنتظمين للعبادة والدرس ، لكن لم يدم الوضع طويلا فقد ضعف أمر الجار منذ القرن الرابع الهجري بسبب ضعف الحكم في الحجاز واختلال الأمن ، وكثرة النهب والسلب ، وفي نهاية القرن السادس الهجري اضمحل ميناء الجار بسبب ضيق خلجانه ، وعدم تطهير مجراه لفترات طويلة وظهور الشعاب المرجانية في مداخله مما يعوق حركة الملاحة ، وصار حجاج مصر والمغرب يركبون البحر من عيذاب إلى ميناء جدة[٢] حتى سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م حين أراد الأيوبيون أن تكون ينبع هي الميناء الرئيسي للمدينة وقاموا بشراء مناطق كثيرة من الساحل بأربعة آلاف مثقال من أشرافها من بني الحسن ، وبعد مضي تسع سنوات استرده الأشراف لكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام قوة الأيوبيين الذين استرجعوه وبنوا فيه قلعة حصينة تحت حماية جندهم فبذلك أصبحت ينبع الميناء الثاني من موانئ الحجاز بعد ميناء جدة تعبر السفن إليه من مصر محملة بكل مايحتاجه الحجاج ومايراد توزيعه على الفقراء[٣] .

---

(١) البشاري (المقدسي) : أحسن التقاسيم ، ص٨٣ .

(٢) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٩١٧ .

وفي عهد المماليك حكام مصر ، وبلاد الشام والحرمين أصبحت ينبع في مركز حيوي وموقع استراتيجي على الساحل كمنفذ للمدينة وفرضة له حيث تستقبل الكثير من السفن التي تحمل الرجال والمؤن كما ذكرنا ، ومايحتاج إليه أمراء الحج من المهمات والمستلزمات للحرمين الشريفين ولأهل مكة والمدينة إضافة للهدايا التي تحمل إلى حكومات الأشراف في مكة والمدينة وينبع(١) .

كما كان لمصر دور فعال في القضاء على الفتن والخلافات التي تحدث بين الأشراف على تولية الحكم في مكة والمدينة وينبع ، وأحيانا كان السلطان إذا قصد الحج يغتنم تلك الفرصة بالقضاء على النزاع بين الأمراء فيما شجر بينهم(٢) ، أو مقاومة نفوذ أي دولة تحاول السيطرة على الحرمين ، كآل رسول باليمن ، أو دولة المغول بالعراق وغيرها والتي شهد آثارها الحرمان الشريفيان ، فغالبا ماترسل مصر الجند إلى مكة(٣) والمدينة(٤) وينبع(٥) بالإضافة إلى تعيين الأمراء على تلك المناطق(٦) .

وكانت ينبع تابعة لمصر كمكة والمدينة فحين يأتي الركب المصري إلى ينبع ويلتقي مع أميرها الذي يخرج لاستقباله بكامل الزينة ، والخيول ، حينئذ يقوم أمير المحمل المصري بالباسه الخلعة المجهزة له من ملك مصر وينعم

---

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٣٤٥ .

(٢) علي حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص٦٢ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج٤ ، ص٧٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق العربي ، ص٦١ .

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٩١١-٩١٢هـ .

(٦) علي حسن السليمان : المرجع السابق ، ص٦١ .

على أميرها وقاضيها(*) [١] .

وكان من صلاحيات أمير ينبع أن يقوم بدفع مبلغ من المال للعربان الذين يقومون بالحماية لمسيرة الركب المصري عبر الطرق البرية إلى مكة أو المدينة[٢] حيث تعتبر ينبع محطة هامة على طريق الحج المصري وأيضا التجاري ، فقد زادت أهمية ينبع بعد ورود التجارة عبرها إلى بلاد الحجاز ومسير الحجاج عن طريق مينائها ، وأيضا عن طريق البر وليس لحجاج مصر فحسب بل الشام والمغرب أيضا[٣] .

وأما عن علاقة بني قتادة بمصر فقد تطورت بعد وفاة قتادة بن إدريس ووفاة حسن ابنه ، وفي عهد راجح بن قتادة كثرت الأحداث السياسية وخصوصا حين لجأ راجح إلى آل رسول باليمن وتأرجحت علاقة الشريف راجح بين الولاء لمصر واليمن فتارة ينضم لمصر ، وتارة أخرى يغير ولاءه متجها إلى صاحب اليمن في عهد بني رسول فكان له لقاءات مع صاحب مصر الملك الكامل الأيوبي خصوصا أن راجحا لم تكن ولايته مستمرة وإنما كانت متقطعة وكان في خلاف مع إخوته ويرغب فيمن يناصره عليهم فتولى حلى والمخلاف بأمر الملك المسعود ، ثم تولى إمرة مكة وحده بمساعدة صاحب

(*) وكان أمير ينبع يحكم بتفويض من السلطان المملوكي نفسه ، أو بتفويض من شريف مكة شخصيا وقد يفوضه سلطان مصر في ذلك ، وكان لأمير ينبع سلطة مستقلة في أغلب الأحيان فقد يختلف مع حكام مكة فينضم إلى أمراء المدينة ، ويتحالف معهم ، وقد تقع المعارك بينهم كما أشرنا إلى ذلك في بعض المباحث .

(١) العبدري : رحلة العبدري ، ص٦٣ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص١٤١٢ ، البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص٣٦ ، الموسوي : رحلة الشتاء والصيف ، ص٦٧ .

(٢) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٩-٣٠ .

(٣) الحجاز في القرن السابع الهجري على مافي رحلة ابن رشيد الأندلسي ، تحقيق حمد الجاسر ، مجلة العرب ، ج٢ ، ص٤ ، شعبان سنة ١٣٨٥هـ ، تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٦٥م .

اليمن بعد أن حدث الوئام بينهما ، وحصلت مواجهات مع الملك الكامل صاحب مصر سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م بعد موت الملك المسعود واستيلاء علي بن رسول على الحكم في اليمن فانتصر راجح على من كان بمكة من قبل صاحب مصر ولكن لم يدم الأمر طويلا لراجح في حكم مكة حيث انهزم بعد وصول الإمدادات من الملك الكامل ، وأخرج راجح منها[١] .

وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م جمع راجح جمعا كبيرا ودخل مكة منتصرا على قوات الأيوبيين القادمة من مصر وأجلى عنها من كان بها من قبل الملك الكامل الأيوبي وذلك بمساعدة نور الدين عمر بن رسول سلطان اليمن[٢] ، وبعد هزيمة طغتكين قائد القوات الأيوبية اتجه إلى ينبع[٣] إلى أن وصلته الإمدادات من صاحب مصر الملك الكامل حيث كان نائبا عنه وأخرج من مكة منهزما ، ثم قام الملك الكامل باستبدال طغتكين وعين نائبا آخر من قبله على مكة وهو الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لأن طغتكين أساء لأهل مكة بعد انتصاره وأباح لجنده النهب والسلب فيها[٤] حتى يشفي غليله من أهل مكة الذين ناصروا اليمنيين ضده . ولقد أخطأ طغتكين في هذا التصرف الذي قام به مع أهل حرم الله وبذلك استحق ماناله من جزاء .

أما بالنسبة لراجح بن قتادة فقد رجع مرة أخرى بمساعدة صاحب اليمن سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وأخرج منها فخر الدين قائد القوات الأيوبية بغير قتال لكن علاء الدين الزاهدي أرسل من قبل الملك الكامل واستطاع أن يخرج راجح من مكة ويترك ابن مجلي ومعه بعض الفرسان ثم رجع إلى مصر وحدث ذلك

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ص٣٧٣-٣٧٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٢٧٣-٢٧٤ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص٤٩١ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص٢٧٦ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١/١ ، ص٢٤٤ ، الخزرجي : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص٥٠ .

في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣-١٢٣٤م[1] .

ولكن راجحا لم ييأس وعاد مرة أخرى بمساعدة الملك المنصور نور الدين علي بن رسول صاحب اليمن وبذلك نجح في لعبة التوازن بين القوتين المتنافستين للزعامة على الحجاز ، وأخرج عسكر مصر في نفس السنة[2] ، ولكن الملك الكامل أرسل جيشا بقيادة أحد مماليكه المسمى جفريل[*] إلى مكة بسبعمائة فارس وخرج راجح من مكة فارا إلى اليمن سنة ٦٣٢هـ/١٣٣٤م وانتقم الملك الكامل من أنصار راجح الذين أزعجوه كثيرا حيث قبض على من كان يناصره وعلى رأسهم الشهاب بن عبد الله الذي أرسل إلى مصر مقيدا وقيل إنه قتل[3] .

لكن لم يدم نصر العسكر المصري الذي مالبث أن انهزم أمام راجح الذي كان بصحبة الملك المنصور[4] . وفي سنة ٦٣٥هـ/١٣٣٨م مات الملك الكامل وخلفه ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي تابع نفس مسيرة والده في حرب راجح بن قتادة وإخراجه من مكة حيث أرسل سنة ٦٣٧هـ جيشا

---

(١) العليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد بني رسول ، رسالة دكتوراه ، ص٩٢ ، العصامي مصدر سابق ، ج٤ ، ص٢١٧ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٣٧٦ ، المقريزي : السلوك ، ج١/١ ، ص٢٤٤-٢٤٥ .

(*) جفريل : هو عبد الله الكاملي الملقب أسد الدين أمير مكة . انظر العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٣٤ وذكر النويري في كتابه نهاية الأرب جزء ٢٧ حوادث ٦٣٢هـ أن الملك الكامل والد الملك مسعود جهزه إلى مكة في سبعمائة فارس لإخراج راجح بن قتادة فتسلمها في رمضان سنة ٦٣٢هـ ولم يزل عليها حتى بلغه أن الملك المنصور صاحب اليمن قصدها فخرج عنها ومن معه من العسكر العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٣٤ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٣٧٧ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٠ ، المقريزي : السلوك ، ج١/١ ، ص٢٥٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٢٧٨ ، العصامي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص٢١٨ .

كبيرا بعد أن تحالف مع أمير المدينة ضد راجح وأسند قيادة قواته إلى أمير المدينة الشريف شيحة بن قاسم الحسيني ، لكن حين سمع راجح بهذا المخطط عن طريق عيونه فر هو ومن معه من العسكر إلى اليمن ، وكانت ينبع أثناء تلك الفتن تستقبل القوات المصرية القادمة من مصر إلى ميناء ينبع ، كما أصبح الميناء يعج بحركة السفن المبحرة من وإلى مصر تحمل الميرة والمؤن والإمدادات إلى القوات المتحاربة[١] .

وفي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م جهز نور الدين عمر بن رسول صاحب اليمن جيشا كبيرا مع راجح بن قتادة ولما علم الجيش الأيوبي في مكة بهذه الأنباء أرسل قادته إلى الصالح نجم الدين أيوب يطلبون النجدة فأرسل لهم مبارز الدين علي بن الحسين بن برطاس في مائة وخمسين فارسا[٢] لنجدتهم فكتب عسكر صاحب اليمن إلى المنصور نور الدين بن رسول يطلبون النجدة ، ويروى إنه خرج بنفسه ، ولما علم عسكر الأيوبيين بقدومه فروا هاربين بعد أن أحرقوا دار السلطنة بمكة ومافيها من سلاح ومؤن ودخل المنصور صاحب اليمن ومعه راجح في رمضان سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م وعمت الفوضى مدينة ينبع حين بدأ الخلاف بين الأيوبيين والرسوليين حيث قاست المدينة خلالها من توقف الحركة التجارية في الميناء وتعطل الطرق مما كان له أسوأ الأثر على المدينة خاصة ومكة عامة .

كما أسفر النزاع بين أميري مكة ادريس وأبي نمي عن فرض السيطرة المملوكية على إمارة ينبع حيث كانت تابعة لهما فحين دب الخلاف بين أبي

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص٢٧٧-٢٧٨ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٧ ، العصامي : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص٢١٨-٢١٩ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٣١٠ .

نمي وبين عمه ادريس سنة ٦٦٧هـ فأخرجه من الإمارة أخبر أبو نمي صاحب مصر السلطان الظاهر بيبرس بما فعله عمه ادريس وأنه رأى من عمه ميلا لصاحب اليمن فأرسل بيبرس مرسوما سلطانيا إلى أمراء المدينة أن لاينجدوا ادريس واشترط بيبرس على أمير مكة أبي نمي والذي أجابه عليها بالالتزام (ألا يمنع عن مكة زائرا ليلا أو نهارا ولايتعرض لتاجر ولاحاج بظلم وإلغاء المكوس بمكة وإقامة الخطبة للظاهر بيبرس وضرب السكة باسمه) وبذلك كانت إمرة أبي نمي بمفرده ولكن ادريس مالبث أن جمع جمعا ورجع إلى مكة في نفس السنة واصطلح مع أبي نمي وعاد للإمارة معا وإطاعة صاحب مصر[١] .

وفي نفس العام ٦٦٧هـ/١٢٦٩م حج صاحب مصر الملك الظاهر بيبرس ومعه القليل من الأمراء ولم يكن معه غلمان إنما قال الصغير يخدم الكبير ودخل مكة في ثامن ذي الحجة ، ولم يكن بها سوى أمير مكة ومن معه والذي سبق وأن أرسل كتابا إلى الظاهر يهدده فيه ويخاطبه مخاطبة لاتليق بالملوك ، لكن حين علم بقدوم الظاهر طلب أن يسامحه وأعلمه أنه ترك الجباية من الحجاج والتجار والأغنياء والفقراء إلى يوم القيامة إكراما لزيارة بيبرس ، وبذلك استقام أمر الناس في السفر بعد أن انقطع عن مكة من شدة الظلم والخوف في السنين الماضية وبذلك ترك الملك الظاهر في مكة سيرة حسنة تصدق على الفقراء والمحتاجين ، وكسا الكعبة بعد غسيلها[٢] وفتح الباب وأخذ يطلع العامة إلى البيت ويساعدهم وتعلق الجميع به وهو مستبشر وكتب إلى صاحب اليمن أن يخرج لمقاتلة التتار ، كما انضم إلى أمراء مكة

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٩٥ ، ج٣ ، ص٢٧٩ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٧ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، حوادث سنة ٦٦٧هـ ، ريتشارد مورتيل : مرجع سبق ذكره ، ص٥٦

وينبع وخليص ورتب لهم أموالا وغلالا ترسل كل سنة من مصر ، أما أمير المدينة جماز بن شيحه فقد فر منه حين وصوله ويبدو أنه خالف أوامره عندما طلب منه ألا يهاجم مكة مع ادريس عم أبي نمي وقام أميرا مكة وسألا الظاهر أن يترك نائبا في مكة حتى يقويا نفسهما به ويرجعا إليه في كثير من الأمور وأن يكون الحل والعقد بيده فترك الأمير شمس الدين مروان نائب الأمير عز الدين خازندار وبعد انقضاء موسم الحج وفي اليوم الثالث عشر سار الملك الظاهر عن مكة بعد أن أكد إحسانه إلى أميرها وأمير ينبع وخليص وسار يرسل للحرمين الشريفين عشرة آلاف إردب من القمح سنويا(١) . وهذا دليل على التزام أمراء مكة برسوم وسكة صاحب مصر والخطبة له في الحرم وهكذا أكدت زيارة بيبرس قوة مصر وسيطرتها على ينبع والمدينة ومكة واعترفوا بوجود علاقة متميزة تربطهم بمصر ، كما استفاد الظاهر بيبرس من ذلك إذ حقق لنفسه مكانة كبيرة في العالم الإسلامي بإشرافه على الحرمين(٢) .

ويروي الجزيري عن الأمير بكتمر الجوكندار(*) الذي أسدى معروفا لمكة وينبع وجدة حين أنفق في حجته تلك خمسة وثمانين ألف دينار ووزع الغلال القادمة معه في المراكب من دقيق وعسل وزبيب وحلوى ، وقد قدرت مراكبه بسبعة مراكب .

---

(١) ابن الأثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٥٤-٢٥٥ ، ابن فهد : مصدر سابق ، ج٣ ، ص٩٧-٩٨ ، المقريزي : السلوك ، ج١/٢ ، ص٥٨٠-٥٨٢ ، المقريزي : الذهب المسبوك ، ص٨٩-٩٣ ابن أيبك (أبي بكر عبد الله) : كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية) ، ج٨ ص١٤٢ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٣٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص١٤٦ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٢٨٩-٢٩٠ .

(*) الجوكندار : الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبه الكرة . انظر القلشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ص٤٥٨ .

ولقد ازداد اهتمام سلاطين دولة المماليك بموانئ البحر الأحمر عشية سقوط بغداد في يد القوى المغولية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وذلك إثر تدمير طرق التجارة البرية التي كانت تربط مصر وبلاد الشام بأواسط آسيا ، وكذلك استحالة الاتجار مع موانئ جنوب شرق آسيا عن طريق الخليج العربي . وعليه فإن ميناء ينبع(*) حظي كغيره من موانئ البحر الأحمر باهتمام كبير من قبل السلطان الظاهر بيبرس ، وذلك عشية سماحه بإعادة فتح الطريق البري المار بصحراء سيناء والذي كان يربط الأراضي المصرية ببلاد الشام من ناحية والحجاز واليمن من جهة أخرى ، فبعد أن تضاءل خطر الصليبيين على مناطق جنوب الشام أمر السلطان بيبرس سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م بإعادة استخدام هذا الطريق ، الأمر الذي أنعش الحياة الاقتصادية والاجتماعية في جميع الموانئ الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وكذلك المدن والقرى القريبة منها وفي مقدمتها ثغر ينبع ، الذي بات يشكل حلقة وصل هامة تربط الأراضي المصرية عبر هذا الطريق البري بالمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة[1] .

كما يبدو أيضا أن إعادة فتح هذا الطريق ، دفع بيبرس إلى إصدار أمره الشهير إلى كافة نظار الثغور الواقعة على شواطئ البحر الأحمر ، بضرورة حسن معاملة التجار القادمين إليها ، إذ لاشك أن هذا الإجراء ترتب عليه تقاطر القوافل التجارية بشكل كبير على هذه الموانئ ومنها ثغر ينبع .

كما أن اهتمام السلطان بيبرس بموانئ هذا البحر لم يقف عند هذا الحد بل زاد على ذلك بأن أصدر أوامره الصارمة التي نصت على منع غير المسلمين من الاتجار مع موانئ البحر الأحمر . وكما هو معروف فإن هذا المنع تطلب بلاشك إقامة نقاط مراقبة وهيئات إدارية وعسكرية تقوم على تنفيذ

(*) سنتحدث عن الموضوع بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الثالث .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٣٤-١٣٨ .

هذا الحظر ، مما أعطى لميناء ينبع كغيره من موانئ هذا البحر أهمية كـــبرى في ذلك الوقت[١] .

وقد ذهب البعض إلى تفسير رغبة بيبرس في السيطرة على الحرميـــن الشريفين بأنه أراد أن يحقق سيطرته على الطرق التجارية في البحر الأحمـــر ولكنه تظاهر بحماية الحجاج والعناية بهم حتى يحقق هدفه الاقتصـــادي إلـــى جانب هدفه السياسي ، لكن الذي نراه أن مصر قد ارتبطت بالحرمين ارتباطـــا عميقا لفترة طويلة فكان حب الحرمين وحمايتهما هدفا أساسيا لدولة المماليك فهي التي هبت في وجه الصليبيين حينما أرادوا الحرمين بسوء[٢] .

كما أشـــارت بعـض المراجـع إلـى أن ثغـر ينبـع تعـرض سـنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م لحملة صليبية خاطفة قام بها بعض قراصنـــة البحـر مـن الصليبيين فقد توغلوا سرا من خليج العقبة في البحر الأحمر وهاجموا بعضـــا من الموانئ الواقعة على الساحل الشرقي ، وكـــان منهـا سـواكن وعيـذاب وينبع[٣] وقد هزم المماليك المغول وأبعدوا عن الحرمين خطرا هائلا ، ولم يكن الأمر سهلا ولاالطريق ممهدا أمام الظاهر بيبرس لبسط نفوذه على الحرميـــن وإنما لاقى صعوبات منها وجود دولة بني رسول باليمن ، ونشـــوب الصـــراع بين الرسوليين والمماليك حول الحرمين[٤] ، بالإضافة إلى النزاع بين أمـــراء

---

(١) انظر محمد عبد العال أحمد : أثر غزو المغول لبغداد على حركة التجارة البحرية عبر البحر الأحمر والخليج العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري ، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة العلمية التي أعدها بعض أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ ، جامعة الملك سعود بمناسبة مرور ثلاثين عاما على انشاء قسم التاريخ ، ج١ ، ص٢٦٢-٢٦٨،٢٧٥ ، الرياض ، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

(٢) علي حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص٥٩-٦٠ .

(٣) محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، ص٣٧ .

(٤) علي حسين السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٥٩-٦٠ .

مكة والمدينة وأمراء مكة بعضهم البعض[١] .

هذا ولم يستمر الوفاق بين ادريس وابي نمي طويلا ، ففي منتصف سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م اختلفا للمرة الثالثة منذ توليهما إمرة مكة سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وقد تمكن ادريس هذه المرة أيضا من طرد أبي نمي الذي توجه إلى ينبع للاستنجاد بأميرها من آل الحسن . كما نجح السلطان قلاوون في حمل أبي نمي على الاعتراف بحق مصر وحدها في حماية الحرمين الشريفين ، وكان ذلك سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢-١٢٨٣م ، كما أقام نوعا من الولاء له ولأبنائه في مكة بصياغة يمين ولاء حلف فيها أبو نمي بلزوم الطاعة ونشر الأمن والعدل ، وأن يمتثل لمراسيم السلطان (امتثال النائب المستتب) [٣] . ولعل ذلك التصرف من سلاطين المماليك هو الحرص على استباب الأمن في مكة والمدينة وينبع وماكانت قواتهم القادمة إلا لتهدئة الأحوال ونشر العدل في ربوع الحجاز وتأكيد سيادتهم عليه[٤] ، وقد كان تدخلهم في عزل وتولية أمراء تلك البلاد والتقليد الذي يتسلمه كل أمير من هؤلاء السلاطين له قيمته وأهميته حيث يعتبر خير عون له في تدعيم مركزه[٥] .

هذا بالإضافة إلى أن الحجاز كان تتم إتصالاته الخارجية عن طريق سلاطين المماليك بمعنى أن أمراء الحجاز ليس لهم الحق في البت في أي أمر من الأمور مع حكام الدول الأخرى قبل الرجوع إلى سلاطين المماليك ، ففي

---

(١) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، حوادث سنة ٦٦٧هـ ، علي حسين السليمان : مرجع سبق ذكره ص٦٠ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٦٢-٤٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، ص١٩-٢٣ .

(٥) العليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول ، ص١٣٦ .

سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م حين قدم ركب الحج العراقي وكان معه جثمان الإيلخان المغولي أبي سعيد بهادر حتى يدفن في المقبرة التي بناها في المدينة المنورة عند باب الرحمة لم يسمح له أمير المدينة المنورة بالدفن قبل الرجوع إلى سلطان المماليك حتى يأخذوا الإذن منه[١] .

كما أن مصر كانت ملجأ وحماية لكل هارب إليها من ينبع وهذا ماحصل مع ضياء الدين الهندي حين اصطدم مع جماز بن منصور أمير المدينة وهرب إلى ينبع واستجار بأميرها أبا الغيث الذي ساعده على الهرب من ينبع إلى مصر[٢] . واستمرت مصر في تعيين حكام الحجاز حتى في عهد الملك المظفر أبي السعادات أحمد بن المؤيد الذي تولى السلطنة بعدموت والده حين أرسل تشريفا إلى السيد حسن بن عجلان وابنه[٣] وتشريفين لأمير المدينة وينبع بواسطة منفذه ومدبر دولته المقر الأشرفي السيفي نظام الملك ططر[٤] ، ونستدل من ذلك أن ينبع كانت في بعض الفترات منوطة في حكمها بملك مصر كمكة والمدينة يعين من يشاء من بني الحسن بن قتادة سكان العلقمية . ويؤكد ذلك حين أرسل الملك الأشرف صاحب مصرخطاب عتاب وتعظيم يؤكد فيه أن مكة وينبع لاتكون إلا لشريف[٥] .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص٢٧٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص٢٩١-٢٩٢ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٧٩ .

(٤) عز الدين فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

(٥) الفاسي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٤٥-١٤٦ ، عز الدين فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص٣٤٠-٣٤١ .

كما كان صاحب مصر له الحق في تقسيم الإمرة في ينبع ، وهذا ماحصل حين جعل عقيل بن وبير له نصف الإمرة ، ومقبل النصف الآخر سنة ٨٢٥هـ[١] ، كما كان لصاحب مصر الأمر في توجيه أي أوامر بين أمراء مكة وينبع ، ففي سنة ٨٢٦هـ وبعد انقضاء موسم الحج ، وسفر الحجاج بقي الأمير قرقماس بينبع ينتظر الأوامر من صاحب مصر ، والذي أمره بعد ذلك بالتوجه إلى مكة مع عسكر من ينبع ، والصفراء ، والمدينة[٢] ، وفي سنة ٨٢٧هـ جاء عنان بن مغامس بن رميثة بعسكر من مصر الأمر الذي أدى إلى خروج حسن بن عجلان إلى اليمن ، ووصل العسكر مع عنان إلى ينبع ، ثم اتجهوا من ينبع إلى مكة ، وطافوا بالبيت ، وعليه الخلعة وله الإمرة في مكة بدل حسن بن عجلان حيث رافقه قرقماس من ينبع وولاتها ، وحرسوا المراكب القادمة من كيلكوت من الهند عن طريق جدة ، وعاد الجميع إلى مكة[٢] .

ولقد أكد المقريزي في تأريخه على هذه التبعية بقوله أن سلطان مصر والشام ، والحجاز الملك الأشرف برسباي الدقماقي ، لقد كان أمراء ينبع منوطين بحكام مصر كما ذكرنا سابقا ، ففي سنة ٨٢٥هـ نزل الحاج بينبع مع بعض المماليك السلطانية منهم الأمير جانبك الخازندار لحرب أميرها مقبل وكان برفقة الأمراء المماليك عقيل بن وبير وجاء من القاهرة معهم بعد أن خلع السلطان عليه إمرة ينبع ، فصار شريكا لعمه على أن يدفع مالا للدولة ، وحين علم مقبل بذلك خرج إلى إحدى أوديتها القريبة وحين دخل أمراء الحاج إلى ينبع أرسلوا في طلب مقبل بالعودة على أن يكون عقيل شريكا معه ، وأن يكاتب السلطان بذلك ، ورحل الحاج إلى مكة بعد أن وجهوا نجابا إلى السلطان

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٤٤ ، غاية المرام ، ج٢ ، ص٣٩٩ .

(٢) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص١٤٨-١٤٩ ، نفس المصدر والجزء ، ص٣٤٣-٣٤٤ .

بكتبهم ، وبقي عقيل بينبع فدارت معركة بين مقبل وابن أخيه عقيل حيث ظفر مقبل بعقيل ، وقيده ، ومكث هو بينبع إلى أن عاد الحاج من مكة وكانت هناك وقعة بين عقيل ومقبل قتل فيها جماعة من أشراف بني حسن ، وجرح الكثير من العبيد والعربان ، وانهزم مقبل ، وسرق المماليك ماعلى النساء الشريفات وأخذوا من الجمال العدد الكبير ، والفرسان ، وأمتعة كثيرة بالإضافة إلى أموال جزيلة ، وعادوا إلى ينبع بعد أن خلصوه من الأسر ، وولوه أميرا على ينبع ، لكن عاد مقبل ، واحترب مع عقيل فانهزم مقبل ، وقتل جماعة بسبب الطمع وسوء الطبع وكثرة الاختلافات بين الأشراف(١) .

وفي سنة ٨٢٧هـ توجه الأمير مقبل من الحجاز إلى مصر على الرواحل طالبا الدخول في الطاعة ، فخلع عليه ، ثم توجه الأمير مقبل بعد ذلك إلى صفد ، وكما علمنا أن سلطان مصر هو سلطان بلاد الحجاز أيضا ، وله الحق في الولاية والعزل ، ففي سنة ٨٢٧هـ بعد قدوم الحجاج من مكة تأخر الأمير قرقماش الشعباني في ينبع ، وطلب عسكرا حتى يقاتل شريف مكة حسن بن عجلان ليحل محله ، فما كان من سلطان مصر الأشرف برسباي أن أجابه إلى ذلك حيث أرسل علي بن عنان بن مغامس إلى ينبع ، والتقى بالأمير قرقماش وسارا معا إلى مكة ، فدخلاها دون حرب بعد أن تسرك حسن بن عجلان مكة إلى حلى بن يعقوب(٣) ، وفي سنة ٨٢٨هـ قبض على أمير ينبع الشريف مقبل ، ومعه رميثة بن محمد بن عجلان وهما مكبلان بالحديد وسجنا

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٢٣-٦٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٦٢٧ .

(٣) معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٩٧ .

(٤) المقريزي : مصدر سبق ذكره ، ج٤ ، ص٦٥٥-٦٥٦ .

بالإسكندرية ، أما الأمير قرقماش فسار ومن كان معه إلى حلي بن يعقوب لطلب حسن بن عجلان الذي اتجه إلى نجد ، ولم يتقابل مع الأمير قرقماش تنزها عن الشر وبعدا عن الفتنة ، فعاد قرقماش إلى مكة[١] وبقي عقيل بن وبير بن مخبار أميرا لينبع بمفرده[٢] .

وكانت ينبع تساعد مكة في دفع بعض الرسوم لصاحب مصر عن طريق أمير المحمل القادم في موسم الحج ، وهذا ماحصل في سنة ٨٩٦هـ حين تأخر أمير الركب وبعد رحيل الحاج أراد أن يقبض كعادته من صاحب مكة مبلغ خمسة آلاف دينار ، لكن صاحب مكة دفع أربعة آلاف دينار والخامسة أحاله إلى أمير ينبع حتى يدفعها له[٣] .

وفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م قدم صاحب ينبع الشريف دراج ومعه الشريف يحيى بن سبع وكانا محرمين ، وطافا وسعيا وكان سبب مجيئهما أن ابن سبع وابن بذال الإبراهيمي وقفوا للسلطان وأعطوه في ولاية ينبع ثلاثين ألف دينار على أن يسكن المعزول ينبع وألا يعطى المتولى دراج ذلك ويسكنون البلاد فأرسلهم السلطان إلى شريف مكة ليحل الأمر[٤] .

وكان أمير الحج المصري حين قدومه مع الحجاج إلى مكة لابد له من المرور على ينبع عن طريق مينائها ، ثم إلى مكة ، وحين الرجوع إذا أراد الزيارة لمسجد الرسول ﷺ ، ثم يتوجه من المدينة إلى ينبع ، وحين السفر إلى بدر يعود إلى ينبع ، وهذا ماحصل سنة ٨٩٨هـ حين اشتد الغلاء ، وعجز الحجاج من الكراء ، فلقد كان الحجاج حين انتهاء الحج كانوا يدفعون مبالغ

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٨٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص٧٦٤ .

(٣) غاية المرام ، ج٢ ، ص٥٥٣-٥٥٤ .

(٤) الجزيري ، ج١ ، ص٧٦٤-٧٦٧ .

من المال هي عبارة عن كراء ، أو أجرة لصاحب الجمال للمسير من مكة إلى المدينة ، ثم إلى ينبع حيث الميناء ، ففي تلك السنة المذكورة ، وحين اشتد الغلاء اضطر الحجاج عن العدول للزيارة ، والاتجاه إلى ينبع[١] .

وفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م أيضا توفي أمير ينبع الشريف دراج فدب النزاع بين أبنائه وبين أبناء الشريف يحيى بن سبع الذي كان أبوه سبعا من ولاة ينبع الأقدمين ، وكما ذكرنا سابقا أن إمارة ينبع منوطة بالسلطنة نفسها في مصر كمكة والمدينة في أغلب فتراتها التاريخية ، وتوجه يحيى بن سبع إلى مصر طالبا من سلطانها تقليدا لإمرة ينبع مكان والده (سبع) لكن السلطان الأشرف أضاف ينبع لأمير مكة وأعمالها وجميع الحجاز وقد قام هذا الشريف بتعيين أحد أبناء الشريف دراج حيث كانت له مساعدات حين سرقت الحجرة الشريفة وبذلك لم يجب يحيى بن سبع إلىماطلب فرجع من مصر وفي طريقه مر بإحدى محطات الحجاج قرب مصر (عجرود) قام يحيى بإفساد فساقي المياه وذبح الثيران التي تقوم بإخراج الماء من تلك الفساقي ورمى بجثثها في الفساقي[٢] ، كما قام بأعمال شغب كثيرة في المنطقة حتى اضطر شريف مكة إلى توليته إمارة ينبع سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م ولكنه كان غاضبا من الموقف فشق عصا الطاعة وخرج عن الدولة وألب القبائل وانضمت مع يحيى بن سبع كثير من القبائل مناصرة له ، وقامت بضروب الفساد ونهب الحجاج القادمين فيما بين مكة والمدينة[٣] ، وقطعوا الطريق بين مكة وجدة وهددوا جدة بالنهب وعاثوا بمكة الفساد وصودرت بعض أموال التجار ووصل الأمر والبلبلة إلى دار السلطنة في مصر وأمر بإبطال الحج وقبض على كل من له

---

(١) الجزيري : مصدر سابق ، ج١ ، ص٧٦٤-٧٦٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٤٨ ، الجاسر : بلاد ينبع ، ص٥١-٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص٥٤ .

علاقة بيحيى بن سبع أو كاتبه دون علم السلطان ، من ذلك ماحدث للشيخ عبد البر بن الشحنة رئيس القضاة الذين وشوا به عند السلطان أنه راسل الشريف يحيى بن سبع وأخبره أن السلطان يريد القبض عليه ووصل الأذى إلى التجار الينبعيين والحجازيين الذين كانوا يعملون في مصر[١] .

وأخبر الجزيري أن مكة وجدة أصبحتا في خوف شديد وذعر من بني حسن ، وأن الشريف حميضة ويحيى بن سبع في ينبع فقام السلطان بالقبض على بني إبراهيم الذين يعملون في مصر والقصبة والشوارع ومايحملون من العطر واللبان من الباعة على أكتافهم حيث اكتشف إنهم يجمعون سلاحا وزرديات يريدون إرسالها إلى يحيى[٢] .

وهكذا بقي يحيى عشر سنوات يعيث الفساد وساعده على استفحال أمره اختلاف الأشراف في مكة على الإمرة بين بركات بن محمد وأخيه أحمد بن محمد الملقب (بالجازاني) فانضم ابن سبع إلى الجازاني ومن معه من القبائل ودخلوا مكة بعد أن أكملوا من الفساد مابدأوه وتعرضوا وهم في طريقهم لمكة إلى نهب ركب الحج الشامي وقتلوا الرجال وأسروا النساء وقاموا بأعمال شنيعة[٣] ، وكان السبب في ذلك كله عدم تعيين السلطان ليحيى بن سبع إمارة ينبع إضافة إلى أسباب أخرى وهي كما قيل إن الجراكسة في مصر ليس لهم الدراية والمعرفة بسياسة العرب فكل أمير حج جركسي تولى إمارة الحج اندفع مغرورا بقوته وقام بأعمال أثارت النقمة في نفوس العرب[٤] ، ومنها على سبيل المثال حين ذهب أمير الحج المصري (اصطمر)

---

(١) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٥٤-٥٥ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٥٥ ، الجاسر : مرجع سبق ذكره ، نفس الصفحة .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣٦ ، الجاسر : بلاد ينبع ، ص٥٦ .

(٤) الجاسر : مرجع سبق ذكره ، نفس الصفحة .

وهو من الأعاجم في عهد الجراكسة طلب من شريف مكة الخروج مع الحـــاج ومقاتلة أخيه (الجازاني) وحين وصلوا بدرا طلب الجازاني مـــن اصطمـــر أن لايتدخل بينه وبين أخيه شريف مكة وأن يأخذ الحاج ويتجه إلى مصـــر لكـــن اصطمر لم يرد عليه واشتبك الجميع وقتل كثـــيرا مـــن الممـــاليك الســـلطانية وانكسر اصطمر ، الأمر الذي أدى إلى نهب المحمل والتعرض حتى للنساء ولم يبق إلا القليل من الحجاج الذين سافروا من ينبع على مراكب إلى القاهرة وهم في أسوأ حال بعد أن قاسوا الكثير من المشقة[1] .

كما قيل إن يحيى بن سبع أراد التقرب من السلطان وأخذ الصفح منـــه فأرسل رسولا إلى سلطان مصر حتى يسامحه ويثبته في إمرته لكـــن رســـول يحيى بن سبع حين قدم إلى مصر سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م وجد أن السلطان قد أنعم على الشريف هجار بن دراج بإمرة ينبع ، وكان رسول يحيى بـــن ســـبع حاضرا مجلس الإنعام على الشريف هجار ، فقال للسلطان إن هجارا ليس لـــه القدرة ولاالمال على الحكم فما كان من السلطان إلا أن حبس رسول يحيى بن سبع كما رسم بإبطال التوجه إلى الحجاز من مصر والشام وسائر الأعمال حتى الكسوة أرسلت بطريقة (صرر) عن طريق جدة بحرا للحرمين الشـــريفين[2] ، وتناسى السلطان الأمر وظن أن القضية قد حلت حتى زادت الفتن ، كما التفت قبيلة بني إبراهيم مع الجازاني الذي يطلب إمرة مكة وبذلك تعقـــدت الأمـــور وكلفت مصر والحجاز الكثير من الجهد والمال والأرواح .

وقام السلطان بإرسال ثلاث حملات إحداها إلى الحجاز والثانيـــة إلـــى الكرك في الشام والثالثة إلى الهند لمناصرة ملوك المسلمين ومساعدتهم ضـــد

---

(١) ابن إياس : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص١٣٧ ، الجاسر : مرجع سابق ، ص٥٧ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٤٨ ، ابن إياس : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص٨٩ ، الجاسر : مرجع سابق ، ص٥٨ .

البرتغاليين الذين استولوا على بعض سواحلهم ، وفي هذه السنة ٩١١هـ/١٥٠٥م تم تعيين هجار بن دراج أميرا على ينبع ولكنه كان مايزال في مصر ينتظر الأمر بالرحيل إلى ولايته ، وحين وصلت الحملة المتجهة إلى الهند وأخذت طريق ينبع بحرا فوقع اشتباك بين الحملة وبين يحيى بن سبع ودارت عليه الدائرة فهزم وهرب هو وبعض عربانه بعد أن قتل منهم عدد كبير ودارت الدوائر على ينبع حيث أحرقت المنازل بها وكثير من دكاكينها وتشتت العربان سكان ينبع(١) .

وقيل إن تلك الحملة المتجهة إلى الهند كان معها عدد من الآلات الحربية حديثة الصنع التي تحدث قدرا كبيرا من الهدم والتحريق ، وقد أرادت تلك التجريدة العسكرية أن تجربها وفي نفس الوقت كانت الآلات جديدة على العرب لاعهد لهم بها الأمر الذي أدى إلى هروب يحيى بن سبع من أمامها وربما لو قامت تلك التجريدة العسكرية بالقضاء على يحيى بن سبع لما احتاج الأمر إلى إرسال تجريدة أخرى إلى الحجاز وخصوصا إنها مازالت في مصر ولم تسر بعد ووصل خبر تجريدة الهند واتجاهها إلى ينبع وماحدث من اشتباكها مع البدو وماكان من السلطان إلا أن أكمل التجريدة ووجهت إلى الحجاز وكان فيها من المماليك حوالي خمسمائة مملوك ومن الأمراء عشرين أميرا وخرج معها أمير ينبع المعين من قبل مصر هجار بن دراج بدل يحيى بن سبع وخرجت الحملة أو التجريدة ومنع أخذ النساء ووصلت إلى ينبع وانهزم يحيى بن سبع للمرة الثانية وانتصرت العساكر المصرية سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م كما حدثت في نفس السنة وقعة سميت بوقعة السويق من ينبع النخل وانتصروا فيها على يحيى بن سبع مرة ثالثة وقتل فيها من العربان مالايحصى ومن المماليك أيضا عدد ليس بالقليل حيث اشترك فيها ضد

---

(١) ابن إياس : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص٩٥ .

القوات المملوكية أمير خليص (مالك بن رومي) وأمير المدينة وحميضة أخو الجازاني وأحاط بهم العسكر المملوكي ولم ينج إلا القليل بعد قتل وأسر عدد كبير وهروب يحيى بن سبع وأمير المدينة وحميضة أخو الجازاني وغنم المماليك الكثير من الجمال والأغنام وأشياء أخرى مما نهبته العربان من ركب الحاج الشامي والعراقي[١] ورجعت التجريدة العسكرية إلى مصر وهي فرحة بهذا النصر حيث كان مكوثهم في الحجاز ثمانية أشهر وفتحوا درب الحجاز ثانية وكاد الحج أن ينقطع[٢] ، وكان السبب في ذلك تمرد يحيى بن سبع الذي جر الحجاز وراءه إلى مشاكل هو بعيد عنها ، أما هجار بن دراج فاستمر في إمارة ينبع من سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م إلى سنة ٩١٧هـ/١٥١١م ثم جاء بعده ابنه علي بن هجار الذي اتجه إلى مصر طالبا من سلطانها تقليدا مكان أبيه وأجيب إلى ذلك ، أما يحيى بن سبع فقد أرسل ابنه إلى مصر سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م طالبا الأمان والعفو وحين قابل السلطان هناك خلع عليه وقال له لابد من وصول أبيك الينا في مصر وعليه الأمان[٣] ، فحضر يحيى بن سبع إلى القاهرة واجتمع مع السلطان بعد أن ألقى عليه الأمان وألبسه الخلعة وأكرمه ، وصار بذلك حديث الناس واتهم السلطان بأنه أخذ من يحيى بن سبع مالا وضيع حقوق الحجاج[٤].

---

(١) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٧٨٨ ، ابن إياس : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص١١٦ ، الجاسر : مرجع سابق ، ص٦٣ .

(٢) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٧٨٩-٧٩١ ، ابن اياس : مصدر سابق ، نفس الجزء ، ص١١٦ ، الجاسر : مرجع سابق ، ص٦٤ .

(٣) ابن اياس : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٣٠، الجاسر : مرجع سابق ، ص٦٥ .

(٤) ابن اياس : المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص١٣٠، الجاسر : مرجع سابق ، ص٦٦ .

الفصل الثالث

مظاهر النشاط الاقتصادي
في بلاد ينبع

المبحث الأول

عوامل ازدهار النشاط الاقتصادي
في ينبع

يطلق الهمذاني على البحر الأحمر(*) بحر القلزم عند ساحل المدينة[١] ، وتتسم سواحله الشمالية حيث توجد الجار وينبع بكثرة الشعاب المرجانية التي تحيط بمداخل الميناء ، وتوجد بعض التعرجات بشكل عام في منطقة الجار وينبع مما يجعل المنطقة صالحة لوجود الموانئ الطبيعية ، وإن كانت الشعاب المرجانية في كثير من مواضعه تعطل حركة الملاحة نوعا ما[٢] .

ولقد أدرك هذه الحقيقة الجغرافية البطالمة والرومان وتوجد صور لهذه السواحل على خرائطهم القديمة ، فاتخذوا منها موانئ هامة على الساحل الغربي للبحر الأحمر للربط بين شماله وجنوبه في عدن .

واستمر هذا الساحل يمارس دوره التجاري في العصور القديمة حتى زادت أهميته في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بظهور الفاطميين[٣] الذين رغبوا في إحياء وتنشيط الحركة التجارية عبر البحر الأحمر لاسيما وأن منطقة ينبع هي باب المدينة المنورة ، ثم زادت الأهمية بهذا الساحل بصورة كبيرة في العصرين الأيوبي والمماليكي[٤] ، حتى ازدهر النشاط الاقتصادي في ينبع وصارت فرضة الساحل من ناحية الشمال .

وترجع عوامل ازدهاره إلى مايأتي :

(*) البحر الأحمر : شريط ضيق يفصل بين آسيا وأفريقيا ويقع في أخدود تمتد من جنوبي سوريا إلى تنجانيقا بمسافة طولها ١٥٠٠ ميلا وهذه التسمية (البحر الأحمر) اختصار لاسمه القديم فقد كان يسمى بحر الملك الأحمر ، ويمكن أن تكون التسمية بسبب كثرة الشعاب المرجانية الحمراء ، أما المؤرخون المسلمون فقد أطلقوا عليه عدة تسميات .

محمد عبد العال : البحر الأحمر ، ص١٦ .

(١) مختصر تاريخ البلدان ، ص٧٨ ، السيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ، ص٣.

(٢) البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ، مرجع سبق ذكره ، ص٤-٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢١-٢٩ .

(٤) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩ ومابعدها .

١ ــ اضمحلال ميناء الجار وإحياء ميناء ينبع :

تمتد بلاد الحجاز على طول الحدود الغربية بحذاء الساحل الشرقي للبحر الأحمر واتصالها شمالا بالشام وجنوبا باليمن ، علاوة على اتصالها بمصر برا وبحرا ، ونتج عن هذا الموقع الهام نشاط تجاري وحضاري داخل الجزيرة العربية وخارجها ، قامت به مختلف الموانئ البحرية على طول ذلك الساحل ، كما قامت به القوافل التجارية سواء من اليمن أو من داخل الجزيرة العربية[1].

وكانت تلك الموانئ عبر تاريخها الاقتصادي تموج بحركة السفن من عصر ماقبل الميلاد وحتى الآن خاصة السفن المبحرة إليها من بلاد الأحباش ومن الهند والصين ومصر والشام وغيرها ، ومن هذه الموانئ ميناء الجار[2] ويقع على بعد ثلاثة مراحل من المدينة المنورة ، وكان الجار هو ميناء المدينة نظرا لهذا القرب ، ويرجع تاريخه إلى عهود قديمة قبل الإسلام ، فكانت السفن مقلعة منه ومبحرة إليه من كل أركان العالم المعروف آنذاك من مصر والشام والحبشة والصين والهند[3] .

ولما ظهر الإسلام كانت بلاد الأحباش هي مقصد الهجرة الأولى للمسلمين ، وعاملهم ملكها النجاشي معاملة حسنة[4] ، ولما قامت الدولة الإسلامية واتخذ المسلمون المدينة المنورة عاصمة لهم ، قويت العلاقات بين الحبشة والدولة الإسلامية ، فكان ميناء الجار لقربه همزة الوصل بين الدولتين وبمرور الزمن ونظرا لعناية الخلفاء الراشدين به أصبح هو الميناء الرسمي لعاصمة الدولة الإسلامية ، حتى أنه في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

---

(١) علي حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ، ص٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المباركفوري : الرحيق المختوم ، ص١٥ .

الخليفة الثاني رست به عشرون سفينة قادمة بالحنطة من مصر ، ويروى أن عمرا استقبلها بنفسه وطلب من عماله أن يقوموا بتوزيعها على الرعية من ذوي الحاجات[١] .

ولقد أطلق على البحر الأحمر في القرن الثالث الهجري (بحر الجار) [٢] وهذا أبلغ دليل على مدى الشهرة التي وصل إليها هذا الميناء .

ولكن منذ القرن الرابع الهجري ، ومع الضعف المستمر للدولة العباسية وعدم مقدرتها على حماية أركان دولتها بما فيها من المدن والمواني ، قامت في منطقة الحجاز فتن ومنازعات مثلها مثل غيرها من مناطق الأطراف ، بالاضافة إلى أن كلتا الدولتين الأموية والعباسية لم تقوما بتطوير مجتمع الحجاز ، وإيجاد فرص عمل لأهله من سكان البادية ، فظل على حاله من الفقر والتخلف[٣] .

ولذا عمل البدو بالسلب والنهب وقطع الطرق وإرهاب الحجيج تحت ضغط الجوع ، وتمادوا في غيهم فقاموا بمهاجمة المدن والقرى ومنها ميناء الجار الذي تعرض أهله وتجاره للنهب والسرقة والقتل ، واستمر الجار يعاني من فقدان الأمن وعدم الاستقرار حتى استغني عنه وأقفرت مرافقه ، وخربت أرصفته ، نظرا للحالة الأمنية فيه من ناحية[٤] ، ولأن الحجاج المصريين والشوام والمغاربة اتخذوا طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري ، فازداد ضعف ميناء الجار حتى انمحت معالمه[٥] . ويذكر

---

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٨ ومابعدها ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٧ .

(٢) حمد الجاسر : مرجع سبق ذكره ، ص٤٧-٤٨ .

(٣) السباعي : تاريخ مكة ، ص١١٥ ومابعدها .

(٤) حمد الجاسر : مرجع سبق ذكره ، ص٤٩-٥٠ .

(٥) السليمان : النشاط التجاري ، مرجع سبق ذكره ، ص١٠٨ .

حمد الجاسر أن مكانه الآن منطقة تعرف باسم (الرايس) غرب بدر بميل نحــو الشمال ، أو في مكان ميناء (البريكة) الذي لايزال مستعملا[١] .

وبدأ ميناء ينبع يقوى من جديد ، ففي الربع الأول من القــرن الســابع أراد الأيوبيون أن يتخذوا ميناء في شمال البحر الأحمر يكون مينـــاء رســميا للمدينة المنورة ، بعدما حدث لميناء الجار ، حتـــى يمكنهــم إحكــام الحلقــة للسيطرة على البحر الأحمر من الناحيتين الشمالية والجنوبية من ناحية عــدن ولحمايته خاصة وأنهم يظهرون أمام العالم الإسلامي بمظهر حمــاة الحرميــن من ناحية ، ولظهور خطر الصليبيين من ناحية أخرى ، فاشتروا من الأشراف الحسينيين أهل ينبع النخل أرض ساحل الميناء بأربعة آلاف مثقال ، وأقـــاموا فيه بعض الانشاءات[٢] .

كما قاموا بحمايته من هجمات الأعراب وحراسة مرافقه ، فشيدوا قلعة حصينة زودوها بحامية مسلحة من الجند للقيام بأعمال الحراسة والحمايــة ، ومن ذلك التاريخ ٦٢١هـ وإلى بداية القرن العاشر[٣] الهجري كانت ينبع هي الميناء الرئيسي الثاني بالحجاز .

وحرص السلطان الأيوبي الكــامل محمــد (٦١٥-٦٣٦هــ/١٢١٨-١٢٣٨هــ) عند اختياره لينبع ليكون ميناء رئيسا للمدينة المنــورة ، عندمــا اشتراه من الأشراف الحسينيين "بمبلغ أربعــة آلاف مثقــال"[٤] علــى تلافــي السلبيــات التي أدت إلى اندثار ميناء الجار ، ومنها ندرة المياه التـــي كــان تجلب للجار من وادي "يليل" عبر أنابيب من الفخار . إضافة إلـــى أن مينــاء

---

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحات .

(٣) ابن اياس : نشق الأزهار ، ورقة ٨٧ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٢٥١ .

الجار كان عرضة للرياح العاتية والعواصف الرملية الشديدة لأنه لم يكن يمنعه عنها جبال ولاأشجار . فضلا عن تعرض الجار للسيول الجارفة التي تنحدر عليه من وادي الصفراء القريب منها[١] . وعليه فإن ميناء ينبع الذي حل محل الجار كميناء للمدينة المنورة كان ــ على مايبدو ــ في مأمن من خطر تلك العواصف الرملية لكثرة أشجار النخيل فيما يعرف بينبع النخل التي كانت تحمي الميناء من ذلك . كما أن ميناء ينبع يقع في مكان يبعد كثيرا عن الأودية التي تنحدر منها السيول . والأهم من ذلك فإن ميناء ينبع يتمتع بوجود عدد من العيون قريبة منه تمد سكانه بما يحتاجونه من المياه العذبة[٢] .

وعن طريقه أرسلت السفن التي تحمل الميرة والطعام والغلال إلى الحرمين الشريفين بالاضافة إلى كل مايلزم لقوافل الحج والعمرة في رجب ، ثم زادت أهميته في العصر المملوكي حيث كانت ترسل إليه كل المهمات التي تحتاجها المدينة وكل مايحتاجه أمراء الحج ، خاصة بعدما صارت ينبع محطة من محطات طريق الحج[٣] .

٢ ــ <u>تحول طرق التجارة العالمية إلى البحر الأحمر</u> :

كانت الاضطرابات السياسية والحربية أواخر القرن السادس الهجري ــ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي قد عمت الطرق التجارية

---

(١) انظر ضيف الله الزهراني : الجار ميناء ومدينة ، بحث منشور ضمن ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار التي عقدت بمقر اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة في جمادى الآخرة ١٤١٤هـ/نوفمبر ١٩٩٣م ، ص٢٥٢،٢٥٣ .

(٢) انظر حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٣٤ .

(٣) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص٧-٩ .

العالمية بعد غزو المغول(*) لآسيا[١] ، فكان طريق البحر الأحمر أكثر أمنا وأهمية في عبور التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت ينبع إحدى محطات هذا الطريق كما يظهر في الخريطة الملحقة بالبحث ، واستفادت ينبع من مرور هذا الطريق الحيوي عليها ، كما تم التغلب على مشكلة الشعاب المرجانية بالابحار بعيدا عنها ، كما ساعد بناء السفن الضخمة على النجاة من التيارات البحرية المتعارضة[٢] .

ولقد أدرك هذه الحقيقة مؤرخو العصر المملوكي ومنهم ابن اياس[٣] الذي يعبر عن أهمية ينبع أو الينبوع كمحطة من محطات هذا الطريق فيقول عنه : "ميناء كبير ، كثير العمائر والأسواق وله بندر ترد إليه السفن بالغلال كل سنة وله أمير يتبع السلطان" .

(*) المغول : قبائل آسيوية بدوية سكنت سهوب آسيات ـ منطقة منغوليا والتبت وسواحل بحيرة بيكال استطاع أحد زعمائهم وهو جنكيز خان أن يوحدهم ويقودهم في زحف كبير نحو العالم المسكون آنذاك ، وصار في ركابهم الخراب والدمار أينما حلوا ونزلوا فقضوا على امبراطورية الصين والقراخطائيين وقبائل الغز واجتاحوا الدولة الخوارزمية ٦١٨هـ ، ثم زحفوا على خراسان وحطموا مدنها وسقطت تحت سنابك خيولهم مدن المسلمين الكبرى كسمرقند وبخارى والجرجانية والري ومرو ونيسابور وغيرها ، حتى أطبقوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وأخيرا حلت بهم الهزيمة في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م على يد المماليك في مصر .

انظر : رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج١ ، ص٢١١-٢١٤ ، حسين مؤنس : الشرق الإسلامي ص٢٨-٢٩ ، الصياد : المغول في التاريخ ، صفحات متفرقة .

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج١ ، ص٢١٢-٢١٣ ، الصياد : المغول في التاريخ ، ص١٢٠ .

(٢) البحر الأحمر في التاريخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٥ ومابعدها .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص٢٨٣-٢٨٧ ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص٣٤٠-٣٤١ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٥٢-٥٣ .

ويلاحظ أن المغول قد سدوا جميع الطرق التجارية بين الشرق والغرب آنذاك وهي الطرق المارة بوسط آسيا وغربها ، فضلا عن الخليج العربي مما ترك أثر اواضحا في مصير النشاط التجاري العالمي .

ولقد قام المغول في أثناء زحفهم من سهوب آسيا في منغوليا إلى تدمير أهم المراكز التجارية في بلاد ماوراء النهر كبخارى وسمرقند وبلخ ونسا والجرجانية وكذلك أهم مدن خراسان كهراة ومرو ونيسابور ، وكذلك مدن شمال الهند وأفغانستان الحالية كغزنة والري والدينور والدربند (باب الأبواب) وصارت هذه المناطق خرابا بعد أن طبق عليها المغول سياسة الأرض المحروقة ، وتحولت الطرق التجارية عبر آسيا الوسطى إلى مناطق مهجورة من السكان بعد أن كانت معبرا لتجارات الصين والهند إلى آسيا الغربية وأوروبا[١] .

ولقد عبث المغول بكل الطرق التجارية ، فلم يعد الطريق الذي كان يتجه من بغداد إلى الشرق مارا بهمذان والري ونيسابور وهراه ثم ينتهي إلى بخارى وسمرقند والصين صالحا لعبور القوافل بعد اقفار المدن وانتشار قطاع الطرق من التركمان والأكراد وسيطرة جحافل المغول عليه[٢] ، كما أن طريق الروسيا إلى بغداد عابرا شمال بحر قزوين مرورا ببخارى وسمرقند ثم ينتهي إلى بغداد ، قد تعطل هو الاخر بهجوم المغول على أوروبا الشرقية ٦٢٣هـ ، كما أن احتلالهم لبغداد وقضائهم عليها ٦٥٦هـ حرمها من مجئ القوافل من وسط آسيا والصين والهند والروسيا ومصر والشام[٣] ، كما أن

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص٢٨٣-٢٨٧ ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص٣٤٠-٣٤١ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٥٢-٥٣ .

(٢) أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص١٥-١٦ ، السليمان : النشاط التجاري ، ص٥٤ .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٢٠-١٢١ ، حسين مؤنس : ميلاد العصور الوسطى ، ص٢٧١ .

تدمير المغول لمدينة البصرة في جنوب العراق قد أفقدها مكانتها التجارية وحرمها من تجارة الخليج العربي ، كما انقطع الطريق التجاري إلى الشام بعد احتلاله من المغول الذين قضوا على الأيوبيين وأحالوه إلى خراب ودمار[١] .

ومن الواضح أن الطريق الوحيد الذي أصبح آمنا هو طريق البحر الأحمر ومصر التي كانت تحت حكم الدولة المملوكية وأصبح شاطئا البحر الأحمر الشرقي والغربي يذخران بالحياة ويموجان بالحركة ، واستردت ينبع عافيتها وقوتها كميناء كبير يكتمل به هذا الطريق الذي أثرى التجارة العالمية فترة طويلة من الزمان[٢] .

٣ ـ مواسم الحج والعمرة :

يتوافد المسلمون في أشهر الحج من كل عام من جميع بقاع العالم يدفعهم الحنين ، ويحركهم الشوق من كل فج عميق ليؤدوا الفريضة المقدسة ، وليشهدوا منافع لهم ، كما جرت العادة في بداية القرن السابع الهجري على مجئ زوار مصر والمغرب والشام لأداء العمرة كل عام في شهر رجب[٣] .

وكانت ينبع في موسمي الحج والعمرة إحدى محطات طريق الحج ، وتمر منها قوافل الحجيج برئاسة أمير الحج كل عام[٤] ، وترتاح فيها بضعة أيام للتزود بالميرة والطعام والماء ، وكانت السفن تبحرمن الموانئ المصرية إلى أيلة ثم ينزل الحجاج أو المعتمرون إلى البر ويواصلون السير بالقوافل إلى ينبع ومنها إلى المدينة المنورة أو مكة المكرمة .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٢٨٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٣٣٩-٣٤٢ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٥٧ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٢ ، ص٣١٠ .

(٤) الجزيري : درر الفوائد ، ص٩١،١٦٨ .

وكان موسم الحج والعمرة فرصة للتجار المسلمين (المحليين والوافدين من الكارمية(*))[1] لعرض بضائعهم في الأسواق الموسمية الضخمة التي كانت تعقد آنذاك ويتم فيها عقد الصفقات والبيع والشراء على كل المستويات لهذه الجموع الكبيرة من زوار بيت الله ، وكانت ينبع باعتبارها إحدى محطات طريق البحر الأحمر التجاري ، ملتقى المنتجات الصادر والواردة[2] ، كما تحمل إليها عبر دروبها تجارات الداخل من التمور والحيوانات والفواكه وبعض المصنوعات البيئية .

كما كانت تباع في هذه الأسواق جميع منتجات العراق والشام ومصر وفارس واليمن والهند والصين ، من الأحجار الكريمة حتى الفحم الشجري .

وكان كثير من السلاطين وكبار الأمراء وأغنياء[3] التجار يحملون معهم في قوافل حجيجهم خيرات كثيرة وأموال عظيمة ، تنفق على المحتاجين والضعفاء ، وهؤلاء بدورهم يقومون بالانفاق على أنفسهم من الأموال التي تمنح لهم ، كما أن الأغنياء قد يشترون كثيرا من أصناف البضائع وطرحها على الفقراء في سبيل الله .

(*) الكارمية : وجمعه أكارم أو كارمية أي تجار الكارم وهم تجار التوابل والبهار الواردة من الهند عن طريق ثغور اليمن ، فالبحر الأحمر ، وكانوا رجال المال والاقتصاد في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ويقال إن معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (السودان الغربي) فنسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٨٩٩ ، حاشية ٢ ، ج٥ ، ص٨٣٧ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٤٦٤ .

(١) صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثاني ، ص١٩ ، سنة ١٩٥٢م .

(٢) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة ، ص١٣٤ .

(٣) المقريزي : الذهب المسبوك ، ص٨٥-٩٥ .

حتى يقال أن الأمير المملوكي بكتمر الجوكندار أنفق في حجته ٨٥ ألف دينار وحمل معه كميات ضخمة من العسل والدقيق والزبيب والحلوى حيث وزعها على الحجاج في ينبع ومكة وجدة[١] .

ولقد كانت ينبع إحدى محطات طريق الحج البري ، ومن المعلوم أن طرق الحج هي نفسها طرق القوافل التجارية حتى تضمن الأمن والحراسة مع أمراء الحج ، وكان هذا الطريق مزدهرا من أواخر عهد الأيوبيين وله أثره في النشاط التجاري وقد توقف خلال الحروب الصليبية وتحول التجار إلى طريق آخر من القاهرة عبر النيل إلى قوص فيعذاب والقصير برا ثم عبر البحر الأحمر إلى مواني الحجاز .

ولقد اهتم سلاطين المماليك بهذا الطريق ، رعاية للحجاج وراحة للتجار وأنشأوا عليه كثيرا من المرافق والخدمات للانسان والحيوان وحفروا الآبار وبنوا السواقي والقلاع والحصون والأسواق[٢] .

ويبدأ هذا الطريق قرب القاهرة عند مكان يسمى بركة الحاج ومنها إلى السويس مرورا بعجرود فنخل وهما من أهم محطات الطريق في سيناء ، ثم إلى أيلة (العقبة) ملتقى طريقي الشام ومصر وفيها يجتمع حجاج مصر والشام والمغرب ثم يمر بساحل تيماء ثم إلى بر مدين فعينونه فالمويلح فالأزلم فالوجه فالحوراء فنبط ويتجه الطريق إلى ينبع[*] في خمس مراحل تستغرق ثلاثةأيام[٣]

---

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٩٠ .

(٢) محمود عبد الله : طرق الحج والتجارة العربية في العصر الإسلامي ، مجلة الفيصل ، العدد ١٨ ، ص٥٩ .

(*) وفي منزل الحج "ينبع" يقول أحد الشعراء لما وصل إليها وشاهد مافيها من خيرات :

وكدنا أن نطير هوى وشوقا ... إلى نحو المدينة والرسول
سقى الله الحجاز وينبعيه ... وماحويا من الخير المهول
فينبع بحرهم نفع البرايا ... وينبع نخلهم مثوى الأفول

(٣) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، صفحات متفرقة .

وكان المماليك يرسلون السفن حاملة الحنطة وكل مايحتاجه الحجيج ، وكانت أسواق ينبع في غاية الحيوية والنشاط التجاري في موسم الحج بفضل عناية المماليك بها ، ثم يستمر الطريق إلى الدهناء فبدر ومنها إلى رابغ ثم يواصلون الرحلة إلى خليص فبطن مر ، فعسفان ثم يصل الحجيج إلى مكة المكرمة خاتمة المطاف[١] .

ولقد زادت شهرة هذا الطريق حين سلكته شجر الدر زوجة الصالح أيوب سنة ٦٤٨هـ متجهة إلى مكة للحج ، ثم كانت زيارة الظاهر بيبرس البندقداري الناصري تتويجا لأهمية هذا الطريق ومعه كسوة الكعبة عندما وصل إلى مكة في يوم ٨ ذي الحجة (يوم التروية) سنة ٦٦٠هـ .

وبالاضافة إلى هذا الطريق البري إلى مكة ، فهناك طريق ينبع المدينة[٢] وهو أقصر من هذا الطريق ويسلكه الحجاج والمعتمرون والزوار لمدينة الرسول ﷺ ولزيارة مسجده المبارك ، وبالاضافة إلى هذه الطرق البرية كان طريق البحر حيث تبحر السفن من المواني المصرية إلى جدة أو ينبع .

وحتى تحافظ ينبع على تأمين الطرق البرية وحماية الحجاج والتجار كانت تقوم بدفع رواتب للعربان حتى منتصف القرن التاسع ، وذلك تشجيعا وتأمينا للازدهار التجاري .

---

(١) انظر وصف الطريق ومحطاته :
المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٩٦ ، اليعقوبي : البلدان ، ص٣٤٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ، ص٣١٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٦٠ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٥٢ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٨٩ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ج١ , ص١٩ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥١ .

وتحفظ لنا النصوص بيانا بقيمة تلك الأموال التي توزع على البدو تهدئة لهم وضمانا لعدم مهاجمتهم للقوافل(*) ، وبذلك كان موسم الحج من عومل وأسباب ازدهار ينبع تجاريا واقتصاديا .

كما أن أهلها كانوا يكرمون الحجاج والتجار ويرحبون بهم مدة اقامتهم في رحلتي الذهاب والإياب التي تستمر أكثر من سبعة أيام فتزدهر فيها الحركة الاقتصادية وتزويد القوة الشرائية ، ولعل هذا النص يصور لنا حركة التجارة والبيع والشراء كما يصورها بعض من وصفوا طريق الحج البري فيقول : "ثم الرحيل إلى منزلة تعرف بالينبوع ، وهي منزلة متسعة يوجد فيها غالب مايحتاجه الإنسان من اللبن والتمر والزبد والعجوة والبطيخ الأصفر والمزروعات والمرعى والخضار والباذنجان واللب والريحان والطيب والبخور يشتريها منها الحجاج وفيها يدبغ الأديم ، ويودع الحجاج فيها الودائع ، وفيها عيون ماء وحدائق وينصب فيها سوق كبير للسوقة ، وآخر للتجارة ، وأهلها أجواد ، يحبون الحجاج ويفرحون بهم" .

٤ ـ عناية سلاطين الأيوبيين والمماليك بينبع :

كانت عناية سلاطين الدولتين الأيوبية والمملوكية من أبرز العوامل التي ساعدت على ازدهار اقتصاد ينبع ، ولقد حققت كلا الدولتين مكاسب دينية وسياسية واقتصادية بمد سلطاتهما على إقليم الحجاز ومدنه فلقد صارتا إمام العالم الإسلامي بعد اعلان الخطبة لها في مكة والمدينة ، حماة الحرمين الشريفين ، واكتسبتا من وراء ذلك شرعية دولية(١) ، وصارت لهما مكانة

(*) وهي على النحو التالي : ٦٥ دينار للأحامدة من بلى ، ٥٨ لبني عطية ، ٤٠ لبني عقبة ، ١٧ لبني حسان أصحاب نبط ، ٢٠ دينارا لبني زبيد . حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٩-٣٠ .

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٤٣٦-٤٥٦ .

سياسية بين الدول ، بإبعاد أي دولة تطمح في السيطرة على الحجاز حيث وقف الأيوبيون ومن بعدهم المماليك أمام أطماع بني رسول ثم الحفصيين ومغول العراق بعد ذلك في العهد المملوكي .

كما حقق كلا من الأيوبيين والمماليك مكاسب اقتصادية بالسيطرة على المنافذ البحرية على ساحل الحجاز من ناحية ولسيطرتهم على الطرق البرية من ناحية أخرى[١] .

ولذا قامت كلتا الدولتين بالعناية بموانئ البحر الأحمر ومنها ينبع فعملتا على العناية بالميناء وتحسينه وتوسعته ، وبناء المنشآت البحرية والمخازن والمراكز التجارية والخانات والفنادق ، وعينت المحتسبين ، ولم تغالا في فرض المكوس حتى تشجع تجارة الصادر والوارد إلى ينبع ، وقامتا بتعيين حاكم لها من أشراف آل الحسن يعين بقرار صادر منها ـ في أغلب الأحيان ـ كما قامت الدولة الأيوبية بانشاء الميناء نفسه ودفعت من خزانة مصر ثمنه لآل الحسن وزوته بالحاميات[٢] ، وبنت فيه قلعة لسكن الجند .

وكانت تفرض من المكوس التي تجبى على التجارة بعض الأموال التي تمنح للعربان حتى يضمنا سلامة الطرق البرية وعدم مهاجمة السفن أو أرصفة الميناء ، ووفرت العمال المهرة البحريين لإصلاح أعطال السفن حتى أن السفن كانت ترفض أن يجري إصلاح العطل في مكة وتبحر إلى ينبع لعناية عمالها وقلة مايأخذونه من أجر الإصلاح[٣] .

ويبدو أن سلاطين المماليك أنشأوا في ميناء ينبع حوضا لبناء السفن على اختلاف أنواعها سواء المدني منها أو الحربي . واللافت للنظر أن ميناء

---

(١) سليمان عطية : سياسة المماليك في البحر الأحمر ، ص٢٦ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥١ .

(٣) سعاد الحسن : النشاط التجاري ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص٨٩ .

ينبع كغيره من موانئ البحر الأحمر اشتهر بطريقة فريدة في بناء السفن التي كانت تمخر عباب هذا البحر ، وذلك باستخدام الحبال بدلا من المسامير . وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دعت إلى ذلك . فبعضم يعزو ذلك إلى أسطورة مفادها بأن جبال البحر تحوي صخورا مغناطيسية تحت سطح الماء تجذب السفن المبنية بواسطة المسامير إلى قاع البحر ، ولكن يبدو لنا أن هذه الأسطورة بعيدة عن الصحة إذ الكثير من السفن المبنية بواسطة المسامير تسير فيه دون أن تتعرض لأي أذى أو عطب . بينما يرى فريق ثان أن استعمال حبال الليف في صنع مراكب البحر الأحمر هو بهدف حماية هذه المراكب من تأثير الملوحة العالية التي تؤدي إلى تآكل المسامير الحديدية . في حين يرى فريق ثالث ولعله الأقرب إلى الحقيقة أن ذلك يعود إلى أن السفن المخيطة بحبال الليف تكون أقل عرضة للكسر من المراكب المصنوعة بالمسامير إذا ماصطدمت هذه المراكب بالشعب المرجانية التي تكثر في مياه البحر الأحمر . فضلا عن كونها تستطيع الرسو بسهولة ودون خطورة على الشواطئ الصخرية المنتشرة على شواطئ هذا البحر وجزره . هذا إضافة إلى ماذكره البعض من أن صناعة المسامير أو استيرادها من الخارج كان يتطلب نفقات كثيرة وباهظة ، في حين أن خشب جوز الهند وأليافه ودهن سمك القرش وغير ذلك من المواد اللازمة لخياطة المراكب كانت متوفرة في ثغور هذا البحر بأبخس الأثمان(١) .

وحرص المماليك على عقد المعاهدات التجارية مع الدول لتشجيع حركة التجارة إلى ينبع وغيرها من موانئ البحر الأحمر ، وكانت تعاقب بحزم وسرعة أي أمير لينبع أو محتسب يقوم بسرقة التجار أو اغتصاب أي حمولة من أي سفينة عابرة ، أو يفرط في تنفيذ التعليمات والقوانين التي يفرضها

---

(١) انظر أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص٢٥٨ .

المماليك ، كما عملوا على تأمين الملاحة وحماية السفن الواصلة إلى ميناء ينبع بالقضاء على القرصنة البحرية وتشجيع تجار الهند والصين على الإبحار إليه وإلى موانئ البحر الأحمر .

وقد حفظت لنا المصادر بعض المراسيم التي كان يصدرها سلاطين المماليك لتحميس التجار وتشجيعهم على الإبحار نحو موانئ البحر الأحمر مثل جدة وينبع والحوراء وعيذاب والسويس وغيرها ، ومن أهمها مرسوم السلطان قلاوون في أول عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٨٢هـ حيث يقول "ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ويحضر إلى بلاد لايحتاج ساكنها إلى ميرة ولاذخيرة لأنها في الدنيا جنة عدن لمن فطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها والقدوم عليها ...الخ"[١] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٣٣٩-٣٤٣ ، أحمد مختار العبادي بالاشتراك : تاريخ البحرية ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

المبحث الثاني

التجارة البحرية والبرية

يخيل لمن يقرأ عن تاريخ ينبع في المصادر والمراجع القليلة المتداولة بين أيدينا في الفترة التي نؤرخ لها بأنها مجرد قرية من قرى الجزيرة لم تنل حظها بالنصيب الأوفى من الأرض ، أو الشريط الساحلي ، أو أنها مجرد مدينة صغيرة ساحلية على شاطئ البحر الأحمر ، لاتحظى بمكانة استراتيجية تهيئ لها موقعا تجاريا ممتازا ، وفي الحقيقة أن هذا التصور يجانب الواقع في كثير من الأحوال ، إذ أنها مدينة متسعة الأرجاء ، كانت في تلك الفترة من أشهر المدن ، والموانئ في الجزيرة العربية على شاطئ البحر الأحمر .

ولاينبغي أن نغفل عن أهمية الموقع الذي هيأ لينبع أن تكون منفذ الجزيرة العربية إلى الغرب ، ومدخلا هاما لجزء كبير من التجارة البحرية ، ولانبالغ إذا اعتبرناها مدخلا أيضا لأفكاره ، وثقافاته .

وتعتبر مدينة ينبع من مدن الجزيرة العربية الهامة التي تقع على الساحل الغربي الذي يمتد من العقبة شمالا حتى حدود اليمن جنوبا ويبلغ طوله ١١٠٠ ميل وبه كثير من الخلجان والرؤوس ، ويشمل كثيرا من الموانئ الطبيعية ، وتحتضن ينبع خليج رضوى التاريخي الذي حباه الله بالشواطئ الرملية الناعمة ، وجمال الطبيعة .

وأصبح ميناء ينبع مرفأ طبيعيا ممتازا للتجارة البحرية ، والبرية ، ومما لاشك فيه أن التجارة جزء من المهارات البشرية لسكان الجزيرة العربية الذين جرى في عروقهم حبها حتى أصبحت جزءا في تكوينهم منذ آلاف السنين وحتى الآن ، فلقد عرفوا النشاط التجاري قبل ظهور الإسلام بحقبة طويلة .

وتشير المصادر اليونانية التي دونها هيرودوت وسترابون[١] إلى أن العرب كانوا وسطاء للتجارة الدولية بين الإقليم الموسمي ، وبلاد البحر المتوسط ، كما قاموا بنقل السلع بين الإقليم المداري الأفريقي ، وجنوب شبه الجزيرة من ناحية ، وبلاد مابين النهرين ، ودول شرق المتوسط من ناحية البحر .

وذاع صيتهم في العالم القديم ، مما أطمع الرومان فيهم الذين حاولوا القضاء على النشاط التجاري للعرب بتحويل طرق التجارة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، ليضربوا الوساطة التجارية العربية في الصميم .

ونجح العرب في الالتفاف حول المؤامرة الرومانية ، واستمروا في النشاط التجاري خاصة وأن لهم أسطول تجاري ينقل إلى سواحلهم إنتاج الساحل الشرقي الإفريقي ، وفي الوقت نفسه يملكون الإبل التي كونوا بها أسطولا بريا لنقل المتاجر عبر الحجاز إلى الشام ، وكانت هذه إحدى الرحلات التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[٢] .

وكانت ينبع محطة تجارية هامة إلى جانب ميناء الجار التي تمارس نشاطها في استقبال السفن ، ولايمنع وجود ميناء الجار من أن ينبع كان لها نشاط تجاري ، وكذلك ميناء جدة فيما بعد ، كما صارت محطة للقوافل التجارية التي تحمل إليها المنتوجات من الداخل ، وصارت تنافس المدن الداخلية والساحلية الهامة للتجارة قبل الإسلام وبعده .

---

(١) محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، ج٢ ، ص٤٣٨ .

(٢) سورة قريش : آية (٢) .

كالجار ، وجدة(*) ، وعدن(**) ، ودمشق ، وحوران ، وبر أيوب ، ومعان(***) ، وعمان .

وسنحاول في هذا المبحث أن نشير إلى أن أهمية الدور التجاري الذي قامت به ينبع في إنعاش الحركة التجارية الداخلية ، والخارجية ، والقيام بدور الوسيط التجاري في الحجاز خاصة والجزيرة العربية العامة .

لقد اكتسبت ينبع نشاطها التجاري البحري منذ أقدم العصور ، وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي على ساحل البحر الأحمر مما جعلها نقطة اتصال بين مدن الحجاز المقدسة ، ومصر ، وبلاد الشام الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة وانتعاشها لاسيما في أشهر الحج حيث يتم استقبال الحجاج عن طريق مينائها سواء القادمين من مصر ، أو شمال إفريقيا ، وبرع أهلها في العمل التجاري حيث انتشرت الأسواق في وسط المدينة ، وبالقرب من الميناء ، والمناطق المجاورة له حيث المستودعات وأماكن الاستراحات(١) .

وقد امتلكت ينبع العديد من السفن التي تجوب البحر نقلا للحجاج ، أو البضائع التجارية مما أدى إلى استقرار نفر من أهل ينبع في السويس ،

(*) جدة : ساحل مكة المعظمة والجدة من البحر ماولي النهر ، جعلها عثمان بن عفان ميناء لمكة بدلا من الشعيبة واكتسب الميناء مع الوقت أهمية سياسية واقتصادية . ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص٥١ .

(**) عدن : أشهر ميناء جنوب الجزيرة وأهم الموانئ اليمنية ، ويطلق اسمها على الخليج وأول من نزلها عدن بن سبأ فعرفت به ، وهي من أهم أسواق العرب حتى القرن السادس وسميت دهليز الصين ومعدن التجارات . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٩ .

(***) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من ناحية البلقاء وهي أول بلاد الحجاز ولها عيون جارية وهي من أهم أسواق الحجيج . ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٥٣ .

(١) الرويثي ، الموانئ السعودية على البحر الأحمر ، ص٢٣٧-٢٣٨ .

والقاهرة ، وقنا وغيرها من مدن الصعيد(*) بمصر العليا ، ليعملوا كمندوبين لسفنهم في خارج الحجاز أو في العمل على خدمة الحجاج المصريين والمغاربة في ميناء عيذاب(**) ، والطور ، أو مع مواطنيهم من أهل ينبع بصفة خاصة على طول ساحل البحر الأحمر حتى المويلح حيث يجلبون الماشية ، والعسل ، وغيرها من المنتوجات[1] فغدت بذلك مخزنا لإعاشة سكان المدينة لسد حاجاتهم[2] ، وكان الأغلب على تجارة ينبع الأساسية في أول الأمر أنها كانت تعتمد على المؤن لحاجة سكانها خاصة والسفن التي تبحر إليها عامة ، لأن ينبع لم يكن لديها آنذاك استعداد لتخزين كميات كبيرة من البضائع الاستهلاكية والحيوية لأنها لاتملك مخازن كبيرة لخزنها إلا بقدر حاجة المدينة[3] قبل تحويل الميناء إلى مرفأ كبير لاستقبال السفن .

ولقد استخدم ميناء ينبع استخداما بحريا واسعا في العصور القديمة بدليل وجوده في الرسوم والخرائط الرومانية كما ذكرنا في تقديمنا للبحث ، ولكن يبدو أنه أهمل شأنه فترة من الزمن قبل أن يعود إليه ازدهاره مرة أخرى في مستهل القرن السابع الهجري .

(*) الصعيد : بالفتح ثم الكسر - وجه الأرض - وهو إقليم بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها قنا ، اخميم ، أسيوط وكان يوجد به إلى عهد ياقوت ٩٥٧ قرية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٠٨ .

(**) عيذاب : ثغر تجاري يقع على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر بمصر ويقابل ميناء جدة وكانت مركزا لتجمع تجارة الشرق والحجاج ، وسلع الحبشة واليمن التي تصلها بحرا وحرارتها شديدة اشتهرت تجاريا من القرن الخامس حتى الثامن الهجري ، ولكنها ضعفت بعد تحول التجارة إلى العقبة ، أغلب سكانها سود من الأفارقة وبيوتها بسيطة .

ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٥١ ، ابن جبير : الرحلة ، ص٦٣ .

(١) بوركهارت : رحلات في شبه الجزيرة العربية ، ص٣٨٤ .

(٢) د. أحمد الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص٣١ .

(٣) بوركهارت : رحلات في شبه الجزيرة العربية ، ص٣٨٥ .

وكانت بعض الموانئ على ساحل البحر الأحمر تؤدي دورها في خدمة تجارة الجزيرة العربية ، وحجاجها قبل عودة الحركة البحرية إلى ميناء ينبع كميناء الجار الذي يعتبر ثغر المدينة المنورة أيضا على البحر(١) ، ويقع على ثلاثة مراحل منها وهو أصغر مساحة من ميناء جدة(٢) لكنه قريب منها(٣) وكانت السفن تقصد هذا الميناء في العهود التي سبقت الإسلام ، وبعد ظهور الإسلام وحتى القرن السابع الهجري أصبغ ثغرا للمدينة(*) ، والميناء الرئيسي لها ، وذلك لاهتمام المسلمين به حيث كانت ترسو فيه السفن المحملة بالغلال والبضائع المبحرة من مصر إلى الحجاز ، وبدأ ميناء الجار في النمو والازدهار في القرن الثالث الهجري حتى أطلق على البحر الأحمر اسم بحر الجار(٤) . وتشير المصادر إلى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر أرسل إلى المدينة عن طريق ميناء الجار ٢٠ مركبا بها ٣ آلاف اردب من القمح لكارثة عام الرمادة .

كما أبحرت إليه السفن من آسيا وشرق أفريقيا ومن الصين ، والهند ، والحبشة(٥) ، وهكذا ظلت الجار كما ذكر الإدريسي "ثغرا ومدينة عامرة والمراكب إليها قاصدة ومقلعة"(٦) .

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص١١ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ج١ ، ص٣١ ، الاصطخري : المسالك والممالك ، ص١٩ .

(٣) ابن المجاور : المستبصر ، ص٥٠ .

(*) أصبحت المدينة المنورة عاصمة للدولة الإسلامية ، وكان المسلمون على صلات قوية بأرض الحبشة باعتبارها المهجر الأول للمسلمين من ناحية ، وللعلاقات التجارية من ناحية أخرى ، فاختار المسلمون ميناء قريبا منها فوقع اختيارهم على الجار ، ثم زاد الاهتمام بها بعد فتح مصر سنة ٢١هـ حتى أصبح الجغرافيون المسلمون في القرن الثالث الهجري لايذكرون غيره في تلك النواحي.

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٢-٩٣ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٢ ، ص١٠٥ .

(٥) السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص١٠٧ .

(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص٢٥ .

وهذا لاينفي وجود ميناء ينبع في العهد القديم .

ونستدل من ذلك على ثراء المنطقة وأهلها نتيجة ازدهـــار تجارتهـا ، وهذا ماأكده المقدسي والذي عاش في تلك الحقبة (القرن الرابع الهجري) "أن الجار وجدة كانت خزانتا الحجاز"[١] .

ويقول عن الجار أيضا : "بها دور شاهقة ، وسوق عامرة وهي خزانة المدينة ، ويحمل إليها الماء من بدر والطعام من مصر"[٢] .

وزادت شهرة ميناء ينبع وأصبح ميناء رئيسيا من أهم موانئ الحجـــاز في سنة ٦٢١هـ ، وفي عهد الأيوبيين[٣] [*] حيث جعلوا من ينبع ميناء نشيطا بالحركة التجارية وشيدوا فيه قلعـــة قويـــة ، وزودوهـــا بـــالجند للحمايـــة ، والحراسة إضافة إلى الإصلاحات ، والمنشآت التي جعلت منه ثغرا هاما مـــن ثغور الحجاز ترسو في مينائها السفن من جنسيات متعددة[٤] المبحرة بالتجار ، والحجاج ، والزوار ، كما صارت مدينة ينبع بالنسبة لمصر من أبرز المحطات على طريق الحاج الذي يبدأ من مدينة القاهرة إلى السـويس[**] ، ثـم ينتقـل

(*) بدأت الحياة تعود إلى ميناء ينبع سنة ٦٢١هـ حين سيطر الأيوبيون على الحرمين ورغبوا في أن يجعلوا من ينبع الميناء الرئيسي للمدينة المنورة ، ويعيدون إليه أمجاده القديمة فاشتروا مـن الأشـراف مـن آل الحسن أهل ينبع النخل منطقة الميناء بأربعة آلاف مثقال من الذهب ، وجهزوه ليكون صالحا ومعـدا لاستقبال السفن . السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٢١٥ .

(١) أحسن التقاسيم ، ص٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص٨٣ .

(٣) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥٠ .

(٤) الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٤٧٦ .

(**) السويس : بليد على ساحل بحر القلزم من نواحي مصر ، وهو ميناء أهل مصر اليوم إلى مكة والمدينة بينه وبين القسطاط سبعة أيام في برية معطشة . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٨٦ . ولكنها مع التقدم العمراني تغيرت وأصبح الطريق منها وإليها سهلا ومريحا .

الحجاج بالسفن إلى العقبة(*) ، ومن ثم ينزلون إلى البر ، ويمرون بينبع وهم في طريقهم إلى المدينة ومكة[١] .

إلى أن توالت الفتن والمنازعات في بلاد الحجاز منذ القرن الرابع الهجري ، وأخذ الأعراب وقطاع الطرق ينهبون القوافل ، ويهددون الطرق التجارية الداخلية ، ويقتلون التجار ، والحجاج ، واستمر ميناء الجار يؤدي دوره التجاري في استقبال المراكب القادمة من مصر وغيرها من البلدان ، ثم مالبث أن أهمل وعطلت مرافقه لانعدام الأمن وتغير طريق الحج والتجارة إلى طريق جديد حيث سلك الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس ثم بدأ ثغر ينبع يقوى كما ذكرنا على يد الأيوبيين حكام مصر[٢] .

ونتيجة لأهمية سواحل البحر الأحمر وموانيه الشرقية والغربية ومنها ينبع اتجه البرنس شاتيون(**) المعروف بأرناط سنة ١١٨١م إلى سواحل الحجاز وأحرقوا سفنا كثيرة في موانئ الحوراء وينبع ورابغ وهددوا الحجيج ،

(*) العقبة هي مدينة عظيمة على رأس خليج يعرف باسمها يفترق عن خليج السويس بشكل شعبتين في رأس البحر الأحمر وظلت العقبة تابعة للحجاز وبقيت حتى القرن العشرين الميلادي وضمت إلى الأردن . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص١٢٢-١٢٣ .

(١) الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٤٧٦ .

(٢) ابن المجاور : المستبصر ، ص٥٠ ، الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥٠ .

(**) تعتبر هذه الهجمة الصليبية ذات طابع اقتصادي هدفها السيطرة على طرق التجارة الدولية ويبدو من تخطيط أرناط أنه كان ينوي الاستيلاء على عدن حتى يتمكن من إغلاق البحر الأحمر في وجه تجارة الشرق الأقصى عبر المحيط الهندي ، كما أن الاستيلاء على أيلة يسهل له الاستيلاء على الطريق التجاري العقبة أيلة الشام ، كما لاننسى أن هذه الهجمة ذات طابع ديني متعصب إذ كان ينوي احتلال المدينة ونبش قبر الرسول ولكن الله رد كيده في نحره ، بالإضافة إلى تهديده للتجارة بين مصر والشام والحجاز وتهديد قوافل الحجيج بعد استيلائه على حصني (الكرك والشوبك) . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٧١٩ وصفحات متعددة .

حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من المدينة لحقت بهم قوات صلاح الدين ، فأحرقت سفنهم وأسروا وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واسترجعت أيلة من أيديهم[(١)] .

وقد بلغت ينبع أوج ازدهارها ، وأزهى عصورها في زمن سلاطين الجراكسة ٦٥٩هـ/٩٢٣م حيث كان لهم دور بارز في الإصلاحات المتعددة على طريق الحج ومشاعر الحرمين مما جعل ذلك سببا في ازدياد الكثير من الحجاج القادمين والمغادرين فترة أدائهم مناسك الحج والزيارة ذهابا وإيابا[(٢)].

هذا مما جعل من ينبع محطة برية ، وبحرية مهمة بالإضافة إلى مكانتها كسوق تجاري هام ، ومحطة حيوية للاستيراد ، والتصدير خصوصا زمن المماليك حيث كان لها دور كبير في تجارة البحر الأحمر حتى أصبحت همزة الوصل بين مصر ، والحجاز عن طريق عيذاب ، الأمر الذي أدى إلى تغيير المجتمع الينبعي ، فما أن سقطت دولة المماليك حتى كان جزءا كبيرا من سكان المدينة من الأسر العربية التجارية التي انتقلت من صعيد مصر واستوطنت ينبع الأمر الذي أدى إلى ازدياد العدد ، والسكان فيها ، وازدحمت المدينة بسبب ذلك النمو المتزايد ، وتحولت ينبع وفي خلال قرن من الزمان إلى مدينة تنقسم إلى قسمين أحدهما بري ، والآخر بحري يقع على ساحل البحر الأحمر ، وتقوم حرف سكانه على الصيد ، والتجارة ، والخدمات البحرية حيث أصبح الميناء الثاني للحجاز بجهود كثير من السلاطين والأمراء من الأشراف الذين اهتموا بالميناء ، وحماية التجارة ، وحياة الحجاج[(٣)] ، واستمرت ينبع تؤدي دورها بقوة في أحيان كثيرة اللهم إلا في بعض الفترات

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٧١٩،٧٨٦ ، المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٧٩ ، أبو الفدا : تاريخ أبي الفدا ، ج٣ ، ص٦٨-٦٩ ، علي حسين السليمان : النشاط التجاري ، ص٥٠-٥١ .

(١) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٢ .

(٢) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٢ .

المشحونة ببعض الفتن والقلاقل[١] .

وعلى سبيل المثال في بعض فترات الازدهار وصول (جابر الخراشي)[٢] كما ذكرنا وهو تاجر يمني نشأ في اليمن وعمل بالتجارة ، ثم اتجه إلى مصر بسبب بعض الظروف التي حدثت بينه وبين ابن عجلان ، ثم عاد إلى ينبع ، وبنى قلعة وسورا للمدينة مما أدى إلى ازدهار تلك المنطقة ، وهذا يدل على مساهمة التجار في عمارة الميناء حتى تزدهر أعمالهم ، وتتسع نشاطاتهم التجارية ، وهذا يؤكد على أن سبب ازدهار تلك المنطقة هو تحول التجارة والحجاج إليها وخصوصا في القرن السابع الهجري ، فأصبحت ينبع محطة بحرية برية للحجاج القادمين من مصر ، وبلاد الشام ، والمغرب كما أصبحت سوقا تجارية يجلب إليها العديد من السلع التي ازدحمت بها متاجرها ودكاكينها المتعددة التي يباع فيها الأمتعة والأقمشة والمأكولات والمشروبات ، وكل مايحتاجه المسافر حتى يكمل طريقه إلى مكة[٢] .

كما تعتبر ينبع من أهم المحطات التي تقع بين مصر ، والمدينة المنورة حيث كان سلاطين المماليك يرسلون السفن محملة بالغلال ، والطعام ، والصدقات ، وكل مايلزم الحجاج وأهل الحرمين الشريفين[٣] طول العام ثم تفرغ هذه المهمات والبضائع وتحمل عبر الطريق البري إلى المدينة بواسطة الإبل ، وكل هذا يؤكد على أن ينبع قد ازدهرت ، وبلغت أوج ازدهارها في عهد المماليك كما أصبحت أسواقها ذات شهرة عظيمة[٤] .

---

(١) جابر الخراشي وقصته ذكرناها في علاقة ينبع بمصر . انظر ص

(٢) الحجاز في القرن السابع الهجري ، دراسة في رحلة ابن رشيد الأندلسي ، تحقيق حمد الجاسر ، مجلة العرب ، ج٢ ، ص٤ شعبان ١٣٨٥هـ/تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٥م ، ص١٦٤-١٦٥ ، العبدري : الرحلة ، ص١٦٣ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص١٤١٥ ، علي السليمان : العلاقات التجارية المصرية ، ص١٠٥-١٠٦ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٩١٧ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٢٤٤-٢٨٠ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٣١٩ .

وقد وصفها حينذاك المقدسي فقال : "ينبع كبيرة جليلة ، حصينة الجدار غزيرة المياه ، أعمر من يثرب ، وأكثر نخلا ، حسنة الحصن ، عامرة السوق لها بابان : الجامع عند أحدهما ، الغالب عليها بنو الحسن"[١] .

كما يصفها أيضا ابن شاهين وهي في أوج ازدهارها قائلا : "إن مدينة الينبوع كثيرة العمائر ، والأسواق ، والنخيل ، وهي بندر ترد إليه المراكب بالغلال من سواحل الطور يؤخذ عليها المكوس لصاحب الينبوع في كل سنة ثلاثين ألف دينار"[٢] .

وهناك طريق بحري عن طريق فرضتها جدة ، ويعتبر هذا الطريق الذي يربط مصر بمكة كذلك يربط مكة ببلاد الشام حيث السلع التي تصل من الشام ، وأوروبا ، ثم تواصل إلى اليمن ، ومن ثم تعود وهي محملة بالمنتجات اليمنية والهندية ، والحبشية أيضا ، فتمر بمكة وهي في طريقها إلى بلاد الشام[٣] .

وكان لبعض أمراء مكة اهتمام شديد بميناء جدة خصوصا في عهد أحمد بن عجلان نتيجة توافد التجارة عن طريقه[٤] ، لكن لم يدم الأمر طويلا بعد وفاته حيث أدت سياسة بعض الأمراء التسعفية مع التجار[٥] بإثقال المكوس عليهم ، وبمصادرة بضائعهم إذا عجزوا عن دفعها ، وتأزم الوضع مع التجار الأمر الذي حملهم على الإبحار إلى ينبع[٦] ، فكانت هي الميناء البديل في حالة حدوث أي أمر يقلق راحة التجار ، أو يعرض أموالهم للضياع وبذلك كانت ينبع هي ميناء كل من مكة والمدينة .

---

(١) أحسن التقاسيم ، ص٨٣ .

(٢) ابن شاهين الظاهري : زبدة وكشف الممالك ، ج١ ، ص١٩ .

(٣) سعاد الحسن : النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص٩٢ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٩٥ .

(٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢٣٢ .

(٦) الفاسي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٣٧ ، ج٦ ، ص٢٠٧-٢١٢ .

وفي سنة ٧٩٨هـ أعرض تجار اليمن عن التوجه إلى جدة أيضا ، واتجهوا إلى ينبع ، وكان في مقدمتهم القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن القاضي نور الدين علي بن يحيى بن جميح[١] ، وهكذا أصبحت ينبع تنافس جدة في الناحية التجارية ، ويرجع الفضل في ذلك إلى السلاطين المماليك الذين أولوا اهتمامهم وعنايتهم بهذا الميناء ، وتوفير الأمن ، والحماية للتجار مما جعل ينبع مركزا هاما للتجارة في الحجاز[٢] . ومن الأمثلة التي أشارت إليها المصادر عن سوء معاملة تجار الهنود ماحدث مع التاجر الناخوذة إبراهيم حين اتجه إلى ينبع بعد أن وجد معاملة سيئة في جدة من الشريف حسن[٣] حيث صادر بضائعه وطرحها على التجار بمكة سنة ٨٢٥هـ بثمن بخس ، لكن الأمير قرقماس[*] استطاع إقناعه بالعودة إلى جدة سنة ٨٢٧هـ وعومل معاملة حسنة[٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٩٠ ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٤٠١ .

(٢) الفاسي : مصدر سابق ، ج٤ ، ص١٣٢ ، السنجاري : منائح الكرم ، ورقة رقم ٣٣٢ ، الخالدي المقصد الرفيع ، ج١ ، ص٩٩ .

(٣) الشريف حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي بن أبي سعد . انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٨٦ .

(*) هو قرقماس الشعباني الظاهري ، ثم الناصري ، وعرف بقرقماس ، تولى الحجوبية الكبرى ، وإمرة حلب في عهد السلطان برسباي ، ثم ثار على السلطان جقمق ، وانهزم وسجن بالإسكندرية حيث قتل في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م .
انظر : ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٢ ، ص٥٥٤-٥٥٥ ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص٤٦٦-٤٦٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦ ، ص٢١٩-٢٢٠ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٨١ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٥٨٨ ، د. أحمد عبد العال : بنو رسول وبنو طاهر ، ص٤٥٥ ، دراج : إيضاحات جديدة على التحول في تجارة البحر الأحمر ، ص١٨٧ .

وكان التجار وأصحاب السفن يلجأون إلى ينبع لإصلاحها بدلا من ميناء جدة حيث تجبى منهم ضرائب باهظة كما حدث سنة ٨٢٨هـ مع بعض مراكب الكارم حينما أخذوا منها حوالي ألفي افرنتي وتصادف أن كان فيها مركب يحمل بضائع للسلطان الملك المؤيد شيخ أو مايسمى "بالمتاجر السلطانية" ، مما أغضب السلطان على شريف مكة(١) .

ونتيجة للإقبال المتزايد على ميناء ينبع أبحرت السفن إلى الميناء سواء أكانت مبحرة إليها أصلا ، أم أبحرت إليها بديلا عن جدة وهي محملة بأنواع الغلال ، وأنواع التجارات المتعددة من مصر ، وأفريقيا ، واليمن ، وجنوب شرق آسيا إضافة إلى العديد من المراكب التي ترسو وهي محملة بالبضائع والمنتجات ، لتكدس السفن في المرفأ حتى يتم تفريغها وتشوينها ، ولذلك أنشئت الأسواق المتعددة والمخازن الضخمة والمستودعات ، والخانات التي تعد المنفذ الطبيعي لحركة البيع والشراء للبضائع المختلفة ، وأقبل التجار من كل حدب وصوب على الشراء والبيع ، فانتعشت الحياة التجارية ، ونشطت الأسواق الداخلية ، ونجحت حركة القوافل إلى الداخل ، وإلى تلك الحقيقة يشير ابن إياس عندما وصف ينبع بقوله : "ينبع من أهم مدن الحجاز وهي بندر التجار ، ومحل المكاسب ، وبها بدو وصاغة ، وحواصل ، ودكاكين ، وسرحات ، وبساتين ، وزروع ، وعيون ، وأشجار"(٢) .

ويشير الجاسر أن ينبع ميناء طبيعي صالح للملاحة بخلجانه منذ أقدم العصور(٣) .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٣٦-١٣٧ .

(٢) ابن إياس : نشق الأزهار ، ورقة ٨٧ .

(٣) الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥٠ .

وكان لينبع وأهمية موقعها في مستهل القرن السابع الهجري دور كبير في ازدهار حركة التجارة ، وزيادة حجم الصادرات والواردات ، وبرع الينبعيون في الميدان التجاري (تجارا أو وسطاء) لأهم السلع التجارية العابرة للميناء بين جنوب شرق آسيا والهند والحبشة وغيرها وبين مصر والشام ، حتى يتم تصدير تلك المنتجات إلى أوروبا .

فبعد اضمحلال الجار وسقوطه ، تحول الثقل التجاري إلى ينبع ، وغدت مركزا تجاريا لجميع السلع المهمة آنذاك .

وقد أسهمت ينبع بمينائها الذي زادت أهميته في العصر المملوكي ، حيث كانت عائدات التجارة تشكل دخلا مهما لخزانة الدولة ، حتى أن الدولة المملوكية قد ترنحت تحت ضربات البرتغال لمنافستها في ميدان التجارة العالمية ، كما أن اتصالها بالمدينة وقربها منها ، جعلها بوابة لوسط الحجاز وشماله ، واتصالها أيضا بمكة جعلها تشكل محورا بريا هاما داخل الجزيرة العربية .

لذا قام المماليك بتنشيط جميع موانى البحر الأحمر الواقعة تحت سيطرتهم ومنها ينبع للحصول على المنتجات الآسيوية ثم إعادة تصديرها إلى أوروبا(١) .

بل لانكون مبالغين إذا قلنا أن هذا التنشيط للحصول على منتجات دول جنوب شرق آسيا والهند استمر طوال عصور الدول الثلاث الفاطمية والأيوبية والمماليك ، اللهم إلا في أواخر العصر المملوكي(٢) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٥٨١-٥٨٢ .

(٢) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ، ص١٩٣ .

ولعل من أهم السلع الواردة التي كانت محورا للنشاط التجاري في ينبع وغيرها من موانئ البحر الأحمر هي : التوابل(*) بأنواعها ، والأعشاب(**) الطبية ، والعطور(***) والبخور ، وتجارة(****) الجياد والجمال ، والمنسوجات(*****) ، والمواد الغذائية(******) ، والأحجار الكريمة(******) .

وكانت الصلة التجارية بين مصر وينبع قوية حتى أن كثيرا من سكانها كانوا من الأسر العربية التي انتقلت إليها من صعيد[1] مصر للتجارة واحتكار سلع معينة وكانت منهم بعض البيوت التي بلغت شأوا في الثراء حتى أن المماليك كانوا يقترضون منهم ومن غيرهم من كبار البيوتات العاملة في المجال التجاري .

(*) التوابل : الفلفل ، القرفة (الدارصيني) ، الخلنجان ، الزنجبيل ، جوزة الطيب ، الزعفران ، القرنفل ، الحبهان (حب الهال) .

(**) الأعشاب الطبية : الكافور ، المن ، الصبر ، الراوند ، الاهليلج ، الخيار شنبر ، العسل ، البيلسان ، العفص ، التوتيا ، الكباث .

(***) العطور والبخور : العود الهندي ، المسك ، العنبر ، خشب الصندل ، الكاذي ، البان ، المر .

(****) تجارة المنسوجات وغزل ونسج الكتان والقنب والصوف والحرير والقطن ومنها : الفرشن ، الستور الخيام ، الفساطيط ، الحبال ، الثياب ، الشيلان ، والقصب والعباءات ، الموسلين .

(*****) المواد الغذائية : الحبوب وخاصة القمح ثم الذرة والشعير ، الدخان ، أنواع الفاكهة كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والبطيخ والخضروات والبقول كالعدس والفاصولياء والشلجم والباذنجان واليقطين والجزر والكرنب والسكر .

(******) الأحجار الكريمة : الياقوت ، اللؤلؤ ، الزمرد ، العقيق ، المرجان ، اللازورد .

انظر : علي حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص٢٢٧-٢٥٧ ، سعاد الحسن : النشاط التجاري في العصر المملوكي ، دراسة دكتوراه غير منشورة ، ص١٣٨-٢٠٩ ، نعيم زكري : طرق التجارة الدولية ، ص١٨٩-٣٧٢ .

(١) علي السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص١٩٠ .

كما نجحت ينبع في التجارة الداخلية لوفرة النخيل بها وبالمدينة وكان التمر بأنواعه المختلفة من أهم حاصلاتها التجارية ، كما عرفت بتجارة السمن والعسل والألبان والأغنام والخيول والجمال والحبوب .

وكانت لينبع تجارات مربحة مع الحجاج والتجار الذين يمرون بها عبر الطريق إلى الحج أو للزيارة بعد انقضاء الموسم ، وكانت كل الغلال التي تصل للمدينة تصل عن طريق ينبع مما أوجد سوقا تجارية ضخمة للحبوب في المنطقة ، كما عرفت تجارة الفحم النباتي ، حيث يتم حرق جذوع الأشجار بطريقة خاصة ويجهز للاستخدام المحلي والتصدير[1] .

وكانت المكوس التي تحصل على تجارة الصادر والوارد من أهم روافد الدخل لينبع ولحكومة أشراف مكة وللمماليك على وجه الخصوص ،وبلغت جملة العشور التي أخذت عن شحنات القمح الواردة إلى ينبع في بعض السنوات ثلاثين ألف دينار[2] ، فما ظنك بباقي الأصناف من الوارد والصادر .

بل لقد كان يجبى من العشور عن كل جمل في القوافل القادمة عبر الطريق البري خمسين درهما .

ولذلك كان جزء من هذه الضريبة يصرف على المصالح العامة والوضع الأمني فكان يؤخذ من أمير ينبع مائتي دينار تصرف للعربان حتى يأمن التجار والحجاج على أنفسهم في الطريق عبر المدينة ولم تلغ هذه الضريبة إلا في سنة ٨٤٤هـ[3] ، كما يدفع أمير ينبع ٣٠٠ دينار أخرى كل سنة لأمير الحاج المصري لكي يستعين بها في نفقات الرحلة ، وتضاف إلى ميزانيتها .

---

(١) ابن المجاور : المستبصر ، ص٥٠ ، حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٤٩-٥٠ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص١٦ ، ابن إياس : نشق الأزهار ، ورقة ٨١ .

(٣) درر الفوائد ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٢٨ .

والملاحظ أنه مع ازدياد العلاقات التجارية بين موانئ الدولة المملوكية الواقعة على البحرين المتوسط والأحمر ـ ومنها بطبيعة الحال ميناء ينبع ـ مع غيرها من الدول الخارجية ، فضلا عن ازدهار حركة التجارة بين الموانئ المملوكية ذاتها ، وكثرة الواردات إليها والصادرات منها ، وماترتب على ذلك النشاط التجاري من تعقيدات في حساب الرسوم والمكوس التي كانت تفرض على السلع والمراكب ، فقد بات من الضروري وجود دواوين في هذه الثغور للقيام بتلك الأعمال المالية ، ونظرا لما كان يتمتع به ثغر ينبع بحكم أنه كان ميناء المدينة المنورة الرسمي ، فإنه لايستبعد أنه كان لهذا الميناء ديوانا خاصا به يعرف بديوان ثغر ينبع ، يؤكد هذا ماذكره ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد في بعض موانئ الدولة المملوكية التي زارها "الدواوين والعمال والكتاب والشهود"[١] .

كما امتدت يد الإصلاح والتعمير إلى طريق الحج البري لحجاج مصر وتجارها في عهد المماليك الشراكسة وأنشأوا عليه منازل المياه واستراحات للمسافرين حجاجا وتجارا ومحطات للدواب ، وأسواقا لبيع مختلف الأطعمة والأشربة والأعلاف وخانات وقرى تجارية ، وساعد على ازدهار هذا الطريق (القاهرة ـ السويس ـ الإبحار بالسفن إلى العقبة ـ رحلة برية مرورا بينبع إلى المدينة ومكة) [٢] تحول التجار والحجاج إليه في منتصف القرن السابع الهجري وتركهم طريق البحر[٣] .

ونتيجة للازدهار التجاري نظمت الحركة التجارية فأنشئت الأسواق على اعتبار أنها أقدم الأنظمة لرواج التجارة وبيع السلع ، وكان من أشهرها

---

(١) انظر رحلة ابن بطوطة ، ص٣١ .

(٢) درر الفوائد ، ص٤٧٦ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٦ .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٣٨٠ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٦ .

الأسواق الخاصة كسوق العطارين[١] والبزازين والحدادين والفاكهيين والتمارين ، وأسواق خاصة تباع فيها لوازم الحجاج وكل مايخص الدواب من علافة وحدادة وسروجية ، وأسواق لبيع الحيوانات[٢] .

وكانت أضخم الأسواق هي الأسواق الموسمية التي تقام في موسم الحج ، إذ يزدحم فيها الحجاج يتلمسون مع أداء الفريضة منافع لهم وفضلا من ربهم .

وتشير المصادر إلى أن هذه الأسواق قد أصبحت نصف سنوية خاصة بعد شيوع عمرة رجب في مصر والشام في العصر المماليكي[٣] .

ونتيجة لازدهار ميناء ينبع ونشاط الطرق التجارية البرية وطرق الحجيج خاصة بعد تأمين البحر الأحمر من القراصنة والقضاء على قطاع الطرق من البدو في العصر المملوكي أنشئت في ينبع القياسر والخانات[*] ، والفنادق[**] ، والوكالات[***] ، والرباع وهي من أهم المرافق والمؤسسات

(١) ابن بطوطة الرحالة ، ص١٣٦ ومابعدها .

(٢) الفاسي : مصدر سبق ذكره ، ج٥ ، ص٢٧ ومابعدها .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج٣ ، ص٥٣٩ .

(*) الخانات : يختلف الخان عن الفندق في أن الخان به حظائر للدواب . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ، ص٤٥ .

(**) الفنادق : كلمة مأخوذة من اللغة اليونانية ، وأطلقت في القرنين التاسع والعاشر الهجري على مبان فخمة مربعة الشكل ولبعضها أكثر من طابق ولها فناء داخلي مكشوف تحيط به الحوانيت في الطابق الأرضي حيث توجد المخازن وفوقها مساكن التجار ، ثم تطورت مع الزمن .
محمد التونجي : معجم المعربات الفارسية ، ص١٢٣ .

(***) الوكالات : مراكز خاصة للبيع والشراء وعقد الصفقات والحجرات العليا فيها هي الرباع .

لراحة الحجاج والمسافرين والتجار ، والموظفون الرسميون(*) مع قوافل(**) الحجيج .

وكان المحتسبون يقومون بالإشراف على الأسواق وكل تلك المنشآت(***)(١) التجارية .

واستمرت ينبع تؤدي هذا الدور التجاري الهام حتى سقوط دولة المماليك الشراكسة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ووقوع الحجاز تحت السيطرة العثمانية.

(*) كالأدلاء ، والدوادرية ، والخزندارية ، وأصحاب الديوان ، والضباط ، وحامل الصنجق ، وأمراء الحج . درر الفوائد ، ص٣٠ .

(**) أول قافلة للحج في العهد الإسلامي خرجت من المدينة المنورة سنة ٩هـ/٦٣١م وضمت حوالي ٣٠٠ حاج وكانت تحت إمرة الصديق رضي الله عنه ومع تعاقب القرون استقرت عادة خروج القوافل للحاج والعمرة من شتى أنحاء العالم الإسلامي وكان أشهرها قوافل مصر والشام والعراق واليمن والهند .
الطبري : الرسل والملوك ، ج٢ ، ص١٣٤ .

(***) توجد كثير من الخانات والوكالات والقياسر في ينبع ، وتحتاج إلى بذل الجهود لترميمها ترميما معماريا أثريا وهي قمة في التصميم والفخامة وواجهاتها مزينة بالمشربيات (الرواشن) وفن الأرابيسك ، ولقد قامت الباحثة بالتقاط بعض الصور لهذه البيوت الأثرية أثناء زيارتها لينبع بدعوة من الهيئة الملكية لتنشيط ينبع . وتوجد بعض هذه الصور في وثائق البحث .

(١) محمد المنسي : الحسبة في العصر المملوكي ، ص١٥ .

المبحث الثالث

الزراعة والرعي

لقد عدد لنا القرآن الكريم في كثير من الآيات نعم الله علينـــا ، منهـا ماينزل من السماء من المطر ، الذي أحيا به الله كل شئ ، ومن الأرض حيث تتفجر العيون ، والينابيع ، والأنهار ، فينبت الشجر ، والكلأ ، وتثمر الأشجار من نخيل ، ورمان ، وزيتون ، وحبوب ، وغيرها مـــن المنتجـات الزراعيـة مصداقا لقوله تعالى في محكم آياته : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِـــنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾(١) .

لقد نزلت تلك الآيات المحكمات في مكة المكرمة ، وعلى الرغم من قلة المطر فيها حتى صارت واديا غير ذي زرع ، ولكن العرب كـــانوا يشـاهدون آيات الله من جنات النخيل ، والفواكه ، والمزروعـات فـي المنـاطق التـي اشتهرت بالزراعة(٢) ، ومنها ينبع حيث تعدد الأوديـــة ، وروافدهـــا ، وكـثرة الآبار والعيون حتى قيل أن بها مايقرب على المائتي عين .

هذا وقد اكتسبت المدينة اسمها من الينبوع وهو مورد الماء فلاغرو أن تتوفر فيها المياه والتي تعتبر سببا رئيسيا في خصوبـــة التربـة ، وانتشـار الزراعة بها .

هذا بالإضافة إلى تعدد المحاصيل الزراعية ، والتي كـانت سـببا فـي عمارة المنطقة ، جعلها آهلة بالسكان مما شجع الكثيرين للهجـرة إلـى تلـك المناطق ، وكذلك ساعد على تعدد القرى ، والتي كان السبب في وجودها تعداد العيون ، والأودية ، وروافدها(٣) كما أسلفنا ، وأكد البلادي أن من روافد وادي

---

(١) سورة الأنعام : آية ٩٩ .

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ص٣٢-٣٣ .

(٣) العباس : عمدة الأخبار في مدينة المختار ، ص٢٨١،٤٣٣ .

الأشعر عباثر ، ونخلى ، وهي تشتهر بالزراعة ، وخاصة النخيل[١] ، كما أن وجود التلع الصغيرة أعطى للأرض خصوبة ، وساعد على ازدهار الزراعة ، وتنوع المحاصيل الزراعية[٢] ، وقد مهر أهل ينبع في الزراعة ، والحرف التي تقوم عليها حيث اعتنوا بالمناحل لتربية النحل ، والاستفادة منها في استخراج العسل[٣] ، ووجود النحل يشير إلى وجود الأزهار المتنوعة في تلك الأرض الخصبة ، والجهنيون من سكان ينبع تولوا العناية بالزراعة والاهتمام بالمزارع عن طريق استخدام كثير من العمال المهرة في فلاحة الأرض ، وزراعة البساتين على مدار السنة ، وحين يأتي جمع المحصول من الثمار ، أو التمور ينزلون من مناطق سكناهم في سفوح الجبال ، ويقومون بجمعها ، ومن ثم حملها إلى الأسواق لبيعها[٤] .

ومما يدل على ازدهار النشاط الزراعي في ينبع وقوة الأرض أن السمهودي صاحب وفاء الوفا قد ذكر دليلا على ذلك في كتابه يبين زيادة المحاصيل الزراعية والغلال في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ٥٠هـ حيث قدرت حصته بمائة ألف وسق ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بخمسين ألف وسق من التمر[٥] ، وهذا لم تكن الأرض المنبسطة هي وحدها الصالحة للزراعة إنما كانت سفوح الجبال أشد خصوبة منها لطبيعة التربة الجيدة المرتفعة التي تجود فيها أنواع معينة من المزروعات ، ومنها

---

(١) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص٤٢-٥٠ ، ج٢ ، ص٥٢ ، ج١٠ ، ص٣٦ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص١٤١٧-١٤١٨ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) بوركهارت : مرجع سابق ، ص٣٨٥ .

(٥) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٣ ، ص٩٨٨ .

جبل الأشعر حيث يزرع البر ، والشعير ، والنخيل ، والغريب من ذلك أن نخيل ذلك الجبل يثمر في العام مرتين ، إضافة إلى وجود الرطب على الدوام ، وتغطي الأزهار الجميلة المتعددة الألوان ، والأنواع مدرجات ذلك الجبل بالإضافة إلى تميزها بالرائحة الذكية العطرة ، والألوان الرائعة ، وفي جنوب ذلك الجبل يزرع اللوز ، كما يزرع النخيل أيضا على جبال رضوى ، وبكميات كبيرة حيث الارتفاع الشامخ ، والمناخ المناسب[1] .

ومما يؤكد على تميز بلاد ينبع بالتربة الخصبة في السهول ، والوديان والجبال مما يؤدي إلى تنوع الزراعات على امتداد الفصول الأربعة ، مايشير إليه حمد الجاسر الذي زار المنطقة في مرحلة متأخرة منذ خمسين عاما وذكر لنا أهم محاصيلها من التمور ، والفواكه ، والخضار ، وكثرة الأشجار التي تقوم على إحراقها بطريقة خاصة صناعة الفحم[2] .

كما يؤكد البلادي أيضا على قيام الزراعة في سفوح الجبال حيث يزرع القمح والنخيل ، وتشتهر المنطقة بزراعة نوع من النخيل يسمى عثري ، كما يطلق على مزارعه عثرية وتقوم زراعته في وادي رحقان[3] .

كما يورد السمهودي[4] والبكري[5] أن على سفوح الجبال كرضوى وورقان بعض الأشجار المثمرة والغير مثمرة ، والتي ينتفع بخشبها فقط ، والتي منها الشوحط ، والنبع ، والقرظ ، والرنف ، والخزم ، وقد أضاف البكري فوصف بعضها في قوله "الخزم شجر له أوراق كالبردي ، وساقه

---

(١) البركاتي : الرحلة اليمانية ، ص١٥٠-١٥١ .

(٢) المجلة العربية ، العدد ١٦١ ، السنة ١٥ ، جمادى الثانية ١٤١١هـ ، ص٢٤ .

(٣) البلادي : قلب الحجاز ، ص١٦٧ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٤ ، ص٤٠ .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٤ ، ص١٣٣١ .

(٥) البكري : معجم ماستعجم ، ج٤ ، ص١٣٧٧ .

كساق نخلة ، ويطلق أهل الحجاز عليه السمان[١] . وتتميز منطقة الحوراء بماء غير صالح للشرب ، كما يوجد بها شجر الأراك[٢] حيث تشتهر به تلك المنطقة .

كما تكثر في منطقة الصفراء العيون ، وزراعة النخيل حيث تكثر التمور ذات الشهرة الواسعة وذلك قبل إصابة المنطقة بالجفاف في بعض الفترات حيث جفت العيون في بعض المناطق كالخيف ، والحمراء حيث كانت تعتبر أكثر القرى سكانا[٣] . وقد هاجرت كثير من الأسر العربية من صعيد مصر إلى ينبع بعد سقوط دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ ، الأمر الذي أدى إلى تغير الأنماط السكانية ، فتحولت ينبع من قرية إلى مدينة تكتظ بالسكان الذين تعددت أنشطتهم البشرية في مجتمعهم الجديد ، فمنهم من عمل بالبحر ، ومنه من عمل بالزراعة ، أو الرعي[٤] .

وقد أدى كثرة العيون في ينبع ـ والتي اشتهرت بها ـ إلى خصوبة تربتها بالإضافة إلى الجو الملائم للزراعة ، فتعددت مزارع النخيل الذي هو من أهم محاصيلها الزراعية إضافة إلى المزروعات الأخرى ، وكان ثمار النخيل من أهم المحاصيل المصدرة بالإضافة إلى قربها من مراكز تصديرها على البحر الأحمر مما ساعد على رواج تجارتها إلى الأسواق الداخلية ، والخارجية هذا وقد أكد كلا من ابن رشيد ، والبلوي كما ذكره العبدري عن جمال ينبع وخصوبتها ، وكثرة مياهها بأنها تمتاز بالمياه الجارية والعيون

---

(١) مجلة العرب ، الجزء الأول ، السنة الرابعة ، رجب ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

(٢) الأراك : هو شجر تستعمل عروقه للسواك ويسمى نعمان الأراك نسبة لهذا الشجر وكثرته في هذا الوادي . انظر البلادي : أودية مكة ، ص٣٠ .

(٣) البلادي : قلب الحجاز ، ص١٤٦ .

(٤) مجلة العرب ، ج٣ ، السنة السابعة ، رمضان ١٩٣٢هـ ، ص١٩٠ .

المتعددة وإخضرار بساتينها[١] ، كما تتميز القرى القريبة من ينبع مثـل وادي الصفراء بالحدائق ، والبساتين ، ومزارع النخيل ، ويقـوم السـكان بزراعـة الحبحب ، والدباء ، والقطاني[٢] وغيرها .

ويؤكد البلادي أن في ينبع مناطق متعددة الزراعة ، ويزرع الحبحب في منطقة بدر حيث أن لأهلها مزارع كثيرة ولهم خبرة في زراعته[٣] .

كما يشير الجزيري إلى بعض المحـاصيل الزراعيـة المتنوعـة مـن الخضروات وغيرها والتي تجود بزراعتها ينبع مثل الفجل ، والليمون ، ونبات الملوخية ، والتي تصنع منها بعض الأكلات المشهورة ، وأضاف أيضا اللبان ، والباذنجان ، هذا إلى تأكيده عن وجود أنواع مميزة وجيدة من التمور وكذلـك تربية النحل حيث العسل[٤] ، وتجود صناعة العطـور نظـرا لكـثرة بسـاتين الأزهار ، والرياحين ، فيستخرج ماء الزهر ، والـورد ، والياسـمين بشـكل مخفف ، ومركز ، وقد أكد البركاتي على أنهم برعوا في زراعـة الزيتـون ، ومن المحاصيل الزراعية الحنطة لكن زراعتها بشكل قليل فهي لاتكفي حاجـة سكان المدينة والقرى المجاورة لها[٥] ، لذا يعتمدون على القمح الذي يصـدر إليهم بواسطة السفن القادمة من مصر .

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص١٦٣ ، البلوي : تاج المفرق ، ج٢ ، ص١٢-١٣ .

(٢) القطاني : هي عبارة عن حبوب مثل الحمص والعدس ، والدخن وسميت قطنية لأن مخارجها من الأرض مثل مخارج الثياب القطنية وتزرع في الصيف وتحصد في آخر وقت الصيف .
انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٣ ، ص٣٤٤-٣٤٥ .

(٣) البلادي : على طريق الهجرة ، ص٢١٤ .

(٤) الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص١٤١٧-١٤١٨ .

(٥) الرحلة اليمانية ، ص١٥٠-١٥١ .

كما نقرأ نصا للبكري يشير إلى أن الزراعة تجود في منطقة البحيرة حيث يوجد بها أغزر العيون ، ويزرع فيها البقول والفواكه والبطيخ والرمان[١] ، وتقوم ينبع بزراعة نبات الحناء وهي من أجود الأنواع في الجزيرة العربية[٢] ، حيث تشتهر به المدينة ، وهي من أهم الهدايا التي تجلب من المدينة ، وماجاورها خصوصا بعد تجفيفها ، وطحنها ، وتعبئتها .

وبما أن ينبع متعددة المحاصيل الزراعية ، وخاصة النخيل التي تعددت أنواعه ولعل كثرته جعل منه الغذاء الرئيسي لما يحتويه من قيمة غذائية كبيرة ومافاض عن حاجتهم يبيعونه إلى سكان القرى المجاورة لهم ، وكذلك للحجاج الذين كانوا يكثرون من شرائه لحمله إلى بلادهم[٣] .

ومن أنواع التمور السكري ، والبرني ، والربيعة ، والصفاري ، والحلوة ، والفرخ ، والبيض ، وأشهرها وأغلاها العجوة[٤] .

أما وسائل الزراعة ، فقد كانت بدائية ، فالري يتم عن طريق السواقي والحرث يكون بواسطة المسحاه والأبقار ، وكانت المرأة تساعد الرجل وذلك بجلب الماء من الأماكن القريبة مثل العيون الجارية ، ويكون بواسطة القرب ، وتساعد المرأة في الرعي ، والاحتطاب ، وتوفير الغذاء للماشية ، ويهتم أهالي ينبع بتربية المواشي مثل الماعز ، والضأن ، وأهم مناطقها منطقة الأجرد ، كما يهتمون بتربية الجمال حيث يعتمد المزارع عليها في حمل محصوله إلى الأسواق ، وعلى الدواب أيضا[٥] .

---

(١) البكري : معجم مااستعجم ، ج٣ ، ص٨٣٦ .

(٢) البشاري : أحسن التقاسيم ، ص٩٣ ، الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٥٩ .

(٣) السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ، ص٢٧٥ .

(٤) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٥٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص١٦٠-١٦١ .

المبحث الرابع

الصيد

وبحكم وقوع ينبع على ساحل البحر الأحمر الذي اشتهر بثروته السمكية ، الأمر الذي جعل أهله يبرعون في حرفة الصيد ، والتجارة بالثروة السمكية ، وذلك بالقرب من الساحل الشمالي للميناء(١) .

ويبدو أن وجود السفن وقوارب الصيد يدل على ارتباط المدينة ، وأهلها بالبيئة البحرية اقتصاديا منذ نشأتها(٢) .

حيث يؤكد البلادي أن الساحل الشرقي للبحر الأحمر غني بالثروة السمكية المتنوعة ، والتي تبلغ حوالي خمسمائة نوع ، مما أدى إلى اعتماد أغلب السكان في معيشتهم عليه(٣) ، ويقام سوق للسمك قرب الشاطئ لتنظيفه وبيعه ، وحتى توزيعه على المناطق المجاورة . كما يقوم البحارة باستخراج الأصداف ، وعمل الشباك وصناعة الجلاب ، والقوارب من الأخشاب ، والتي تجلب من المناطق المجاورة(٤) ، وهناك قبائل متعددة تعتمد في معيشتها على صيد السمك ، ومنها قبيلة حرب(٥) . وللمنطقة شهرة كبيرة في وفرة الصيد وتعدد أنواعها ، فكان للجار ومعه ينبع دور كبير في تزويد منطقة الميناء بتلك الثروة السمكية المتعددة الأنواع وكثيرة الكمية فهي تغطي منطقتها بكل ماتحتاج ، وتزود المناطق المجاورة والقريبة منها(٦) . ويؤكد الجاسر باشتهار الجار بالوفرة السمكية مستدلا بالأبيات الآتية لأحد شعراء الجار حيث يقول في إحدى قصائده :

---

(١) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص٢٢ ، علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص١٩٢ .

(٢) الرويني : مرجع سابق ، ص٣٣٦-٣٣٧ .

(٣) البلادي : نسب حرب ، ص١٩٤ .

(٤) إبراهيم رفعت : مصدر سابق ، ج١ ، ص٢٢ ، السليمان : مرجع سابق ، ص١٩٢ .

(٥) البلادي : نسب حرب ، ص١٩٤ .

(٦) المجلة العربية ، العدد ١٦١ ، السنة ١٥ ، جمادى الثانية ١٤١١هـ ، ص٢٤ .

لريح الخزاعى بين قملى ومسمل   إذا ضربت يوما وجـال جديلهـا
شفاء لنفس ليس الريح باللـوى   لوى الخبت والحيتان يغلي صليلها[١]

ويؤكد وجود منطقة الجار ، أو بالقرب منها مسلخة السمك الذي يصيده الحواتون[٢] من بحر الجار ، وهي أرض يعلو ظهرها شئ يشبه الدهن في لونه الأصفر الفاقع اللون ، ويبدو أنها مسلخة السمك لأن الخطيب يذكر بعض الاحتمالات في أنها ربما تكون مسلخة الذبائح بعد ذبحها ، وتركها لتلك الآثار الدهنية[٣] ، ولكن يبدو لي أنها المسلخة كما ذكرت ، وخصوصا وقوعها بالقرب من الميناء في منطقة الجار ، وهذا مانشاهده الآن في وجود مسلخة السمك ، أو سوق السمك بالقرب من البحر حتى يسهل على الصيادين بيعه في حينه ووقت خروجه من البحر .

وكانت وسائل الصيد في ينبع بدائية ، وهي عبارة عن السنارة ، والخيط ، وتمسى بالجلب ، وهناك مصايد أخرى تسمى المهلك ، وهو عبارة عن أقفاص دائرية مصنوعة من السلك الحديدي ، أو من خوص النخيل ، وهي ذات ثقوب ، ويصاد به السمك الصغير الذي يسمى بالسردين .

ووجود البحر يدل دلالة كبيرة على الاستفادة من ملحه أيضا وهو أمر طبيعي ، فيستخرج الملح من الملاحات القريبة من البحر ، ويجفف ، وينقى ، ويوزع على قرى ينبع ، والمناطق المجاورة لها[٤] .

---

(١) المجلة العربية العدد ١٦١ السنة ١٥ جمادى الثانية ١٤١١هـ ، ص٢٤-٢٥ .

(٢) الحواتون : هم الصيادون الذين يقومون بصيد الأسماك في المنطقة ، ويطلق على السمك في اللغة لفظ الحوت انطلاقامن قوله تعالى : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سورة الكهف : آية رقم ٦٣ .
الخطيب : مرجع سابق ، ص١٩ .

(٣) مرجع سابق ، ص١٨ .

(٤) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٢٩ .

ويظهر لنا أن تعدين الملح وبيعه كان من الحرف الرئيسة التي اشتغل بها الأهالي في ميناء ينبع ، وهذه الحرفة سهلة الممارسة ، حيث تقوم على حفر أحواض ضحلة في الأرض التي يقال عنها "السبخة" حتى الوصول إلى الماء المالح ، وهو غير بعيد من العمق ، بسبب قرب الموقع من البحر ، ثم يترك الماء تحت حرارة الشمس التي تعمل بدورها على تبخيره ، تاركة في قاع الحفرة طبقة من ملح الطعام الجيد ، الذي يتم جمعه في أكياس صنعت من الحصير . وحرفة استخراج الملح ــ وهو من الضروريات ــ تعد من الحرف المهمة التي ربما زاولها الأهالي في ينبع لسد حاجة المدينة منه ، ثم المتاجرة به مع المدن والقرى الداخلية وفي مقدمتها المدينة المنورة التي كانت تعتمد على ميناء ينبع في سد الكثير من حاجياتها .

يؤكد هذا القول ماذكره أحد المؤرخين من أن الأيوبيين ومن بعدهم المماليك اتخذوا من مدينة ينبع ميناء للمدينة المنورة "لأنه أحسن موقعا من الجار"(١) .

ومما لاشك فيه أن اقتصاد ينبع اعتمد بشكل ملحوظ على الرسوم التي كان يفرضها حكام هذا الثغر ــ شأنهم في ذلك شأن بقية الموانئ البحرية الأخرى الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر كجدة ورابغ والشعيبة وغيرها ــ على المراكب الأجنبية التي كانت ترسو في ميناء ينبع ، وتبحر منه فضلا عما كان يفرضه حكامها من رسوم إضافية على التجارة البرية التي ترد إلى ينبع بهدف تسويقها إلى الخارج عن طريق مينائها . وتبعا لذلك نشطت في ينبع حركة الاشتغال بالنقل سواء البحري الذي يتم على متن السفن أو البري بواسطة الجمال وغيرها من الدواب التي تستخدم في النقل البري آنذاك

---

(١) انظر : أحمد شرف الدين : المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية ، ص٣٨ ، طبعة الرياض ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

بين ميناء ينبع والمدن الداخلية في الحجاز ، وفي مقدمتها المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة .

ولقد مهر الصيادون في ينبع في صناعة قوارب خفيفة ذات ألواح مرنة تخرز وتخاط بليف شجرة (النارجيل) جوز الهند ، بالإضافة إلى مهارتهم ومعرفتهم لدروب البحر وأنوائه وتعاريجه وكانوا في منتهى الحذر من القروش المتوحشة التي تطفو قريبا من صفحة البحر ولكنها مختفية توقعا للفريسة ، وكان الصيادون حذرين في صيدهم فلايسلكون مسالك طرق البحر البعيدة خوفا من الأمواج العالية والشعاب المرجانية المدببة ، وكان الصيد يتم بالنهار فقط ، ولايصاد بالليل لصعوبة تعاريجه والخوف من الشعب المرجانية والرياح التي قد تدفعهم إلى داخل البحر[١] .

كما كان بعض السكان من مهرة الصيادين الغواصين يعمل في استخراج المحار بحثا عن اللؤلؤ[٢] .

ويطلق الصيادون في ينبع على قوارب الصيد (الهورى) ، كما كان الصيادون يشتغلون بنقل الأمتعة من المراكب الكبيرة (الجلاب) عند رسوها على بضعة أمتار من الساحل ويطلقون على المراكب التي يستخدمونها في نقل الأمتعة (الناوري) .

ويصيد الينبعيون أنواعا كثيرة من البحر الأحمر ، ويهتمون بتجفيف جزء كبير منه في الشمس بعد وضع كمية كبيرة من الملح عليه حتى لايفسد ، ويتم بيعه في دكاكين خاصة ، ويجد سوقا رائجة لبيعه لأن الناس تحب هذا

---

(١) الحميري : الروض المعطار ، ص٤٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٢٠ .

النوع من السمك المجفف بالملح[١] ، ومازال هذه التجارة مزدهرة حتى الآن ويتم صيد أنواع متعددة من الأسماك كالمرجان ، وسمك موسى ، والهامور ، وسمك المكرونة ، والجمبري (الربيان) ، وقشر البياض ، والكابوريا ، والبوري ، والسردين ، وسمك القرش الصغير .

---

(١) شاهدت الباحثة هذه المحلات التي يباع فيها السمك المجفف بالملح ، وقد قامت بالتقاط صورة فوتوغرافية لدكان منها ، وتوجد هذه الصورة في ملاحق البحث .

المبحث الخامس

الصناعة

اشتهرت ينبع والمنطقة المحيطة بها منذ العصور القديمة ببعض الصناعات البيئية ، ووجود المواد الخام ، وخصوصا صناعة الزجاج ، والخزف ، وقد وجد الكثير من أطلال تلك المصانع وخصوصا في الجار (البريكة) جنوب غرب بدر[١] ، فوجود آثار ، وقطع من الزجاج ، والخزف المتناثرة فوق التلال لهو دليل على وجود بعض صناعات الخزف ، والزجاج ، وإن أزيلت معالم تلك المصانع ، أو لم يبق لها آثار ، أو حتى أطلال بحكم الزمن .

وهناك الكثير من المعادن التي ساعدت على وجود بعض الصناعات ، فالمعادن من أهم خامات التصنيع مثل الذهب حيث كانت ينبع منطقة تعدينه ، وخصوصا بين ينبع والمروة[٢] ، فوجود الذهب سهل قيام الصناعات التي تعتمد عليه ، كصناعة المشغولات الذهبية ، وغيرها ، ولقد وجد معدن الذهب بكيمات وافرة مما أدى إلى استثماره تجاريا ، لرخص ثمنه نوعا ما عن مثيله في البلدان المجاورة . هذا ، وقد وجد في المنطقة بعض الأطلال المعمارية ، وبقايا أبنية متعددة الأشكال ، والأنواع ، ومنها مواقع الأفران التي اشتهرت بها المنطقة[٣] ، فوجود الأفران الكثيرة ماهو إلا دليل على ازدهار كثير من الصناعات القائمة هناك ، وهي صناعة الزجاج ، والخزف ، والتي تحتاج إلى تلك الأفران ، وتتناثر على أرض المنطقة كثير من قطع الخزف المكسور والذي كسا منطقة واسعة من الأرض تبلغ مئات الأمتار .

هذا بالنسبة للمصانع وآثارها إلى جانب بعض المصنوعات البدائية ، والأساسية والتي يحتاجها مثل هذا المجتمع الذي جمع بين البداوة ، والحضارة .

---

(١) الأنصاري : بين التاريخ والآثار ، ص٢٩ .

(٢) المقدسي : مصدر سابق ، ص٩٦ .

(٣) مجلة العرب ، العدد ١١ ، جماد الأول ، سنة ١٣٩٠هـ .

ولقد قامت بعض الصناعات على المواد الأساسية في البيئة الصحراوية وعلى سبيل المثال تلك الصناعات القائمة على منتجات النخيل ، والذي يعتبر من أكرم الأشجار ، فقد عملوا من الجريد أسقفا لمنازلهم ، وأعمدة لها ، ومن جذوعها عملوا المكاتل ، والقفف ، والمكانس ، والحصير ، والأطباق[١] . ومن خوصها أيضا المراوح ، والحصر ، وتصنع البسط ، والتي تصدر إلى خارج ينبع وخصوصا الأنواع الصوفية والتي تنسج من صوف الغنم[٢] . ويصنع أيضا الحبال ، والزنابيل ، وغيرها من نواتج النخيل[٣] ، كما استخدموا النوى علفا للحيوان .

كما قامت على خدمة استخراج اللؤلؤ من الأصداف البحرية صناعة الحلي ، والمجوهرات والمشغولات الذهبية المطعمة به ، كالعقود ، والخواتم ، والأقراط ، والخلاخيل . كما راجت الصناعات البحرية لخدمة الميناء وحرفة الصيد مثل الفخاخ ، والشباك ، وغيرها[٤] ، حيث كانت وسائل الصيد البدائية وكانت تصنع المهالك[٥] للصيد . وأما السفن ، فقد كانت تنتشر صناعتها في السواحل ، وبأحجام مختلفة حيث تجلب بعض الأخشاب الأساسية من منطقة بواط ، والأجرد ، وأنواعها متعددة منها مايستخدم لنقل الأمتعة من السفن والتي ترسو بعيدا من الميناء ، ومنها مايستخدمه الصيادون للصيد ، ومنه مايستخدم في الشحن من الموانئ القريبة ، ومنها مايستخدم في الشحن من

(١) المالكي : مرافق الحج ، ص٤٣-٤٤ ، الشريف : مكة والمدينة ، ص٣٥٧-٣٥٨ .

(٢) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٦١ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص٣٢١ ، المالكي : المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص٢٧٨ .

(٥) المهلك هو عبارة عن قفص دائري من السلك ، أو خوص النخيل وتكون ذات ثقوب متعددة . انظر الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٢٩ .

الموانئ البعيدة[١] .

وعرف الينبعيون صناعة الجلاب وهي سفن خاصة بالإبحار في البحر الأحمر تتوافق مع طبيعته ومع قوة رياحه ، يقول ابن جبير عنها : "والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ، لايستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النرجيل ، يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر من عيدان النخيل فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لايصرفون في المركب المسمار"[٢] .

ولقد تنبه أحد المؤرخين القدامى إلى تلك الصناعة الدقيقة فيقول : "أن مراكب البحر الرومي والعربي كلها ذات مسامير ، أما المراكب المخيطة بليف النارجيل فلاتكون إلا في البحر الحبشي (يقصد البحر الأحمر) ومراكب البحر الحبشي لايثبت فيها الحديد ، لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطليت بالشحوم والنورة"[٣] .

وقد سبق أن بينا في المبحث الأول من هذا الفصل أن السفن الجلاب كانت تترك ميناء جدة وتبحر إلى ينبع عند حدوث أي عطب فيها ، أو إصلاح في ألواحها ومساميرها ، لمهارة الينبعيين في ذلك من ناحية ، ولرخص أسعار الإصلاح من ناحية أخرى .

---

(١) الخطيب : مرجع سابق ، ص١٣٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص٤٧ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص١٦٣ .

وازدهرت صناعة المنتوجات الحيوانية ولاغرو في ذلك فالبداوة تشكل جزءا كبيرا من نشاط المجتمع داخل الإقليم ، ولوجود أعداد غفيرة من الإبل ، والأغنام ، والماعز ، فقامت صناعة مستخرجات الألبان كالزبدة ، والقشدة ، ومختلف أنواع الأجبان ، والألبان ، وعلاوة على الاستفادة من لحومها فلقد قاموا بدباغة الجلود ، والاستفادة من أوبارها وأصوافها عن طريق غزله ، وعمل السجاجيد الصوفية المتعددة الأشكال ، والأنواع .

من هنا نجد أن الصناعة ارتبطت بالبيئة ، ونوعية الخامات الموجودة بها ، بالإضافة إلى وقوع ينبع على الساحل مما أدى إلى ازدهار كثير من الصناعات البحرية ، والاستفادة من خيرات البحر الأحمر ، فازدهرت حرفة الصيد ، واستفاد السكان في الغذاء من الثروة السمكية المتعددة الأنواع التي تصاد من البحر من ناحية ، كما يتم تصدير جزء مما يفيض عن حاجة السكان إلى الأسواق الداخلية من ناحية أخرى[١] .

كما انتشرت الصناعات اليدوية في بعض البيوت كالحياكة ، والتطريز ، وكانت بعض البيوت تشتهر بفن التطريز ، ونقش الثياب ، وكانت تلبي حاجة المجتمع النسائي حيث كان للثوب المطرز قيمة كبرى في بعض المناسبات ، وكلما زادت كمية النقش والزخرفة كان ذلك دليلا على الثراء والترف ، كما انتشرت صناعة الفخار بأنواعه وأشكاله المتعددة تلبية لحاجة المجتمع في الاعتماد عليه ، واستخدامه في حياتهم المعيشية ، وقد استفادت ينبع كثيرا من المناطق التي حولها وخصوصا المدينة المنورة حيث الجاليات الأجنبية المختلفة الأجناس من الأحباش والروم والفرس والشوام والمصريين الذين دخلوا ، وعملوا بالصناعات ، ونقلوا خبراتهم إلى مناطق المهجر في الجزيرة العربية ، وشاركوا النهضة الصناعية المناسبة للبيئة ، وتلبية لحاجة المجتمع

---

(١) المالكي : مرجع سابق ، ص٤٧ .

فازدهرت بعض الصناعات كصناعة الأسلحة كالسيوف ، والخناجر ، والدروع والآلات الزراعية ، والمنسوجات الحريرية ، بالإضافة إلى أنـــواع العطـــارة ، والروائح العطرية[١] ، والتي اعتمدت على الأزهار والتي اشتهرت بزراعتهـــا المنطقة ، ومن ثم تصريفها إلى المناطق المجاورة لها وتموين ماحولها بمـــا تحتاج إليه[٢] .

كما عرفت صناعة الرحى اليدوية من الحجارة التي تجلب من الجبال[٣].

كما عرفت ينبع بعض الصناعات الخشبية وكان بعضهـــا يتـــم تغطيتـــه بصفائح من الحديد كالأبواب[٣] حيث توجد الأخشاب من الأشـــجار المحليـــة ، وأخشاب قد جلبت من المناطق المجاورة ، وغيرها ، دلنا ذلك صناعة القوارب قديما[٤] .

---

(١) السمهودي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٤٣، ٥٤١ .

(٢) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص٢٥٤ .

(٣) السمهودي : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٢٣ .

(٤) الرويثي : الموانئ السعودية ، ص٣٤١ .

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية في ينبع

المبحث الأول

المواقع الأثرية الحربية
قلاع ، حصون ، أبراج ، أسوار

مما لاشك فيه أن الحضارة الإسلامية أمدت الفكر الإسلامي بوسائل الرقي والتقدم .

وهي تراث من القيم في الثقافة والعمارة قل أن تضاهيها فيه الحضارات السابقة .

والتراث الإسلامي في جميع بلاد الإسلام متناغم المعالم ، واضح الصورة ، قوي البنيان .

وتتضح في مدينة ينبع مظاهر حضارية في فن العمارة الإسلامية تتشابه مع مثيلاتها في العالم الإسلامي .

ويظهر ذلك التراث واضحا في فن العمارة الأيوبي الحربي والمدني حيث تتشابه القلاع والحصون مع قلاع المدن الإسلامية الأخرى في الشام ومصر في التصميم المعماري للأسوار والأبراج والأبواب والمزاغل .

كما تظهر العمارة المملوكية واضحة في العمارة المدنية والعسكرية مع مثيلاتها في القاهرة ودمشق ، ويظهر ذلك التأثير في العمارة المدنية بصورة أوضح في الآثار المدنية بينبع من دور وقصور وربط .

وتزين المشربيات (الرواشن) واجهات البيوت ، يجملها فن الأرابيسك والخشب المخروط بأشكاله الجمالية ذات القيمة الفنية العالية ، ويتضح ذلك في الصور التي تم التقاطها لهذه الأشكال المعمارية ذات القيمة الفنية والجمالية .

كما شاركت ينبع في النهضة الثقافية بالحجاز حيث كانت محطة هامة من محطات طريق الحج المصري الشامي ينزل فيها علماء الإسلام يحاضرون في العلوم الدينية واللغوية اثناء وجودهم في ينبع وقبل رحيلهم إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ، كما كانت مساجدها عامرة بالعلماء الطلاب في مختلف الدراسات الشرعية واللغوية .

ولقد برز كثير من العلماء والمؤرخين والشعراء بمدينة ينبع وشـــاركوا في مسيرة النهضة الثقافية بالحجاز .

وهذا الفصل بمباحثه الحضارية يتناول الإطار الحضاري لبعض المواقع الأثرية والثقافية ، ومن نافلة القول أن نؤكد على أن المشكلة التي واجهتنا في المباحث التاريخية من قلة المادة وندرتها في المصادر التي بين أيدينا ، هـــي نفسها التي تقابلنا بصورة أوضح في المباحث الحضارية حيث المادة أشد ندرة بالإضافة إلى أن معظم هذه المعالم الحضارية المعمارية قد أصابتهـــا عـــوادي الزمن ، وأصبح معظمها أطلالا بالية لقلة العناية الأثرية بها .

شاهد بعض الرحالة في العصور الوسطى أثناء زيارتهم لينبع بعض الحصون والقلاع ، ونستدل على ذلك من خلال وصف البشاري حين قال : "ينبع حسنة الحصن"[١] .

ويقع بين المروة ، وينبع حصن يسمى العيص[*][٢] ، وهو حصن من أعمال ينبع[٣] ، وكان الغرض الأساسي لبناء هذه الحصون الدفاع عن المدينة والميناء إذا ماتعرضتا لأي هجوم وخاصة أن الصليبيين قد بدأوا يفكرون في غزو مواني البحر الأحمر ، وكانت لهم محاولات في عيذاب والطور وغيرهما بالإضافة إلى تحصن الثائرين من بني الحسن بها ضد مناوئيهم .

ومن الحصون أيضا ماوجد في وادي الصفراء وهما حصنان يسميان التوأمان ، وكذلك حصن آخر يعرف بالحسنية ، وآخر يسمى بالجديد[٤] .

ومنها ماوجد في بدر قرب ينبع ، وفي مكان مرتفع عند مدخل بدر[٥] .

وأشار ابن جبير إلى وجود الخندق الموجودة آثاره في الجهة الغربية[٦] ولعل إشارة ابن جبير إلى جهة الغرب من المدينة المقصود بها ينبع لأنها تقع غرب المدينة المنورة .

---

(١) البشاري : أحسن التقاسيم ، ص٨٣ .

(*) العيص بالكسر موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له ذنبان العيص وهو فوق السوارقية وقيل : هو عرض من أعراض المدينة على ساحل البحر الأحمر . انظر : البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٦ ، ص٢٠٠ ، البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٩٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٧٥ .

(٣) الجاسر : مرجع سابق ، ص١٤ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص١٥ .

(٦) ابن جبير : مصدر سابق ، ص١٧٥ .

وكانت للقلاع والحصون استخدامات متنوعة ، فهي تستخدم كمعسكرات للحاميات التي ترسل إلى ينبع لحماية المنطقة من غارات البدو ، وصد أي هجوم خارجي على المدينة ، كما زودت بالشون الضخمة والمخازن التي تحفظ فيها الغلال والمؤن التي ترسل من مصر سنويا لتزويد قوافل الحج[١] .

وكانت الحصون تبنى بواسطة البنائين المهرة الذين يستقدمهم الأيوبيون والمماليك من بعدهم ، وتبنى أسوارها قوية عالية ، حتى تحمي القوات المرابطة بها ، وكان يتم تجهيزها براجمات السهام وبالأسلحة المختلفة كما تتكون من سراديب ومخابئ للمؤن والمياه ويحفر ببعضها الآبار ، وكانت غالبية المؤن تصل من مصر ، حتى لقد غرقت سفينتان محملتان بالمؤن الخاصة بالعمارة البحرية قرب ساحل ينبع[٢] .

وقام جابر الخراشي[٣] حينما استوطن ينبع ببناء قلعة وسور محكم لها[٤] .

وذكر الخطيب أن هناك العديد من القلاع الممتدة ومنها :

١ ــ قلعة في مدخل ينبع من ناحية السبخة أي قريبة من البحر ، وتعتبر جزءا من سور ينبع القديم .

---

(١) الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، ص١٢٨ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ص٣٩٥ .

(٣) جابر بن عبد الله الخراشي ، ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة ، عمل بالتجارة وتردد على مكة عدة مرات ورزق فيها ، وقام بخدمة السيد حسن بن عجلان وكان نظير الشاد له في أمور مكة ، واشتهر بالأمانة ، والحرمة ، وحسن المباشرة وقرر لبني حسن الرسوم لكن دب خلاف بينه وبين ابن عجلان واتهمه بموالاة ابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان الذي هجم على مكة في جمادى الآخرة وعلى جدة فقام جابر بإصلاح الأمر لكن لم يفد مما أدى إلى شنقه على باب الشبيكة .

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٢٣-٢٤ ، الفاسي : مصدر سابق ، ج٣ ، ص٤٠١ ، ابن فهد مصدر سابق إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٤٧٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٥١ .

٢ ــ قلعة على محاذاة مدخل ينبع في رأس الموضع المسمى أبو منقار.

٣ ــ قلعة خارج سور ينبع بجانب المقبرة ، وتقع شمال شرق ينبع بجانب مقبرة السميري .

٤ ــ قلعة بجانب المقبرة وتسمى اليوم بمقبرة الصريف[١] .

٥ ــ قلعة في شمال باب الجنائز غربي سور ينبع القديم[*] .

ومعظم هذه القلاع والحصون ، لم يبق منها إلا أطلال بالية ، ولم يبق منها إلا بعض الجدر المتهدمة ، أو العقود المنصوبة ، أو قنوات المياه الجافة كما وجدت حولها بعض الملتقطات الأثرية ، والقليل منها بحالة معمارية سليمة نوعا ما ، ومن هذه القلاع التي أجريت عليها دراسات أثرية حديثة[٢] :

قلعة مدسوس : وهي تقع على بعد حوالي ٥ كم من الطريق الرئيسي لقرية سوق السويق ، ١٤ كم شمال شرق الطريق الرئيسي على الجانب الأيمن لقرية البقاع ، والقلعة مشيدة على قمة أحد الجبال بقرية سوق السويق.

وهي قلعة قديمة ترتفع فوق قمة أحد الجبال مشيدة من الأحجار البركانية السوداء والمونة ، وسمك الجدار حوالي ٨٠سم ، وهي عبارة عن مبنى مثلث الشكل ، وهي ذات مدخل على شكل سرداب يقع في الجهة الجنوبية

---

(١) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص٤٥ .

(*) توجد بالملاحق صورة فوتوغرافية لبقايا أسوار ينبع وهي تشتمل على أبراج عالية ومايزال جزء كبير من السور بحالة معمارية جيدة ، وقد التقطت الباحثة هذه الصورة أثناء زيارتها لينبع .
وجميع هذه القلاع أزيلت بحكم التوسعة المعمارية لينبع وأصبح وجودها الحربي لالزوم له .
الخطيب ، ص٤٥ .

(٢) راجع تقرير اللجنة الأثرية لمعاينة آثار ينبع والتي شكلت بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ ، ص١٣ ، إصدار الجمعية الجغرافية بالمنطقة .

من القلعة ويؤدي إلى فناء مكشوف ، ويوجد بالقلعة برجين : أحدهما يقع في جنوبها والآخر في الجهة الشمالية منها ، ومما يدل على تقدم العمارة الحربية آنذاك ، أن البرج الشمالي عبارة عن بناء مستدير وله ضلع مستقيم ، أما البرج الجنوبي ، فتم بناؤه على شكل مربع ، وترتفع جدران القلعة حوالي من ٣ إلى ٤م تقريبا ، وتتخللها فتحات صغيرة كانت تستخدم لأغراض دفاعية ، ومما يدل على متانة القلعة وحصانتها ، وصعوبة اقتحامها ، أن جدران القلعة تمتد من أسفل القلعة إلى أعلى سطح الجبل ، أما الجدار العلوي فيمتد حتى يصل قمة الجبل حيث يوجد جدارين يحيط بهما عند قمة الجبل عدة بنايات مستطيلة الشكل ، والبعض الآخر منها مستطيل الشكل ، وجميعها مشيد من الأحجار والمونة(١) .

وتدل الدراسات الأثرية الحديثة لطراز البناء على أن القلعة منشأة في العصر المملوكي .

ومن الأبراج العسكرية الموجودة في منطقة ينبع ، برج الحميمة ، وتدل الدراسات الأثرية لطرز العمارة أنه بني في عصر المماليك الشراكسة ، للدفاع عن المدينة باعتبارها إحدى الموانى الهامة عبر الطريق التجاري البحري ، ويقع هذا البرج على بعد حوالي ٦,٥كم جنوب العيص ، وبالقرب من قرية مهجورة تدعى العين(*) ، وهذا البرج عبارة عن بناء من الأحجار البركانية السوداء يعلو قمة أحد الجبال وهو على شكل مربع ولايزال قائما حتى الآن ، وارتفاعه حوالي سبعة أمتار ، وطول ضلع قاعدته حوالي ٢٥ مترا ، وتدل الحفريات التي حدثت قريبا بالمنطقة على وجود بقايا جدران قديمة عند قاعدة البرج .

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(*) هجرت كثير من الأماكن نتيجة للجفاف ، وتوجد بعض الصور بسجل الملاحق تبين جفاف بعض الآبار وواحات النخيل .

ومن أشهر آثار المنطقة قلعة الفرع بإمارة[1] العيص بمنطقة ينبع البحر ، وهي تقع على بعد ٤كم جنوب برج الحميمة ، الذي سبقت الإشارة إليه ، وتقع القلعة وسط منطقة الحمم البركانية ، التي تمتد من الحميمة شمالا وحتى قلعة الفرع جنوبا .

وتتكون القلعة من طابقين رئيسيين ، لم يبق من معالم الطابق العلوي سوى بقايا جدران ، بالإضافة إلى بعض الفتحات ، التي لاتزال معالمها واضحة للآن ، ويحيط بالقلعة سور من الحجارة البركانية السوداء ، يمتد على طول الجبهة الغربية منها ، أما الطابق السفلي فهو عبارة عن فناء مكشوف أطوالها ١٩x٢٠ مترا ويحيط بها من جميع الجهات غرف جانبية عددها ست عشرة غرفة ، والجهة الغربية من الحصن تتخللها فتحات طولية كسيت بالجص وهي بمثابة نوافذ صغيرة كانت تستعمل لأغراض دفاعية ويبلغ عددها ثمان فتحات[2] .

أما مداخل الغرف ، فعبارة عن فتحات صغيرة ذات عقود ، وتبرز في الجهة الغربية دعامات حجرية يرتكز عليها الجدار الغربي من القلعة بأكمله ، ويتوسط هذه الدعامات مدخل كبير ذو عقد ، أما عدد الغرف الجانبية الواقعة في هذه الجهة فعبارة عن ثلاث غرف كبيرة يتوسطها درج بني فوق عقد من الآجر المحروق[3] يؤدي بنا إلى الطابق العلوي من القلعة ، أما الجهة الشمالية فتتكون من عدد من الغرف الجانبية التي يبلغ عددها ثلاث غرف ، يدخل إليها من مدخل ذو عقد ، ويقع بها باب القلعة الرئيسي ، أما الجهة الجنوبية ففيها فتحات صغيرة يبلغ عددها ثمان فتحات وكلها مكسوة بالجص ،

---

(١) تقرير الجمعية الجغرافية لمعاينة آثار ينبع ، ص١٦ .

(٢) تقرير لجنة الآثار ، ص٢٠ .

(٣) تقرير اللجنة الأثرية المشكلة من الجمعية الجغرافية بينبع بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ ، ص١٧ .

وتنتشر هذه الفتحات في جميع واجهات القلعة ، وبالقرب من السور الخارجي برج مستدير الشكل من الخارج ولكنه مربع الشكل وهي تحتاج إلى ترميم أثري متخصص[١] .

وشمال قرية العيص ، تقع بناية ضخمة من الحجر على شكل دائرة يبرز منها من الجهة الغربية بناء مستطيل الشكل يبلغ طوله حوالي ٧x٥ مترا وهي عبارة عن برج للمراقبة ، وتوجد على بعض الأحجار بعد الرسوم ويطلق السكان المحليون عليه اسم القصر ، ويبدو أنه كان يستخدم لمراقبة وصول السفن إلى قرب شواطئ الميناء ، كما يستخدم في عمل الإشارات المتعارف عليها بين السفن وسلطات الميناء[٢] .

كما توجد بقايا قلعة ضخمة في إمارة العيص بينبع البحر تقع على بعد ٨,٥كم من القرية ، ولكن نسبة الهدم في السور الخارجي كبيرة ومع ذلك يحيط بالقلعة خمسة أبراج لاتزال واضحة المعالم إلى الآن . ويبلغ سمك الجدار حوالي ١,٥متر مما يدل على قوة التحصينات حتى تتحمل ضربات المجانيق والسهام النارية وغيرها من آلات الحصار .

أما جبل اللؤلؤة بينبع النخل ويقع على بعد ١٤كم جنوب غرب قرية السويق ، ويضم الجبل مجموعة من أحجار الكوارتز ، ويبدو أن تسمية الجبل بهذا الاسم يرجع لوجود هذه المادة بكثرة فوق سطحه . وتوجد على هذا الجبل عدة بنايات أبرزها بناية مستطيلة الشكل يبلغ طولها حوال ٦x٦ متر وسمك الجدار حوالي ٦٠سم وهي مشيدة من الأحجار الصغيرة والمونة وفي كل زاوية من زوايا البناء دعامة مرتفعة بحوالي ثلث الجدار ، ويرتكز عليها سقف البناء المقبى والذي لايزال بحالة جيدة ، وتضم القلعة آثارا إسلامية

(١) تقرير اللجنة الأثرية المشكلة من الجمعية الجغرافية بينبع بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ ، ص١٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أدخلت على البناء ، كما تضم مسجدا ولكنها لاتشكل تنافرا مع العمارة القديمة ومن العجب أنه قد عثرت على نقوش قديمة على بعض صخور الجبل ربما كانت نقوشا ثمودية[١] .

ومن القلاع الإسلامية المملوكية بينبع النخل قلعة الحلية وهي تقع على الجانب الأيمن من الشارع الرئيسي المؤدي إلى قرية سوق السويق وعلى قمة جبل صغير . وهي عبارة عن مبنى مستطيل الشكل ، مشيد من الأحجار البركانية السوداء والمونة ، وهي ذات مدخل يقع في الجهة الجنوبية وهو عبارة عن باب يعلوه عتب مثبت من جذوع أخشاب النخيل وترتفع عليها الأحجار ، ويؤدي إلى ممر ضيق ، يحيط به عدد من الغرف الصغيرة ، ويلاحظ أن معظم مداخل الحجرات يعلوها عتب من الخشب يعلوه الأحجار ، وتوجد عدد من الفتحات الصغيرة استخدمت لأغراض دفاعية ، وجميع الغرف والممرات مكشوفة .

وكثير من هذه الحصون والأبراج في حاجة ماسة إلى دراسات أثرية حتى يمكن المحافظة على تراث هذه المدينة التي تعاقب على حكمها عدد من الدول بالإضافة إلى أهميتها كنماذج للتحصينات الإسلامية للدفاع عن المدن .

---

(١) المرجع السابق ، ص٣ .

المبحث الثاني

المواقع الأثرية الدينية
المساجد ، الجوامع ، الأربطة

نتيجة لطول الحقبة الزمنية في تاريخ ينبع نجد أن كثيرا من تراثها المعماري الديني قد اختفت معالمه ، واندثرت ولم يبق لها أثر وإن وجد فما هي إلا حطام ، أو بقايا آثار ، اللهم إلا القليل منها الموجود بحالة جيدة نوعا ما .

ومن تلك الآثار المساجد والتي هدم كثير منها وبعضها لم يعد له وجود وإنما ذكرت أوصافه وأخباره في صفحات كتب التاريخ ، ومنها مسجد العشيرة[١] وهو ببطن ينبع حيث ينزل الحاج المصري حين مجيئه ومغادرته[٢] ويضيف السمهودي مسجدا مشهورا بينبع هو مسجد في الصفراء[٣] حيث صلى فيه الرسول ﷺ ولكنه اندثر[٤] .

كما يؤكد لنا البكري بوجود مسجد آخر في ينبع صلى فيه الرسول ﷺ لما روي عن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب[٥] .

ويضيف الجاسر واصفا ينبع في فترة الدراسة بأنها قرية غناء ، وبها منبر[٦] ولعل وجود المنبر دليل على وجود المساجد فيها[٦] .

وقد وافانا الجزيري بوصف لمسجد العشيرة فقال : إن بجواره عينا جارية لكن لايعرف بهذا الاسم[٧] .

---

(١) العشيرة ذكرت في المقدمة وهي الغزوة التي غزاها الرسول ﷺ بين مكة والمدينة ، من ناحية ينبع انظر البغدادي :مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٩٣٤ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٤ ، ص١٠٢٥ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص١٤١٤ .

(٣) سبق ذكرها في الفصول السابقة .

(٤) وفاء الوفا ، ج٤ ، ص١٠٢٥ .

(٥) البكري : معجم مااستعجم ، ج٢ ، ص٦٥٦ .

(٦) الجاسر : المناسك وطرق الحج ، ص٥٣٨ .

(٧) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٤ .

وروى ابن زبالة[١] عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى في مسجد ينبع بعين يولا ، وهو من المساجد المقصودة والمشهورة[٢] .

وأغلب أهل ينبع كانوا على المذهب الزيدي ، وكان منهم قلة على المذهب الشافعي[*] منهم ابن زبالة وذويه .

واشتهرت جوامعهم بأنها بدون مئذنة ، فلايوجد في قراهم جامع بمئذنة يعلن عليها الأذان[٣] .

ويشير العبدري أن بينبع مسجدا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو يقع خارجها ، وقد وصفه بأنه بناء محكم جميل[٤] ، كما يوجد مسجد آخر ببدر لكنه صغير في بنائه جميل في شكله ، ومكانه في موضع مبرك ناقة رسول الله ﷺ عند نجيل القليب[٥] . ويبدو أن هذين المسجدين كانا موجودين أثناء قيام العبدري برحلته حوالي ٦٩٠هـ .

وقد أنشأ هلمان بن الأجود[٦] أحد أمراء ينبع جامعين سنة ٨٥٢هـ ، فقد تولى الأمارة في ينبع سنة ٨٤٩هـ[٧] كما يخبرنا عرام السلمي أنه قد

---

(١) ابن زبالة : هو محمد بن أحمد بن زبالة قاضي مدينة ينبع ، توفي سنة ١٥٥هـ .
انظر : النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١ ، ص٢٤٩ .

(٢) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٤ .

(*) المذهب الشافعي : نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله بن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي من بني المطلب بن عبد مناف وأمه يمانية من الأزد وكانت من أزكى الخلق فطرة ، ولد بغزة من أعمال عسقلان ١٥٠هـ وهو صاحب المذهب القديم في العراق والجديد بمصر ، وتعلم على يد كثير من العلماء وخاصة الإمام مالك ، وتوفي سنة ٢٠٤هـ ودفن بمقبرة بني عبد الحكم .

(٣) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٦-١٤١٧ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ،

(٥) نجيل القليب ، ذكرت سابقا .

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص١٦٥-١٦٦ ، العبدري : مصدر سابق ، ص١١٢-١١٣ ، البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص٢٧٨ .

(٧) الجزيري : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٤١٥ .

عشر في الجار على منبر وفي هذا تأكيد على وجود مسجد أو جامع يصلى فيه في هذه المنطقة[١] .

كما أشار الحميري إلى أنه يوجد في منطقة الحوراء[٢] مسجد جامع[٣] ويؤكد ذلك القلقشندي في وجود مسجد في الحوراء ، ويضيف أن بها ثمانية آبار عذبة[٤] ، وقد ذكرنا سابقا أن أهم القبائل في ينبع ، وأكثرها فخوذا ، وبطونا جهينه ، ففي ينبع مسجد لجهينة[٥] .

فوجود قبيلة جهينة دليل على أن المسجد مسمى باسم القبيلة ، وإضافة إلى تلك المساجد المعدودة ، والجوامع كانت هناك بعض الزوايا ، وتسمى مسجد وزاوية ، ومنها زاوية أبي علوان أنشأها قانصوه الغوري عام ٩١٥هـ والذي يعتبر آخر حكام المماليك ، وبقي المسجد إلى أن طور ، وزيد في توسعته في العهد السعودي وألحقت به مدرسة لتحفيظ القرآن[٦] .

كما أنشأ المماليك عددا من الأربطة[*] والتكايا في ينبع ليقيم فيها

---

(١) السلمي : أسماء جبال تهامة وسكانها ، ص٩-١٠ ، البشاري : أحسن التقاسيم ، ص٨٣ .

(٢) الحوراء منطقة قريبة من ينبع وتابعة لها وقد أوضحنا ذلك في الفصول السابقة .

(٣) الروض المعطار ، ص٢٠٥ .

(٤) القلقشندي : مصدر سابق ، ج٣ ، ص٤٤٥ .

(٥) الجاسر : المناسك وأماكن طرق الحج ، ص٣٩٨ .

(٦) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص١٨٣ .

(*) الأربطة : أبنية شاعت في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وازدهرت في عصر دولة المماليك ، والكلمة مأخوذة من قول الله تعالى في الآية الكريمة ﴿وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ الآيات . ومعنى رباط الخيل ، أي أنها معدة ومقيمة مع فرسانها انتظارا لأي تكليف بالهجوم أو الدفاع ، فكانت الأربطة مكانا معدا للإقامة ومجهزا يعيش فيه الفقراء وطلاب العلم والمجاورون والمتصوفة ، وكانت به مكتبة ومطبخ لإطعام المقيدين للإقامة فيه ، وينفق عليه من ريع الأوقاف وكان يقدم لرواده وجبة ساخنة يومية ، وملابس ونفقة خاصة في المواسم كرمضان والعيدين ، ومازال يوجد بعض هذه الأربطة - إلى الآن - في مكة والمدينة .

الحجاج الفقراء في موسم الحج ، كما يقيم فيها طلاب العلم الفقـــراء وبعـــض المتصوفة وكان بعضها خاصا بالنساء الفقيرات والأرامل .

وبعض القلاع الحصينة بينبع ، أدخلت عليها تعديلات واضافات معمارية إسلامية ، فعلى سبيل المثال قلعة جبل اللؤلؤة التي تضم عددا مــــن المبـــاني القديمة وبعض النقوش ، وأبراج المراقبة ، أدخل المسلمون بعــض المبـــاني ذات الطابع الإسلامي ومسجدا ويبدو من الدراسات الأثرية أنه يعود إلى مرحلة متقدمة حوالي أواخر العصر المملوكي .

وقد قامت الجمعية الجغرافية بينبع عام ١٤٠٢هـ بتكليف هيئـــة مـــن رجال الآثار الإسلامية للتنقيب والبحث في المنـــاطق ذات البقايـــا المعماريـــة والتي أشارت المصادر التاريخية إلى وجود بعضها ، وبعضهـــا عبـــارة عـــن أساسات معمارية وحوائط مجوفة (القبلة) مختلفة في الشكل والمساحة ، فضلا عن التنقيب في مناطق الآبار القديمة وقنوات المياه الملحقة بهذه الأبنية .

ويوجد بينبع عدد كبير من المباني الأثرية الرائعة ذات الطراز العربـــي الأصيل وكثير منها بشكل مدارس أو أربطة أو مبان حكومية مملوكية أو منازل لكبار الأغنياء ، وتظهر على واجهات العمائر أعمال الخشـــب الرائعـــة مـــن شرفات ومشربيات محلاة بالأرابيسك ومطعمة بالصدف ، ويبدو أن طبيعة الجو الجافة قد ساعدت على احتفاظ كثير منها بخصائصه المعمارية الرائعة .

وتوجد بعض الصور لهذه البيوت في ملاحق البحث(*) .

(*) تقرير الجمعية الجغرافية بينبع ، ص٢ .

قامت الباحثة بتصويرها أثناء زيارتها لينبع ، وسهلت لها الإدارات المختلفة زيارة بعضها وتفقدهـا ، وهي ترى أنها بحاجة إلى بذل كثير من العنايـة الأثريـة بهـا ، فهـي مصـادر هامـة مـن تـراث الـدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم الحجاز عامة وينبع خاصة .

وقد عثرت اللجنة على كثير من الملتقطات السطحية التي تبين أن هذه المواقع الأثرية تنتشر بها بعض القطع الفخارية والخزفية والسيراميك المختلفة الأشكال والأنواع والوظائف والتي يرجع معظمها إلى العصور الإسلامية ، ولقد عثر على مايأتي :

(١) قطع من الفخار الإسلامي الجيد الصنع مغطى بطبقة من البطانة الرتكوازية اللون تعلوها طبقة زجاجية شفافة Glaze ، وتشتمل بعض القطع على رسوم نباتية وهندسية ويرجع هذا النوع من الفخار إلى القرنين الثالث والخامس الهجريين (٩-١١م) .

(٢) قطع من الخزف الدقيق الصنع ذو أرضية بيضاء عليها زخارف نباتية بنفسجية اللون ، ويمكن إرجاع هذا النوع من الخزف إلى القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢-١٣م) .

(٣) قطع من الفخار الجيد الصنع ، المعروف بالفخار المطلي وهو مغطى بالمينا البنية والتركوازية الفاتحة والداكنة ويعلوها طبقة الطلاء الشفافة ومن المرجح أنها تعود إلى القرنين التاسع والعاشر الهجريين (١٥-١٦م) .

(٤) قطع من الخزف الذي عرفته العصور الإسلامية المتأخرة فيما بين القرنين العاشر والثاني عشر الهجريين (١٦-١٨م) أساس زخارفها رسوم نباتية متعددة الألوان (الأخضر ـ الأزرق ـ الأحمر) على أرضية بيضاء .

(٥) قطع من الفخار الخشن لآنية مختلفة الأشكال والاستعمالات قوام بعض زخارفها أشرطة عرضية تفصلها خطوط رفيعة تحصر بينها خطوط متعرجة غائرة ، كما تضم بعض الأشرطة أيضا نقاط غائرة ، ترجع إلى العصر الإسلامي المتأخر .

(٦) قطع من السيراميك الحديث ، الأمر الذي يشير إلى استمرار الاستيطان بهذا الموقع لعهد قريب .

(٧) قطع من الزجاج مختلفة الألوان والأشكال ، منها ثلاث قطع زجاجية سوداء اللون سميكة الشكل وقطعة واحدة رقيقة السمك ، وقطعتين من الزجاج الشفاف الشمعي السميك ، وقطعتين من الزجاج البنفسجي الفاتح تزينها خطوط دائرية متوازية ، هذا إلى جانب فص خاتم من الزجاج الأخضر اللون .

(٨) القطع المعدنية ، عثر على العديد من القطع المعدنية البرونزية (أو الفضية) والنحاسية من أبرزها الآتي :

(أ) عملة معدنية مستديرة (قطر ١٦مم) من البرونز أو الفضة بها ثقب ، وقد ضربت في قسطنطينية في سنة ١٢٢٣هـ ، وعلى الوجه الآخر طغراء السلطان الحاكم .

(ب) قطعة نحاسية ، قطرها ١سم ، ربما تكون عمله ، إلا أنها مطموسة المعالم ويصعب استبيان هويتها .

(ج) قطع نحاسية متعددة الأشكال والأغراض ، منها حافة آنية نحاسية (طاسة) تزين حافتها الداخلية رسوم قد تكون أحرف كتابة ، ويزينها من الخارج رسوم بسيطة على شكل فواصل منتظمة وخطوط متوازية .

(د) قطعة نحاسية عبارة عن جزء من حافة إناء مزخرف الحافة العليا شريط يضم دوائر منتظمة ، وشريط آخر سفلي يضم زخارف نباتية محورة ، مقاسها ٣,٥x٤سم وقطعة نحاسية أخرى ٢٠x١٣مم رقيقة بها رسوم هندسية بسيطة تكون شكل كمثرى مدبب الطرف بداخله نقاط صغيرة .

(هـ) جدار علبة صغيرة من النحاس ، عليه زخارف هندسية بسيطة قوامها خطوط متعامدة ومتوازية تفصلها خطوط مائلة ، الطول ٣,٥سم والعرض ٢سم ، والارتفاع ١سم .

(و) قطعة نحاسية مستديرة قطرها ٢٣مم محدبة السطح ، ربما كانت جزءا من مسمار كان يزين أحد الأبواب الخشبية .

(ز) قطعة نحاسية مثلثة الشكل طول الضلع ٣سم ، ربما تمثل جزءا من قفل لصندوق خشبي .

كما أثبتت عملية التنظيف لاحدى البقايا المعمارية أنهم كانوا يستخدمون في اسلوب التغطيات قطع من خشب الغضى الذي يستخدم كحطب للوقود أو خشب السدر الموجود في ينبع النخل ومنطقة المدينة المنورة أو من أشجار العتم المعروف في المناطق الجنوبية ، وضواحي مكة ، وترفع هذه القطع الخشبية مجموعة من أعواد الحلفا ، وهي من الأشجار التي تكثر في الوادي ، ثم تعلو أعواد الحلفا هذه قطع من الحصير وتأتي فوقها طبقة طينية مدكوكة ومتماسكة ، هذا إلى جانب استخدام أسلوب الأربطة الخشبية لتقوية الجدران وللربط بينها ، وقد تلاحظ وجود قطع من جذوع النخل وسط الأحجار التي كان مشيدا بها الجدران[١] .

كما أن الجدران مبنية من أنماط مختلفة من صخور البيئة ، أو الطين اللبن ، وهذا يدل على أن المباني الأثرية الدينية كالمساجد والجوامع والأربطة لم تتحمل التغيرات الجغرافية وعوامل التعرية مما عرضها للهدم واندثرت معالمها مع الزمن ، بخلاف القلاع والحصون والأسوار المبنية بالأحجار الكلسية أو البركانية السوداء ، ولذا يوجد كثير منها بحالة جيدة .

---

(١) تقرير لجنة الجمعية الجغرافية ، ص١٤ .

وفي تصوري أن ينبع كان تضم عددا كبيرا من المساجد والجوامع ، لم يرد ذكرها في كتب الرحالة أو الجغرافيين المسلمين ودليلنا أنها كانت ميناء يموج بالنشاط والحركة البحرية في الحل والترحال ، ثم إن وقوعها على طريق الحج المصري والمغربي كان يستوجب وجود عدد كبير من المساجد ، فمن الممكن أن بعض السلاطين أو الأمراء أو الأثرياء من التجار قد قام ببناء بعض المساجد في ينبع شأنهم شأن كثير من أغنياء المدن الإسلامية المختلفة وكانت هذه المساجد تنسب إليهم .

ولكن معظمها قد اندثر شأنها شأن المساجد القديمة الأخرى .

المبحث الثالث

أهمية ينبع كمحطة على طريق قوافل الحجيج البرية والبحرية

سنتحدث في هذا المبحث عن أهمية ينبع كمحطة في طريق القوافل البرية والبحرية ، وسنحاول قدر طاقتنا وفي حدود ماتسعفنا به النصوص التاريخية والحضارية أن نوفي هذا المبحث المهم قدره من التدوين التاريخي .

وعندما أردت أن أكتب عن ينبع كمحطة على طريق قوافل الحجيج ، وجدت كتابات(*) كثيرة قد سبقتني ولكن معظمها كان يتناول طرق الحج(**) ، وكل مايتعلق بها منذ محطات القيام إلى محطات الوصول في مكة والمدينة ، فيصف المراحل مرحلة مرحلة ، ولقد وجدت أن كتابة المبحث بهذه الطريقة فيه مضيعة للجهد ، وترديد لما كتب من قبل ، ففكرت أن أركز على الموضوع الذي أكتب عنه وهو بلاد ينبع فقط كمحطة على هذا الطريق ودورها وأهميتها

(*) انظر على سبيل المثال : العلاقات المصرية الحجازية زمن سلاطين المماليك ، علي حسين السليمان ، رسالة ماجستير مطبوعة ، طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آمنة حسين جلال ، النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي ، سعاد إبراهيم الحسن ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة سليمان مالكي ، رسالة ماجستير منشورة .

(**) كان حجاج المسلمين يسلكون أربعة طرق رئيسية في طريقهم إلى مكة المكرمة :

١ ـ طريق الحج الشامي : يسلكه حجاج بر الشام ويتجمعون في دمشق .

٢ ـ طريق الحج العراقي : يسلكه حجاج المشرق الإسلامي عامة وحجاج العراق وخراسان خاصة ويتجمعون في الكوفة .

٣ ـ طريق الحج اليمني : ويسلكه حجاج اليمن وعمان وظفار وحضرموت وكل سكان جنوب شبه الجزيرة العربية ويتجمعون في صنعاء .

٤ ـ طريق الحج المصري : ويسلكه حجاج مصر والمغرب والأندلس والتكارنة ويتجمعون في القاهرة .

انظر : سليمان مالكي : مرافق الحج ، رسالة ماجستير مطبوعة ، صفحات متفرقة ، سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص٧٩-٨٠ ، آمنة جلال : طرق الحج ومرافقه في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص٥،٦ .

فيه . ولعلي أكون قد وفقت في المنهج الذي اخترته لنفسي لكي أبتعد عن التكرار والإعادة .

ومما لاشك فيه أن ينبع كانت إحدى محطات طريق الحج البري والبحري الهامة ، ونستدل على أهميتها وعمرانها من وصف كثير من الرحالة والجغرافيين المسلمين لها ، عندما مروا بها .

كما أن كثيرا من المؤرخين المعاصرين الذين كتبوا عن ينبع وخاصة عندما مر بها السلاطين والأمراء وكبار الأغنياء والتجار في طريقهم لمكة المكرمة أو المدينة المنورة .

فيقول عنها المقريزي أنها من أهم محطات طريق الحج ، وأن السلاطين يرسلون إليها السفن محملة بالغلال والمؤن والصدقات وكل مايحتاجه ركب الحجيج ، بل كل مايحتاجه فقراء الحرمين[١] .

ويصفها الجزيري ــ ولاننسى أنه من المؤرخين المرموقين العاملين بالإدارات والوظائف الخاصة بطرق الحج هو ووالده ، ولذا فلشهادته قيمة تاريخية مؤكدة ــ يقول عن ينبع : أن أسواقها التجارية[٢] بلغت أوج ازدهارها في العصر المملوكي ، ويجد الحاج فيها كل مايطلبه مما يعينه على تكملة رحلته ، بل كان بعض الحجاج يشترون منها بعض الهدايا والطرف .

ويصفها المقدسي البشاري ــ وهو رحالة مدقق ، عميق النظرة ، صادق الحس ــ بأن ينبع "كبيرة جليلة ، حصينة الجدار ، غزيرة المال ، أعمر من يثرب ، وأكثر نخلا ، حسنة الحصن ، عامرة السوق ، لها بابان ، الجامع عند أحدهما ، الغالب عليها بنو الحسن"[٣] .

---

(١) السلوك ، ج١ ، ص٩١٦-٩١٨ .

(٢) درر الفوائد ، ص٢٨٨،٢٤٥ .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص٨٢-٨٤ .

ونلاحظ أن أغلب محطات الحجيج عبارة عن أماكن بسيطة تحيطها الصحراء الشاسعة يسقيها بئر واحد أو بركة ماء ، وبها خان متواضع لسكنى الناس والدواب مع وجود حامية قليلة العدد لحماية القوافل .

ولكنك عندما تتحدث عن ينبع كمحطة على طريق قوافل الحجيج(*) فإنك

(*) تعددت وتغيرت طرق الحج المصري بسبب كثير من الأحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية التي مرت بها مصر منذ منتصف القرن الخامس الهجري :

أ ـ فالطريق القديم الأول طريق بري يبدأ من الفسطاط ثم القاهرة فيما بعد ، مرورا بشبه جزيرة سيناء ، العقبة ، ثم يسير محاذيا لساحل الحجاز حتى ينبع ومنها إلى مكة المكرمة . واستمر هذا الطريق يؤدي دوره التجاري والديني حتى سنة ٤٦٠هـ .

ب ـ الطريق الثاني : من الفسطاط عبر النيل بالمراكب الشراعية إلى مدينة قوص بالصعيد ، ثم يعبرون الصحراء الشرقية بالرواحل والجمال إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومنها يركبون سفنا تطلق عليها الجلاب إلى جدة أو ينبع . واستمر هذا الطريق يؤدي دوره من بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلى حوالي سنة ٦٦٦هـ ، وازدهر هذا الطريق أثناء قيام الصليبيين باغلاق الطريق البري السابق عندما احتل بلدوين ملك بيت المقدس صحراء النقب ، ورأس خليج العقبة ، مما أدى إلى قطع الصلة بين مصر والشام والحجاز ، وضعف شأن هذا الطريق بعد فتح الطريق رقم (أ) في مستهل العصر المملوكي ، وتشير المصادر إلى أنه ظل مستخدما ولايسلكه إلا عدد محدود من الحجاج خاصة المغاربة ، وممن حج سالكا طريق عيذاب : ناصر خسرو ٤٤٢هـ ، ابن جبير الأندلسي ٥٧٩هـ ، ابن بطوطة الطنجي ٧٢٧هـ ، وكان هذا الطريق شاقا مهولا لدرجة أن ابن جبير كتب عن عيذاب يقول : "لها من اسمها نصيب" ثم بطل السفر بهذا الطريق نهائيا سنة ٨٠٩هـ . وهذا الطريق إن صحت التسمية نسميه بالطريق (النيلي ، البري ، البحري) .

ج ـ الطريق الثالث : الطريق البحري وهو أخصرها ويبدأ من القاهرة ، السويس بطريق البر ثم ميناء الطور فينبع فجدة ، ويرجع استخدام هذا الطريق إلى سنة ٨٢٨هـ عندما أصبحت جدة تحت الإدارة المصرية المباشرة في عهد برسباي .

د ـ إحياء الطريق القديم رقم (أ) وكان ذلك عندما آثرت شجر الدر أن تسافر إلى مكة بهذا الطريق البري القديم سنة ٦٤٥هـ بعد تقليم أظفار الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي . ولذا يعتبرها المؤرخون أول من أحيا هذا الطريق ، ثم زادت أهميته وأصبح هو الطريق الرسمي بعد حج السلطان الظاهر بيبرس منه سنة ٦٦٠هـ ، ثم أصبح هو طريق عبور قافلة الحج المصري الرسمية .

=

تتحدث عن مدينة عامرة مسورة ، وسوق مالي كبير ، وتجارات متعددة متنوعة ، ومزروعات ومياه ثجاجة ، ولعلك تلمح هذه المعاني في وصف البشاري لها عندما يلمح في عبارة موجزة ولكنها موحية في قوله : "أعمر من يثرب" .

كما يبدو أن الرحالة غرس الدين خليل الظاهري ، قد زار المدينة وهي في عنفوان قوتها التجارية ، وازدهارها المعماري والزراعي والبحري ، فيقول "مدينة الينبوع كثيرة العمائر ، والأسواق ، والنخل ، وهي بندر ترد إليه المراكب بالغلال من سواحل الطور ، يؤخذ عليه المكوس لصاحب الينبوع في كل سنة قدر ثلاثين ألف دينار"[١] .

ويضيف ابن حوقل واصفا ينبع بالري والخضرة والموقع الحسن : "ينبع حصن به نخيل وماء وزرع ، وعلى شاطئ البحر ، وبقرب ينبع جبل رضوى"[٢] .

ومحطة طريق الحجيج قبل ينبع مباشرة هي نبط[٣] ، وبعدها يتجه الطريق البري إلى محطة ينبع في خمس مراحل تستغرق ثلاثة أيام[٤] ، وبعدها مباشرة محطة الدهناء .

وعلى ذلك فينبع تقع بين محطتي النبط شمالا والدهناء[٥] جنوبا .

= انظر : سيد عبد المجيد بكر : مرجع سبق ذكره ، ص١٧-٢٠ ، سليمان مالكي : مرجع سبق ذكره ص٩٦-١٠٠ ، علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص٦٠-٦٤ ، المقريزي : الخطط ، ج١ ، ص٣٠١ ، البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص٩٠-١٠٠ ، آمنة جلال : طرق الحج ومرافقه ص٧-١٢ .

(١) زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، ج١ ، ص١٨-١٩ .

(٢) صورة الأرض ، ص٢١-٢٢ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٧٤-٣٧٥ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٨٢ .

ومما أعطى لينبع أهمية خاصة بين مراحل الطريق ـ قبل وبعد ـ فإن طريق الحج المصري وإن كان قد تحول إلى الطريق البري ، فقد ظلت المؤن والاحتياجات الضرورية الثقيلة يتلقاها الحجاج بحرا تحملها السفن من العقبة إلى ينبع التي يقيم الحجاج بها حوالي سبعة أيام حتى تصلهم المؤن والسلع التي ترسلها مصر وغيرها من البلدان بطريق البحر(١) .

كما كانت ينبع محطة للإياب بعد انقضاء موسم الحج فيعود الحجاج إليها في حوالي العشرين من المحرم بعد الانتهاء من المناسك ، وبعد زيارة المدينة المنورة(٢) .

ومن الأدلة على وصول السفن إلى محطة ينبع محملة بالامدادات والمؤن وعطايا الملوك والأمراء ، والمساعدات ، مافعله أحد أمراء الحج(*) (بكتمر الجوكندار) سنة ٧٠٠هـ عندما شحن من ماله الخاص ـ غير المعونات السنوية المقررة ـ ثلاثة مراكب ، ولما وصلت إلى ينبع وهي مليئة بالغلال والدقيق وأنواع الأدام من العسل ، والسكر ، والزبيب ، والحلوى ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص٣٨٨ ، السيوطي : مصدر سبق ذكره ، ج٢ ، ص١٨٥.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٣٢١ ، علي السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص٦٦-٦٧ .

(*) أمراء الحاج ـ إمرة الحجيج من أرفع المناصب الدينية في العصور المختلفة ، وتزخر المكتبة التاريخية الإسلامية بالكتب المختلفة في التأريخ لهذا الموضوع ، كما أفرد لهذا المبحث فصول مختلفة في كتب المتأخرين بداية من القرن الثالث الهجري وأسبقهم هو محمد بن جرير الطبري الذي حرص في كتابه الرسل والملوك على ذكر أمير الحج كل سنة ، أما الجزيري فقد كتب فصلا ممتعا عنوانه (فيمن ولي إمرة الحاج من زمن المصطفى ﷺ إلى سنة ٩٦٠هـ) في كتابه (درر الفوائد المنظمة ، في أخبار الحج وطرق مكة المعظمة) ، كما أن الرشيدي قد كتب كتابا بديعا في هذا المجال بعنوان (حسن الصفا والابتهاج فيمن ولي أمر الحج منذ السنوات الأولى للإسلام حتى سقوط الدولة المملوكية) .

فأفرغ حمولة السفن ، وعملها أكواما ، ونادى في الحجيج : من كان محتاجا إلى مئونة أو حلوى فليحضر ، فأتاه المحتاجون ، فلم يرد منهم أحدا ، ويقال أنه أنفق في حجته خمسة وثلاثين ألف دينار[١] .

ويجب ألا يتطرق إلى الذهن أن قافلة الحاج التي كانت تمر بينبع من مصر قافلة ضئيلة العدد ، تكفيها أقل الخدمات ، أو أضعف الإمكانيات ، بحيث يكفيها مايقدم لها في محطات الحجيج المختلفة .

ومع أنه لاتوجد لدينا احصائيات دقيقة عن أعداد البشر والحيوانات اللهم إلا بعض الإشارات والعبارات المبهمة كقول المؤرخين : (كان عدد الحجاج كبيرا[٢] ، وسافر في هذه السنة عدد من الخلائق لايحصى عددهم إلا الله[٣] ، أو قولهم كان عدد الإبل[٤] هائلا) .

ويجب التنبيه إلى اختفاء هذه التعبيرات من كتب المؤرخين في السنوات التي كانت الحجاز تعاني فيها من الجفاف أو الفتن بين الأشراف ، أو انتشار الأوبئة .

وكانت مصر نقطة تجمع للحجاج من جنسيات مختلفة منذ العصر الأيوبي ، إلى أن سقطت دولة المماليك ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، وكان طريق الحج المصري هو طريق المسلمين للحج إلى بيت الله العتيق .

ويرجع ذلك إلى عدة أسباب لعل من أهمها :

١ ـ جدارة مصر وحسن تنظيمها لركب المحمل ، وسطوتها وقوتها بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله من هجمات البدو ، ومفاجآت السفر[٥] .

---

(١) الرشيدي : مرجع سابق ، ص٣١ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٨٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص٣٧ .

(٣) ابن الفرات : تاريخه ، ج٩ ، ص٣٣٣ .

(٤) السليمان : العلاقات المصرية الحجازية ، ص٩٨-٩٩ .

(٥) المرجع السابق ، ص٩٨ .

٢ ـ موقع مصر الجغرافي وتوسطها وإشرافها على الحجاز ، ووقوعها في طريق الحجاج المغاربة خاصة[١] .

٣ ـ مراعاة مصر لأقدار السلاطين والملوك[٢] الذين يمرون بها في طريقهم لأداء الفريضة المقدسة خاصة ، وتسهيل أدائها للمسلمين من جميع أنحاء العالم المعمور آنذاك عامة .

فكان يأتي في صحبة ركب الحاج المصري الحجاج الأفارقة : من شمال غرب افريقيا[*] [٣] ، وبلاد النوبة ، وغرب افريقيا (التكرور) كما يجتمع حجاج الشام في غزة في بعض السنين وينضمون إلى الركب المصري[٤] ، وفي سنوات كثيرة ، كان ينضم إلى ركب الحاج المصري : حجاج من الترك والقوقازيين من القرم وبخارى وسمرقند واقليم قازان من شمال الروسيا وسيبيريا ، وجزر البحر المتوسط[٥] .

وتشير المصادر التاريخية إلى قيام كثير من الملوك والسلاطين من خارج مصر بأداء فريضة الحج ، مرورا بمصر ، التي عاملتهم بما يليق بمكانتهم ، وهيأت لهم الراحة والحماية عبر الطريق ، ومنهم سلطان بني

---

(١) الرشيدي : مرجع سابق ، ص٣٧-٣٨ .

(٢) ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص١٤٩ .

(*) عاصر المماليك ثلاث دول في شمال غرب افريقيا هي : بني حفص في تونس ، بني مرين المغرب الأقصى ، بني عبد الواد في تلمسان .
انظر : د. السيد سالم : المغرب الإسلامي ، ص٦٥٧ ، د. إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص١٤٢ .

(٣) الرشيدي : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨ .

(٤) السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٩٧ .

(٥) البتانوني : الرحلة الحجازية ، ص٢٦-٢٨ .

مريـن ٧٦٤هـ[١] ، كما حج من ملوك التكارنة (منساولي) [*] ، (منساموس)[٢].

كما تشير المصادر إلى قدوم أعداد كبيرة من الحجاج المغاربة في سنوات ٧٦٤هـ ، ٧٩١هـ ، ٧٩٢هـ ، ٨٣٥هـ ، ٨٨٩هـ ، حتى أن بعض المؤرخين يذكر أن أعداد الحجاج القادمين من مصر فقط وصلت في إحدى السنوات إلى حوالي أربعين ألف نفس[٣] .

واقتضى ذلك استعداد ينبع بكل أجهزتها في الميناء أو المدينة لاستقبال هذه الآلاف وايوائهم ــ هم وركائبهم ــ وتوفير كل مايلزمهم من طعام وشراب ومؤنة ، وتوفير المرافق الخدمية لهم من مساجد وربط ، وإرشاد ديني ، ثم استقبال السفن القادمة بأحمالها وتفريغها ، وتسليمها إلى قادة القافلة والمسئولين عنها ، ليقوموا بتوزيعها عليهم ، كما قامت ينبع بدور مماثل في أثناء رحلة العودة ، عندما يعود الحجاج إلى ديارهم .

ولم يقتصر الأمر على رحلة واحدة على طريق الحج البري[**] ، بل لقد

---

(١) الرشيدي : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧ .

(*) بلاد التكرور : تقع في أقصى جنوب بلاد المغرب وهي جزء من غانا الحالية ، ومنسا بلغة التكرور معناها السلطان ، وقال بعض المؤرخين عند تفسير كلمة تكرور أنها اسم للأرض التي يقيمون فيها ، وسمي جنسهم باسم أرضهم . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص١٤ .

(٢) طرخان : مرجع سبق ذكره ، ص١٥٠ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٩٨-٩٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٤٩٥-٤٩٦ ، ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ج٢ ، ص٢٤٥ الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٨٥ .

(**) يمر هذا الطريق بمحطات كثيرة : فيبدأ من القاهرة ، فبركة الحاج ، السويس ، نخل ، أيلة ، حقل ، مدين ، عيون القصب ، المويلح ، الأزلم ، ثم إلى الوجه ، فأكرى ، الحوراء ، نبط ، ومنها إلى ينبع ، فالدهناء ، بدر ، رابغ ، خليص ، بطن مر ، عسفان ، ونهاية المطاف : إلى مكة المكرمة حرم الله الآمن .

الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج ، الجزيري : درر الفوائد ، صفحات متفرقة . =

كانت هناك قافلة أخرى تأتي في شهر رجب وأطلق عليه المؤرخون (ركب الحجاج الرجبيين) (*) ، وسر هذه التسمية أن هؤلاء الحجاج يأتون مبكرين ليتسنى لهم الإقامة ببلد الله الحرام ، متمتعين بالبيت العتيق ، يؤدون العمرة ، بل العمرات ، ثم ينضمون إلى رحلة الحجاج ويعود معها في المحرم ، ويحدثنا المؤرخون المعاصرون عن ازدهار هذه الرحلات في أعوام ٧٠٧هـ ، ٧٢٠هـ ، ٧٣٥هـ ، ٧٤٩هـ ، ٧٥٥هـ ، ٧٦٠هـ ، ٧٨٣هـ ، ٨٢٧هـ

وكان على ينبع أن تستمر متأهبة على قدم وساق ، وعلى أتم استعداد من شهر رجب إلى أواخر المحرم ، لتلبية رغبات ركب الحجيج والمعتمرين خاصة أن كثير منهم ينتظر في المدينة لمدة سبعة أيام ، يحتاجون فيها إلى الطعام والماء والإقامة والبيع والشراء والراحة في الحل والترحال .

وكان أمراء ينبع يشرفون بأنفسهم على راحة الحجاج وأمنهم حتى المحطة التالية لهم ، وتشير النصوص إلى مشاركة خزانة ينبع في تأمين الحجاج(**) ، ودفع مبالغ مقررة إلى بعض القبائل لعدم مهاجمة القوافل ، كما أشرنا من قبل ، وكانت تصرف كالآتي :

٦٥ دينارا للأحامدة من قبيلة بلى

٥٨ دينارا لبني عطية

= وتناول الجزيري هذا الطريق واصفا مفصلا له محددا منازله ، ذاكرا أقوال من وصف الطريق قبله ، ناقدا لأقوال سابقيه ، ساعده على ذلك خبرته الإدارية في مجال أعمال الحج إذ كان يشغل منصب (كاتب ديوان الحج) منذ سنة ٩٤٤هـ فعرف الكثير من التفاصيل الدقيقة من طبيعة وظيفته .

(*) وكانت تخرج مع الرجبية شخصيات كبيرة مثل ماحدث سنة ٧٧٠هـ ، عندما حجت بركة خاتون أم الأشرف شعبان وكان خروجها مع الرجبية وقامت بمعروف كثير في الحجاز .
ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٤٧٤-٤٧٥ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص٧٠٥ .

(**) كانت مصر تعفي أمير ينبع من دفع هذه المبالغ المقررة في بعض السنوات لظروف سياسية أو طبيعية درر الفوائد ، ص٣٢٨ .

٤٠ دينارا لبني عقبة

١٧ دينارا لبني حسان أصحاب سقاية نبط

(مع أنها ليست من محطات ينبع)

٢٠ دينارا لبني زبيد[(١)]

وعلى أمير ينبع ضريبة مقررة من دخل المدينة يدفعها لأمير الحاج وأصحابه تقرب من ٣٠٠ دينار في السنة وهو مبلغ كبير بالنسبة لأسعار العملات في ذلك الزمان ، وهي كالآتي :

٢٥ دينارا للأدلاء[(*)] (جمع دليل)

٣٠ دينارا للدوادر[(**)]

٢٠ دينارا للخازندار[(***)]

٢٠ أصحاب الديوان

---

(١) درر الفوائد ، مصدر سبق ذكره ، ص٣٢٨ ، حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٢٩-٣٠ .

(*) الأدلاء : يقودون الركب في الدروب ، ويحمونه من مخاطر المفاوز والرمال الناعمة وتقود الأدلاء الجمال الحاملة للتموين والعليق .

الجزيري : درر الفوائد ، ص٩٥ .

(**) الدوادار : وهو صاحب الدواة الخاصة بالسلطان ، ويقوم بكتابة الرسائل عنه وابلاغها ، وتقديم الرقاع والشكاوى إليه واسم الوظيفة الدوادارية .

سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص٤١٦ ، الملحق الأخير .

(***) الخازندار : وتطلق على الوظيفة "شاد المخازن" ، وهو يوزع على الأفراد بواسطة أعوانه ، وهو يوزع بعض الأنواع بصفة يومية ، وبعضها بصفة أسبوعية ، ومن شروط هذه الوظيفة أن يكون صاحبها ثقة ، حازما ، مدبرا .

الجزيري : درر الفوائد ، ص١٣٤ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٤١٧ .

١٠ للقاضي(*)

١٥ للضباط

٢٠ صاحب المطبخ ومعاونيه(**)

١٠ حامل الصنجق (العلم)

٢٤ حاملي الهدية إلى أمير الحاج

(*) قاضي الركب : يوليه أمير الحاج من العلماء المصريين عند خروجه من بركة الحاج ، وهو يقضي بين المتخاصمين ويفتي في الأمور الشرعية ، ومن حقوقه في الركب : أن يحمل على جمل من الجمال منفردا ، ومعه بغل لحمل متاعه ويصرف لهما العليق اليومي ، وللقاضي مرتب معلوم غير مايصرف له من غذاء وماء وكساء ، إذ يحصل على قفطان مطرز بالذهب يميزه عن سائر الموظفين .
درر الفوائد ، مصدر سبق ذكره ، ص١١٣ .

(**) صاحب المطبخ : ويطلق على الوظيفة شاد المطبخ : يشرف على كل شئون المطبخ ابتداء من اختيار الأكلات اليومية ، إلى ذبح الحيوان والطيور ، إلى الطهي ، كما يحصل على إتاوته من الخراف والأموال في ينبع ومكة من الأشراف .
المصدر السابق ، ص١٣٦ .

وبالاضافة إلى ماسبق يشرف على ركب الحاج عدد آخر من الموظفين من أهمهم : شاهدا المحمل ويتصل عملهما بالقاضي ، كاتب الديوان ومهمته ضبط الصادر والوارد ، أمير آخور الركب ، وهو يشرف على الدواب ، وصاحب الكيلار وهو القباني ، وشاد السقائين : وهي أهم وظيفة وأخطرها في القافلة في هذه الصحارى والقفار ، وكان تحت إمرته عدد كبير من الجمال لحمل الماء يتراوح عددها مابين مائتين ومائتين وخمسين جملا تحمل مئات القرب من الماء .

ومن هذه الوظائف : المقدمون على جمال النفر ، المهتمون بجمال أمير الحاج خاصة ، ومقدم الضوئية وهم حملة المشاعل ومهمتهم الحفاظ على أخشاب الوقود والدهن والزيوت ، ومقدم الهجانة والشعارة ، وهم المسئولون عن أكسية الجمال ، والمسئول عن أمانات الحجاج ليسلمها لهم بعد انتهاء الموسم .

القواصون : وهم الصلة بين أمير الحج والبدو وهم الذين يحملون مخصصات البدو إليهم من حبوب وأموال .

من وظائف الركب : المؤذن : وهو يدعو الناس إلى الصلاة ويرتبط به الميقاتي وهو الذي يعين مواعيد الصلاة واتجاه القبلة . =

١٠٠ بقية الأفراد التي يتكون منهم ركب الحاج[١] .

بالاضافة إلى ذلك كانت ينبع تشارك إمارة مكة في إكمال الرسوم المقررة عليها إذا عجزت مكة عن السداد ، من ذلك ماقام به أمير ينبع عندما دفع ألف دينار سنة ٨٩٧هـ ليكمل مبلغ ٥٠٠٠ دينار على مكة[٢] .

ويبدو أن أمير الحاج لكثرة التزاماته ، وكثرة نفقاته ، وعظيم مسئولياته ، كان يأخذ أموالا أخرى على سبيل الجباية من أشراف مكة والمدينة ، علاوة على مايأخذه أمير الحاج من خزانة الدولة في مصر .

= وكان (الجرائحي) يشرف على الأمور الطبية وكان مع الركب عدة أطباء ومعهم الأدوية اللازمة ، ومن وظائف الركب مسئول الطشت خاناه : ومهمته المحافظة على أوعية المياه الجلدية ، ويرتبط به (مهتار الشراب خاناه) المشرف على تدبير المياه أثناء الحر ومزجها بالسكر والإشراف والمحافظة على الأوعية ، أما (مهتار الفراشخاناه) وهم عمال مهمتهم إضاءة مكان نزول القافلة ليلا بالمصابيح ، ويقوم (الطباخون) بتوزيع الطعام على الحجاج في أوقات الراحة .

أما وظيفة (الدردكاش) : فهو المسئول عن السلاح والذخيرة والأعلام والألوية والبيارق ، كما كان في القافلة (مهتار الركاب خانه) وهم المشرفون على الخيول الموجودة بصحبة الركب ، ويرافقها طبيب بيطري .

ومن أهم رجال المحمل (رجال الحامية) وتتكون من رجال الهجانة الشجعان الأقوياء وكان عددهم يتراوح بين ثلاثمائة وخمسين ، خمسمائة جندي مقسمين إلى أربعة أقسام في المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة بالإضافة إلى حامية أخرى على الجمال .

وتوجد وظائف أخرى كمفتش الجمال ، وقائد الجند ، وحامل ختم السلطان ، وقائد الهودج ، ورئيس الخزائن ، ومرابط الخيل ، والمزين ، والطبال ، والخباز ، والنجار ، ومغسل الموتى ، ورعاة الغنم ، والشعراء (الحداة) ، وآخرهم (مبشر الحاج) .

انظر : الجزيري ، ص١١٢-٢٠٠ ، الرشيدي : حسن الصفا ، ص ، السليمان : العلاقات المصرية الحجازية زمن سلاطين المماليك ، ص٨٦-٩٣ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ملحق الوظائف والشارات المملوكية ، ص٤١٠-٤٨٥ .

(١) درر الفوائد ، مصدر سبق ذكره ، ص٥٣٦ .

(٢) الرشيدي : حسن الصفا ، ص١٤٨ .

فأمير الحج ليس رجلا عاديا ، ولاأميرا صغيرا ، بل هو من أرباب السيوف في الجيش المملوكي ورتبته عادة (مقدم ألف) أي هو يتقدم ألف جندي من أجناد الحلقة ، بالاضافة إلى أن في خدمته ١٠٠ جندي ، ولذا يقال له (أمير مائة ومقدم ألف) [١] .

وهو مسئول مسئولية كاملة عن الحجاج وحمايتهم من قطاع الطرق من الأعراب ، وتوفير وسائل الإعاشة من طعام وماء ودواء للحجاج في حلهم وترحالهم ، وتمتد مسئوليته إلى حد الحفاظ على دواب القافلة ، وكانت السلطات المملوكية تسمح للحجاج بانتقاد أمير الحج وتقديم الشكاوى فيه إلى السلطان[٢] ، وكان السبب على مايبدو أن هذه الوظيفة تولاها من لايستحقها على حد قول الجزيري : "وقد تولاها كشاف الجسور ، ومن لاخبرة لديه بالأمور وأسافل الناس ، ونفر العسكر"[٣] .

ولذا كانت مخصصات أمير المحمل عظيمة القدر ، جليلة المقدار ، فكان يحصل على أحد عشر ألف دينار لكافة نفقاته ، ومائتي جمل لحمل التموين ، ألف أردب من القمح ، ألفي أردب من الفول ، وكان يمنح الخلع السنية والعباءات ذات الخيوط الذهبية[٤] (*) .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٢٣٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص٤٢٠ .

(٣) درر الفوائد ، ص٨٧-٨٨ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٨٤ .

(٤) الجزيري : درر الفوائد ، ص١٠٥-١١٢ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٨٤ .

(*) وبعض الأمراء كان على مستوى المسئولية ، وقوة الإيمان وحب الخير ومراعاة جلال المنصب ، فكان أمير الحج ينفق من جيبه الخاص أضعاف مايحصل عليه ، ويروى أن كلا من الأمير سلار الذي حج بالناس سنة ٧٠٣هـ ، والأمير سيف الدين يشبك الناصري أمير الحاج سنة ٨٣٩هـ قد أنفقا الكثير من أموالهما على الحجاج وفقراء الحرمين .

السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٨٦ .

وكان طريق الحج مملوءا بالأخطار ، ونخص منها هجمات البدو على طول طريق الحج ، وبالنسبة لينبع كان البدو الرابضين على الدروب هم : الأحامدة(*) وهي بطون من بلى(**) وجهينة(***) وهم يقطعون الطريق بين الأزلم وينبع ، أما قبائل بني إبراهيم(****) فكانوا يقطعون الطريق بين ينبع ومكة وهو ثلاث عشرة مرحلة ، أما بقية الطريق بين المدينة ومكة يأمن الحجاج لأنهم يكونون في حماية وحراسة أمراء مكة والمدينة(١) .

(*) الأحامدة : قبيلة كبيرة من بني سالم من حرب ، تقيم بين المدينة وينبع ومن فروعهم الصخور والعميدات ، والفضلة والضحارنة ، يعيشون على رعي الإبل وكانت لهم مرتبات من كل من الدولة المملوكية ثم العثمانية لحراسة قوافل الحجيج .
إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص٧٣ ، ج٢ ، ص٤٢،١٠٣ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ص٦ .

(**) بلي : بفتح الباء وكسر اللام بطن من قبيلة قضاعة القحطانية ، وهي قبيلة عظيمة تنسب إلى ابن عمرو بن الحافي ابن قضاعة ومنازلهم بين المدينة ووادي القرى ، ويقول القلقشندي : ومنازلهم الآن بالداما ، وهي دون عيون القصب إلى أكرى فم المضيق وعليهم درك الحجيج هنالك ومنهم بطون بصعيد مصر بأخميم ومن فروعهم المعاقلة ، والعريفات ، والرموث ، والهلبان ، والسمحة ، والقواعين ، والمواهيب ، وذبالة .
القلقشندي : نهاية الأرب ، ص٣٦ ، المقريزي : البيان والإعراب ، ص٣٧ ، ابن خلدون : العبر ، ج٢ ، ص٢٤٧ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ص١٠٤-١٠٦ .

(***) جهينة : قبيلة كبيرة من قضاعة وديارهم بين ينبع والمدينة إلى وادي الصفراء جنوبا والعيص وبلاد بلى شمالا على الضفة الشرقية للبحر الأحمر وانتشر بطن منهم بصعيد مصر ، وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم ومن جبالهم الأشعر والأجود ، وبواط ، والحصير ، وقدس .
الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص٣٠ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ص٢١٦ .

(****) بنو إبراهيم : بطن من بني مالك من جهينة ، كانوا من أشد البدو شراسة حتى القرن التاسع الهجري حتى تم اخضاعهم وهدم ديارهم ومستقرهم بالدهناء ، وينبع النخل ولهم من الأفخاذ الحربيات ، الصاحرة ، المسافرة ، الشطارة ، الشهابية ، ذوو سعد ، الفقهاء ، ذوو سليم ، ذوو زيد ، ذوو حمودة ، الجرشة ، الحلائيث ، الدسابكة ، الشناورة ، المقادقة ، العلاونة ، الصفارين .
فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ص١٣٨ ، كحالة : معجم قبائل العرب ، ص٢ .

(١) الجزيري : مصدر سبق ذكره ، ص٥٢٥ .

ولقد كثرت حوادث هجوم البدو على الحجيج وسلبهم ونهبهم في المرحلة الواقعة قبل ينبع وبعدها . وكان اشرسهم بني إبراهيم من جهينة وبلى وكان هؤلاء الأعراب مصدر قلق لأمراء الحج لشراستهم وتعطشهم لسفك دماء الحجاج للاستيلاء على أموالهم ومتاعهم ، حتى لقد بلغ من شراسة بني إبراهيم في مواسم ٩٠٧هـ ، ٩٠٨هـ ، ٩٠٩هـ أن أصدر السلطان قنصوه الغوري أمرا بعدم السفر إلى الحج .

وتمتلئ المصادر التاريخية بعبارات مقتضبة تشير إلى هجوم البدو على القوافل ، إلا أن مدلولها يوحي بقسوة مايرتكبه الأعراب ضد الحجاج /

فنقرأ عبارات من قبيل "فسلب الحجاج عن آخرهم" ، "قاسى الحجاج في هذه السنة محنة عظيمة"[1] ، "قام بنو إبراهيم بأعمال شائنة" ، "أخذ في هذه السنة خلائق لاتحصى"[2] .

ولذا اضطرت الحكومة المملوكية مستعينة بأمير ينبع إلى تقديم إتاوات سنوية – كما ذكرنا آنفا – بلغ الأمر بالاستعانة بلصوص البدو ، قوادا للجمال التي تنقل الحبوب والدقيق والبقسماط وسائر الإمدادات ، وكان أمير ينبع ملزم – حسب تعليمات المماليك – بتقديم الجمال والرجال في المرحلة التالية لينبع حتى يتسلمها حراس أميري مكة والمدينة[3] .

وكان استخدام الأعراب لحماية القوافل وطرق الحج دواء مؤقتا لمنع هجماتهم المتكررة فاستخدموهم خفراء على معالم الطريق ومكامن الهجمات واتخذوا فريقا منهم لقيادة جمال القافلة ، أما بعضهم فكان يعطى الإتاوات الكبيرة من المال حتى يضمنوا مجرد سكوته ، فكان الأحامدة من بلى ، وبنو

---

(١) ابن تغرى بردى : حوادث الأيام والدهور ، ج٣ ، ص٥٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢١-٢٢٢ .

(٣) الجزيري : مصدر سبق ذكره ، ص٥٣٨ .

حسن من جهينة يحرسون ربع الطريق الثالث حتى ينبع ، أما بنو إبراهيم فيحرسون جزءا من الطريق بعد ينبع حتى قرب المدينة ومكة .

وعلى الرغم من ذلك ، كان أعراب بني إبراهيم بمنطقة ينبع يخلون بالاتفاق بينهم وبين السلطات المملوكية والمحلية ، فيقومون بالهجوم على القوافل ، وقتل وسلب ونهب الحجيج . ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك طمعا في زيادة الأتاوة ، أو أن الهجوم على القوافل يرضي نزعتهم العدوانية ويعود عليهم بمكاسب أوفر وأكثر من التي تمنحها لهم السلطات(*) .

لذا انتهزوا فرصة الفتنة التي قام بها الشريف الجازاني عندما انضم إلى أمير ينبع (٩٠٨-٩١١هـ) وأخلوا باتفاقهم وهاجموا القوافل ، ومنعوا السبل ، وقتلوا كثيرا من الأبرياء واستولوا على ممتلكاتهم في رحلتي الذهاب والإياب(١) .

وكانت الحياة تدب في طريق الحج ومحطاته عندما يحج أحد الملوك أو السلاطين أو الأمراء أو ذويهم من الحريم ، فتهدأ الطرق ، وتأمن مسالكه ودروبه ، وتعمر المحطات ، ويحصل للحجاج والمعتمرين خير كثير .

ومن هذه المحطات الهامة ينبع ، حيث كان أميرها يخرج لاستقبال الملوك والسلاطين وأمراء الحاج ، وتتم مراسيم الاستقبال ، ويعامل الأمراء ضيوفهم بكل حفاوة تليق بمراكزهم ، بحيث كان أمير ينبع يقوم بفرش سجادة

(*) وكانت ينبع تتحمل الكثير لحماية الحجاج من رصيد خزانة المدينة ، بل لقد عثرنا على نص يفيد بأن أهل ينبع كانوا يدفعون من جيبهم الخاص ، ومن أموالهم ، للأعراب حتى يحموا الحجاج من شرورهم ويحافظون على أرواحهم وسمعه المدينة من ذلك ماحدث سنة ٨٤١هـ حيث دفع أهل ينبع لعربان بلى ـ وكانوا عددا كبيرا ـ مبلغا كبيرا من الذهب حتى يكف البدو عن حجاج الشام من الرملة ، وغزة ، والقدس .

الجزيري : درر الفوائد ، ص٣٢٥ .

(١) الجزيري : مصدر سبق ذكره ، ص٥٣٧ .

الصلاة لبعضهم ، كما تتزين ينبع لاستقبالهم بكل ترحاب ، فتعمر الأسواق ، وتمتلئ بالبضائع المحلية والأجنبية ، ولاغرو في ذلك فينبع أكبر محطة على طول الطريق على ساحل الحجاز من العقبة إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ، كما كان يحدث للمدينة رواج اقتصادي كبير أثناء زيارتهم لمدينة ينبع .

وكان أول من افتتحه السلطانة شجرة الدر سنة ٦٤٥هـ[١] ، ولقد مرت بينبع فأصاب أهلها خير كثير مما تحمله من الأعطيات والمؤن ، كما أن السلطان الظاهر بيبرس ركن الدين والدنيا البندقداري الناصري حج في عام ٦٦٧هـ ، مظهرا التواضع[٢] والخضوع لله عز وجل ، وأدى مناسك الحج كآحاد الناس ، وأخرج كثيرا من الصدقات والأعطيات سرا ، كما أحسن إلى أميري مكة وينبع وأمير خليص وأكابر الحجاز ، وصار يرسل إلى إمارة الحرمين كل سنة عشرة آلاف أردب من القمح ، وأصبح الطريق من عهده هو الطريق الرسمي لإرسال المحمل المصري[*] وكسوة الكعبة .

---

(١) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص٣١ .

(٢) المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص٩٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٩٦ .

(*) المحمل : يقصد بالمحمل : الجمال التي تحمل كسوة الكعبة الشريفة وترسل من صاحب مصر ، مع القافلة الرسمية للحجاج بصحبة أمير الحج . ويبدو أن تاريخ إرسال المحمل إلى مكة يرجع إلى القرن الأول الهجري ولكن جمهرة المؤرخين يعود به إلى سنة ٦٤٥هـ عندما حجت شجرة الدر على هودجها المشهور - والذي صار عادة لكبريات النساء فيما بعد - كما حملت كسوة الكعبة على هودج مزين كان يتقدم قافلة الحج ، واستمرت حمولة المحمل تتطور وتتزايد من حمولة جمل واحد ، حتى صارت حمولة ثمانية وعشرين جملا تحمل الكسوة الشريفة وهدايا الكعبة وبيت الله المعظم .
وكان خروج المحمل بالقاهرة يتم على دورتين أولاهما في رجب والثانية في شوال وتصحبه فرحة غامرة ، وشوق عظيم لحرم الله الآمن ، وكان يحضر العرض في ميدان القلعة السلطان وكبار رجال السلطنة ويتقدمه الأمراء والأجناد والعلماء ورجال الإدارة ، ثم يدور في القاهرة بين مظاهر الفرح والأهازيج والطبول والزمور . =

ولانستطيع أن نحصي عدد من حج من الشخصيات الكبيرة ، والمحطات التي مروا بها ، وكانت لهم أياد بيضاء على بعضها ومنها ينبع ، ولكننا على سبيل المثال نذكر فقط من حل وأقام بينبع على سبيل المثال معتمدين على المقريزي وكتابه التبر المسبوك بالدرجة الأولى .

فالسلطان الناصر محمد بن قلاوون حكم ثلاث مدد ، وهي على وجه الدقة كما روى المقريزي[١] : ٤٣ سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام وحج فيها ثلاث مرات .

وعندما حج سنة ٧١٩هـ جهز أربعة مراكب اثنتان منها إلى ينبع ، واثنتان إلى جدة وعليها المؤن والمهمات والأعلاف ، فكان عليها جملة من الشعير حوالي ١٣٠ ألف أردب .

وفرق في مكة وينبع والمدينة أموالا عظيمة ، وأفاض بالتشاريف على أمراء مكة ، وأرباب وظائفها وأمير ينبع وأمير خليص ، وبعد زيارته للمدينة المنورة وصلاة الجمعة بها ، سار إلى ينبع ليقابل المراكب .

كما حج السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢هـ فوصل إلى ينبع واستقبل بترحاب كبير وكان في شرف استقباله (أسد الدين رميثة) أمير مكة وينبع ومعه القواد والأشراف فأكرمه ورحب به ، وازدهرت المدينة بزيارته[٢] .

ولو نظرنا إلى الطريق البري وطبيعة المحطات التي يمر بها ، والمواضع التي يقطعها الحجاج ، ومافيها من الخدمات لهم لوجدنا أن ينبع كانت أكبر محطة على طول ساحل الحجاز بما يتوافر فيها من الخدمات والمياه

= السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص١٩٠-١٩٤ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص١٨٩ ، البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص١٤٠ ، السليمان : مرجع سبق ذكره ، ص٧٧ .

(١) التبر المسبوك ، ص٩٢ ومابعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص٩٥،١١٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٩٩ .

والمؤن ، والأعلاف ، وأماكن المبيت والسكن والأسواق في رحلتي الذهاب والإياب ودليلنا على ذلك أن أول محطات الطريق وهي بركة الحاج ليس بها إلا بستان واحد ، وساقية من الماء تصب في حوض كبير[١] ، وليس بها إلا سوق واحد لبيع الملابس ولوازم السفر والجمال[٢] ، أما محطة عجرود والتي تبعد عن السويس بحوالي ٢٠ كيلو مترا ، لاتوجد بها إلا بئر قديمة عميقة الغور ، ملحة المياه ، وليس بها إلا سوق صغير[٣] .

ولم تمتد إليها يد التعمير إلا في مرحلة متأخرة في أوائل القرن الثامن الهجري حيث أنشأ بها خانا للمسافرين من الحجاج والتجار ، وبئرا جديدا ، وساقية لجلب المياه ، وقلعة للحراسة .

أما نخل[٤] وهي المحطة التالية لعجرود فليس بها إلا قلعة صغيرة للحماية والحراسة وبها بعض برك المياه والآبار ، وبها سوق تجاري .

ثم يمر الطريق بأيلة وهي أهم مرحلة في الطريق من البركة إلى نخل وهي منطقة وعرة ، مدببة الصخور ، ضيقة الدروب ، وقد عمل المماليك على توسعتها على اعتبار أنها ملتقى الطريق التجاري الشام ومصر ، وكان بها خان وبعض العمائر ، وبعض أحواض المياه ، وكان بها سوق عامر بشتى أنواع التجارات ولأهميتها كانت مجتمعا لحجاج مصر والشام والمغرب[٥] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٦٩٦ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٤٧٩ .

(٣) اليعقوبي : البلدان ، ص٣٤٠ ، السيوطي ، ج٢ ، ص٣١٠ ، سيد بكر : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٦ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣١٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٥٢ ، سعاد الحسن : النشاط التجاري في مكة ، ص٤٥ .

(٥) اليعقوبي : البلدان ، ص٣٤٠ ، سيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص١١٥ ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٦٠ .

وبعد حوالي ١٥كم يمر الحجاج بحقل ثم إلى مدين ثم عيـــون القصـــب وكانت مياهها شحيحة ولايوجد بها إلا بئر واحد حفر في مرحلة متأخرة فأفاد منه الناس[١] .

ثم يمر الطريق بالمويلح ، وتقع على الشاطئ الشرقي للبحـــر الأحمـــر وبها قلعة للحماية ، وبعض النخيل ، وبها آبار عذبة وبعض المزارع وتبـــاع فيها بعض المأكولات[٢] .

والمحطة التالية الأزلم ، وبها قلعة أنشئت في بدايـــة القـــرن العاشـــر الهجري ، وبها خان وبئر أنشأها أحد أمراء المماليك[٣] وبها سوق كبيرة لبيع المؤن والعليق .

ثم يستمر الطريق إلى المحطة التالية وهي الوجـــه ويحصـــل للحجـــاج مشقة وجهد بسبب مشاكل المياه في المنطقة[٤] .

ويمتد السير إلى أكرى ، ثم الحوراء وبهما كثير من المشاكل المتعلقـــة بالمياه ، وفيه نسبة عالية من الملوحة ، وفي الحوراء حصن وسوق عامرة[٥] بالمتنجات ، ومنها إلى نبط وبها ماء عذب ، ثم يمتد السير إلى ينبع وسنتحدث عنها حديثا مستقلا بعد استعراضنا لخدمات الطريق بعدها .

---

(١) المقريزي ، ج٤ ، ص٨٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص٣٥٥ ، السيوطي : حسن الحاضرة ، ج٢ ، ص٣١٠-٣٢٠ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٧٨-٣٧٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص٢٢٠-٢٢٣ ، سعاد الحسن : النشاط التجاري في مكة في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص٤٧ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٥٠-١٥٢ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج٤ ، ص٨٦٠ ، السيوطي : مصدر سبق ذكره ، ج٢ ، ص٣١٠-٣١١ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص٨٠-٨٣ .

والمحطة التالية بعد ينبع هي الدهناء ثم يتجه الطريق إلى بدر وفيها عيون وجداول وحدائق ونخيل ، ومنها إلى رابغ وفيها يحرم الحجاج ثم يمتد الطريق إلى خليص وكانت فيها كثير من المشاكل الخاصة بتوفير المياه للحجاج ، ولم تحل إلا في أوائل القرن الثامن الهجري ، ومنها إلى بطن مر ، مرورا بعسفان وبوادي مر زروع ونخيل وبركة كبيرة للمياه ، ومنه إلى مكة المكرمة[١] .

أما ينبع فتعتبر من أهم محطات الطريق ، وتقدم كثيرا من الخدمات لقوافل الحج والعمرة ، وساعدها على ذلك ماتتمتع به من وفرة المياه العذبة التي تأتي من خارج البلدة من مشرقها فتمر بالمدينة ، وتمدها عيون حلوة بالمياه تأتي من غربيها ، وهي مدينة حصينة ذات أسوار كثيرة الخانات والفنادق والأربطة وبها دكاكين الصاغة والقماش وبها الحدائق المزهرة ، والأفران التي تقدم أنواعا من الخبز يناسب أهل كل اقليم ، وتنصب خارجها الأسواق الموسمية وفيها الكثير من أنواع المأكولات والمؤن والدقيق والفول والبضائع والعليقة ، وجميع لوازم الحيوان من سروج ولجم وهوادج وغيرها[٢] .

ويجتمع الحجاج في الحدائق وبين النخيل وحول العيون الجارية يأكلون ويشربون ويستريحون في أمان واطمئنان من عاديات الطريق .

وتقدم أسواق ينبع لأمير الحاج كل مايلزمه مما نقص معه من المئونة لتكفيه بقية الطريق إلى مكة المكرمة ، وقد يطرح أمير الحاج بعض مامعه من المؤن لتباع في الأسواق فيكون ذلك سببا في ازدهار الأسواق ورخص الأسعار وصلاح الأحوال .

---

(١) سيد بكر : مرجع سبق ذكره ، ص١٨٢ .

(٢) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص٣٠-٣٤ .

ويظل الحجاج في ينبع لمدة ثلاثة أيام ينهلـــون مـــن مائهـــا العـــذب ، ويأكلون ويحملون معهم من خيراتها الشئ الكثير لرخصه ، ومناسبة أســـعاره مع حالة غالبية الحجاج .

وعند مقدم ركب المحمل تحدث في ينبـــع بعـــض المراســـيم الخاصـــة باستقباله إذ يخرج أميرها ومعه أولاده وقواده في أبهى زينة لاستقبال المحمل حيث يخلع على أمير ينبع من قائد المحمل .

كما أدت ينبع دورها في خدمة طريق الحج والتجارة البحري الذي بـــدأ منذ سنة ٨٢٨هـ نتيجة للتحول التجاري الذي طرأ على مدينة جدة ، إذ غدت فرصة للتجارة وسوقا رائجة للمنتوجات الواردة من الهند والصين والحبشـــة واليمن[١] .

وقد حج من هذا الطريق الرحالة الأندلسي أبو الحسن القلصاوي ســـنة ٨٥١هـ ووصف طريق الحج المصري البحري الذي يبـــدأ مـــن الســـويس ، الطور ، وينبع ، فجدة .

وكانت ينبع تستقبل سفن الحجاج وتزودها بكل ماتحتاج إليه من المؤن والمياه ، كما كانت تستقبل السفن التي تحمل مايحتاج إليه الحجيج ، ومـــايراد توزيعه على أهل المدينة ، وزاد الاهتمام بالطريق البحري وموانيه بعد تهديـــد البرتغاليين لسواحل الهند ومدخل البحر الأحمر الجنوبي ، بالاضافة إلى تهديد البدو للطريق البري والهجوم على محطـــات الحجيـــج ممـــا دفـــع الممـــاليك الشراكسة إلى العناية بالطريق البحري وعلى الأخص مينائي جـــدة وينبـــع ، وزادت في تحصينهما وبناء الأسوار حولهما ، وتوسيع أرصفتهما لاســـتقبال السفن .

---

(١) آمنة جلال : طرق الحج ومرافقه ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص٨٨-٨٩ .

وهكذا أدت ينبع دورها كمحطة من محطات طرق الحج سواء منها البرية أو البحرية ، وأشاد بها الرحالة والجغرافيون المسلمون ، واستمرت تؤدي هذا الدور حتى سقوط دولة المماليك الجراكسة .

المبحث الرابع

النشاط العلمي

من المعلوم تاريخيا ، وخلال فترة هذه الدراسة أن النشاط العلمي في حواضر بلاد الحجاز لم يكن بمستوى ماعليه في عاصمة الخلافة الإسلامية ، وينبع كما هو معلوم كانت محطة ، أو منزلا ، أو ميناء ، وهي وإن تميزت عن بقية منازل الحجيج إلا أن النشاط العلمي المنظم كان فيها قائما ، أو شبه غامض ، وحديثنا عنه لاهو على هذه الصورة ، ولاعلى أنه قمة في ازدهاره ، وينبع نالت حظها من هذا النشاط أكثر من غيرها من منازل أو محطات الحجيج لما تميزت به من عمران ، إضافة لما ذكرناه من أهميتها كمنتدى عام وملتقى الأمراء ، والوزراء ، والوافدين من حجاج بيت الله الكريم مع ماكانت تضمه وفودهم من خيرة علماء عواصمهم ، ولاشك أن مكثهم بها آنذاك فترة طويلة في ذهابهم وإيابهم سنويا قد ساهم بشكل ، أو بآخر في ازدهار هذا النشاط ، ولذلك سأضيف إلى النشاط العلمي بها نشاط هؤلاء العلماء ، وغيرهم الذين كانوا ألسنة من فوق منابر نشاط الحركة العلمية ، وعظا ، وتحديثا ، وتدريسا تذيع أحكام الحج ، وكنه أسراره ، ومايتعلق به من واجبات ومحظورات ، ومن خلال مانسوقه من توافر العلماء وضخامة مجهوداتهم على دروب الحجيج يتبين النشاط العلمي بوضوح . ومعلوم أن هذه الشعيرة آنذاك كان الحاج يلاقي في سبيل الوصول إليها من العذاب ألوانا ، لذا وجه الحجاج والعلماء والخلفاء إليها جل عنايتهم ، وعظيم رعايتهم في معرفتها ، وماينبغي فعله ، أو تركه على طريقهم ، وفي أمكنة مشاعرهم ، وظهر ذلك حين تولى المستنصر الخلافة[1] أرسل كتابا إلى الملك الكامل يحمل في طياته بذل مايمكن

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر ، بويع يوم وفاة أبيه في رجب سنة ٦٢٣هـ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٣-١١٤ ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٦٥ ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٥ .

لحجاج بيته ، وزوار نبيه ، واعانتهم ، والتشديد في حراستهم على دروبهم كما يقول السيوطي : "من التخطف والأذى في حالتي الظعن والمقام ، فإن الحج أحد أركان الدين ، وفروضه الواجبة المؤكدة"[١] .

ويتواصل النشاط العلمي على امتداد منازل ، ودروب الحجيج من خلال علماء كل ركب ، والأمير ومعاونوه الذين لايملون عن بث معارفهم ، وممن أراد من العلماء الذهاب للمجاورة حتى أطلق عليهم المجاورين في تلك المنطقتين[٢] .

وممن ساعد في هذا النشاط العلماء الرحالة الأدباء الذين رافقوا ركب الحجيج ، وقد أتاحت منازل الحجاج فرصة الأخذ ، والعطاء ، والتدريس ، والفتيا ، فضلا عما كتبوه عن العمران فيها ، أو البيئات التي مروا بها ، أو نزلوا فيها ، ولم يتركوا شاردة ، أو واردة عن هذه المنازل إلا سجلوها ضمن مؤلفاتهم نفعا لمن أتى بعدهم ، كان منهم في هذه الفترة ابن جبير الذي حج من مصر عن طريق عيذاب في موسم عام ٥٧٩هـ[٣] .

وأيضا من كتاب الرحلات محمد بن عمر بن محمد ، المعروف بابن رشيد حج عن طريق الركب الشامي سنة ٦٨٤هـ ، وعاد عن طريق الساحل مارا بالعقبة في العام الذي بعده[٤] .

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٢٤ ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٥،٢٦ ، وحج فيها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، تولى حكم مصر سنة ٦١٦هـ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٨٢ ، الجزيري : درر الفوائد ، ج١ ، ص٢٤٧،٢٨١،٢٤٠ ، وفي الصفحة الأخيرة بعض موظفي أمير الحاج ، وماأنيط بهم من شروط علمية .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، دار بيروت للطباعة ، ١٣٩٩هـ ، ص١٥٥-١٦٦ ، وفي الصفحة الأخيرة ذكر وصوله إلى مكة ١٣ من ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ إلى إقلاعه من الزاهر بمكة ٢٢ من ذي الحجة من نفس السنة بمدة تزيد على ثمانية أشهر .

(٤) مجلة العرب ، العدد الأول ، السنة الرابعة ، رجب سنة ١٣٨٩هـ ، ص٦٠ وفيها مايتعلق بمكة من رحلته المسماه "ملء العينة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة" .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد العبدري ، وقد خرج في ركب الحاج الساحلي من القاهرة سنة ٦٨٩هـ[١] ، وكان منهم أبو القاسم ابن يوسف بن علي التجيبي ، وحج من مصر عن طريق عيذاب سنة ٦٩٦هـ

وهؤلاء وغيرهم من علماء كان لهم نشاطهم الملحوظ طوال الطريق وعلى دروب الحجيج ، فأقيمت المناقشات ، والمناظرات فيما بينهم وفي حلقاتهم جموع الحجيج على شتى أجناسهم من عرب وعجم كالشامي والمصري ، والتركي ، والبخاري ، وجزائر البحر الأبيض[٢] .

وهؤلاء قد تفاعلت معهم الحركة العلمية وهم في طريقهم إلى الحجاز ولاشك أن مواطني ينبع قد نهلوا من معارف هؤلاء ، واستفادوا من شتى علومهم مدارسة ، وتدريسا وتحديثا وتأكيدا إلى ماذهبنا إليه في هذا الصدد يذكر ابن خلدون : "... وأما مالك فاختص بمذهبه أهل المغرب كما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ... ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل"[٣] .

وننوه في هذا الصدد أن أمير الحاج إذا لم يكن على مستوى هذه الإمارة علما ، فقد كان يصحب معه جمعا كبيرا من العلماء ، فمن غيانه[٤] خرج جمع كبير من العلماء كانوا ثلاثمائة فقيه ، وانضموا إلى نظرائهم من حجاج عام ٥٨٠هـ ، وكانوا صحبة أبي العتيق أبي بكر بن الشيخ يحيى الغياني[٥] .

---

(١) العبدري : الرحلة ، حققها محمد الفاسي ، ص١٥٣ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٩٧-٤٩٨ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٢١ ، وفيها ذكر أن غيانه حصن بالأندلس من أعمال شنتبريه.

(٥) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٥٥٢ ، درر الفوائد ، حدوادث سنة ٥٨٠هـ .

أيضا الوزير القاضي الفاضل الذي اصطحب معه في حجه عام ٥٧٤هـ جمعا من العلماء كان منهم الشيخ موفق الدين عبد الله المقدسي الحنبلي ، له في مذهب الإمام أحمد اليد الطولى ، وصاحب التصانيف المشهورة[١] .

ومتابعة للنشاط العلمي على دروب الحجيج نجد أن أمير الحاج محمد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت قد اتخذ معه الفقيه حسام الدين بن أبي فراس ليكون فقيه ركبه لاسيما وأن هذا الأمير كان صبيا[٢] .

أيضا في سنة ٦٦٧هـ حج الظاهر بيبرس البندقداري ، وكان في صحبته جماعة من العلماء للافتاء منهم قاضي القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفي ، وفخر الدين إبراهيم بن لقمان وغيرهما[٣] .

وطوال الطريق وعلى دروبه كان الوعظ ، والافتاء ، والإرشاد الديني حفاظا على أداء هذه الشعيرة ، وطلبا لمثوبة الله تعالى ورضاه .

ومن خلال ماذكر نقول إن رحلة الحج بدروبها ، ومناطق محطاتها قد ازدهر فيها النشاط العلمي ، والتقى في هذه المحطات علماء التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، وحتى من كانوا في جنبات هذه الوفود من التجار قد أسهموا أيضا في هذا النشاط لأن من امتهنوا الأسفار ، واشتغلوا فيها بالمرابحة جريا وراء العلم وتحصيله ، والمال وتوفيره ، فالتجارة في فترة هذه الدراسة غالبا ماكانت بقصد العلم إذ لم يكن هناك مانع من أن يكون التاجر مقرئا ، أو محدثا ، أو فقيها ، فالدعوة الإسلامية في شتى الأقطار الإسلامية كان من دعاتها التجار ، وأيضا وسائل المعرفة كالكتب ، في فترة لم

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٦،٧ ، الحجة الثانية للقاضي الفاضل في ص١٤ من نفس المصدر .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص١٠ حوادث سنة ٦٠٧هـ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٥٤ حوادث سنة ٦٦٧هـ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٢ ، ص٩٣-٩٨ .

تعرف فيها الطباعة كانت تنقل كلها صحبتهم ، وضمن قوافل ركبانهم ، أو سفنهم ، وهؤلاء إضافة للعلماء ، وكتاب الرحلات ساهموا في التعليم والتدريس ، ولايخفى علينا أنهم كانوا إذا نزلوا محطة من محطات دروبهم التف حولهم مواطنوا هذه المحطة ، أو البلدة تجارا كانوا ، أو علماء ، فالتجار كانوا يتبادلون معهم التجارة بيعا ، وشراء ، والعلماء ينهلون من مشاربهم سماعا عنهم ، وقراءة عليهم ، هذا فضلا عن بث علومهم ومعارفهم بين أوساط ركباتهم[١] .

ومساجد ينبع بأعدادها المحدودة ، وبأحجامها المتواضعة ، وبفرشها العادي من حصى ، أو حصير ، وسواء كانت بقباب ومآذن أو لا ، فلايغير هذا من أمرها شيئا ، فمكانها مقدس وكل مساجد المسلمين بهيئاتها ، وسائر تخطيطها مقتبسة من مسجد الرسول ﷺ ، والمساجد عموما كانت للصلاة ، ومدارسة العلم في حلقات علمية يؤمها كبار علماء المواسم الذين تحدثنا عنهم آنفا ، وفي غيرها فكانت للصلاة ، وتعليم القراءة ومبادئ الدين الإسلامي ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وهذا التعليم كان يطلق على مركزه الكتاتيب ، وانتشر التعليم عن طريقها في سائر البلاد الإسلامية طولا ، وعرضا ، وفي أول الأمر كانت بالمسجد ولتعليم الصبية القرآن والقراءة والكتابة ، وبعد أن ورد نهي النبي ﷺ من تعليم الصبية بالمسجد صارت الكتاتيب من عمل المعلمين إما بإنشائها ، أو استئجارها ، وإما منفصلة عن المساجد ، أو ملحقة بها[٢] .

وقد تواجدت هذه الكتاتيب في بلدة ينبع لتحفيظ الصبية القرآن الكريم فضلا عن القراءة والكتابة ، ومبادئ الدين الإسلامي ، وتواجدت هذه الكتاتيب

---

(١) سيد بكر : دروب الحجيج ، ص١٢ .

(٢) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص٢٦٨ .

في مسجد العشيرة ، ومسجد عين بدلا ، ومسجد بدر ، وفي مسجدين أنشأهما هلمان بن الأجود ، وينبع مثلها في نوعية هذا التعليم مثل البلاد الأخرى التي كانت محطات على طريق ركب الحاج تقوم بتعليم صغار المسلمين القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، وبعض مواد تعاليم الدين الإسلامي ، وكما قام المسجد بنمط هذا التعليم ، فقد كان أيضا ببعض الأودية ، كوادي العيص المشهور بكثرة سكانه من قبائل جهينة ، وحرب وغيرهما الذي أنشئ فيه ، وفي غيره كتاتيب تقوم بتعليم القرآن الكريم(١) وكل المواد التي تدرس بالمسجد بالإضافة إلى تعليم الخط(٢) .

وقد انتشرت الكتاتيب في هذه الفترة لأن مهمتها قد زادت ، والعمل فيها كما يقول ابن الاخوة من أشرف المهن وأجلها قدرا لقوله ﷺ : "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(٣) ، وتوسعت الكتاتيب في نمط الدراسة فيها ، فبعد أن كانت قاصرة على تعليم الصبيان(٤) القرآن الكريم الذي كان نقطة الارتكاز في تعليمها أضيف إلى مهمتها أيضا معرفة السنن ، والقصص ، والأحكام الدينية وقواعد اللغة ، ومبادئ الحساب ، وتعليم الخط الذي كان من الصنائع العربية وتعليمه عند أهل المشرق كما يقول ابن خلدون : "كان له قانون ومعلمون له

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص١٦٥-١٦٦ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص١٤١٤ ، البلوي : تاج المقرن ج١ ، ص٢٧٨ ، العبدري : الرحلة ، ص١١٢-١١٣ ، البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٤٩٣ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ص٦٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم في كتاب الترغيب والترهيب ، ج٢ ، ص٢ . انظر : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص٢٦٠ ، ابن الحاج : المدخل ، ج٢ ، ص٣٠٦ .

(٤) الصبا : بكسر الصاد تكون مقصورة ، وإذا فتحها مددت فقلت : الصباء ، والصبي هو الغلام ويجمع على صبيه وصبيان . الرازي : مختار الصحاح ، ص٣٥٥-٣٥٦ .

على انفراده ... ولايتداولونها في مكاتب الصبيان ، ومن أراد تعلم الخط ... يبتغيه من أهل صنعته"[١] .

أما عن المدارس فلم يوجد بينبع مدارس نظامية بها خلال تلك الفترة لكنها تواجدت في حاضرتي بلاد الحجاز مكة والمدينة ، ففي مكة المكرمة شملتها المدارس التي أنشئت فيها بعد منتصف القرن السادس الهجري ، وأما المدينة فقد نشأت بها المدارس النظامية في بداية القرن الثامن الهجري ، أما ينبع ، أو مايماثلها من محطات ركب الحجيج خلال فترة هذه الدراسة ، فقد أغفلت المصادر ذكر مدارس نظامية بها ، وأيضا المراجع الحديثة في هذه الفترة لم تتعرض لذكر بعض هذه المدارس .

---

(١) المقدمة ، ص٤٦٣-٤٦٤،٥٩٥-٥٩٦ .

المبحث الخامس

أشهر العلماء والشعراء

ومن أبرز العلماء في ينبع أن هناك بعضا من طلاب المقريزي الذي كان مولده في بعلبك في بلاد الشام ، ونشأته في القاهرة وتتلمذ في العراق على يد علمائها ، وأخذ الكثير من تلاميذ السخاوي ، وتولى أمر الحسبة في القاهرة ، وترك في مكة ، وينبع ، والمدينة بعض الطلاب ، وعددا من الرسائل ، والكتب أشهرها السلوك ، الخطط ، وإتعاظ الحنفا[١] واستقر في نيبع وعاش بها .

وينبع كانت كالمدينة في هدوئها وليست بصخب مكة ، وبريقها ، ولم يكن فيها علماء باقين ، أو ماكثين فيها إنما مجاورين لها ، وتاركين طلابهم فيها الذين استفادوا من هؤلاء العلماء الذين كانوا مجاورين لينبع في المدينة ومكة ، فاستفاد الكثير منهم في مجيئهم لينبع ، أو المدينة بعد زيارتها ، وزيارة مكة ، فكمنت الفائدة بتلك الزيارات من هؤلاء العلماء العمالقة وحتى القضاة أيضا لم يكن لهم مكوث في ينبع إلا زيارات لها بعد زيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة[٢] .

ومن علماء ينبع محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد أبو عبدالله عز الدين الكناني ، ولد في ينبع سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ويعرف باسم ابن جماعة ، عالم باللغة والبيان والأصول وغيرها ، تتلمذ لابن خلدون وتوفي بالقاهرة سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م[٣] .

وأكمل الخطيب من سيرة ذلك العالم ، وذكر الكثير من مناقبه ، وماقيل عنه من كبار العلماء أمثال ابن خلدون ، والسيوطي ، وغيرهم ، وقد قال ابن خلدون عنه : "ولما نزلت بالينبع في حج ٧٨٩هـ التقيت بالأديب الفقيه المتفنن محمد بن جماعة" .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٨ ، ص٨٥ .

(٢) السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص٢٤٠ .

(٣) الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص٢٨٣ .

وهذا دليل واضح على مكانة محمد بن جماعة وشهادة عظيمة من المؤرخين العمالقة كما ذكر السيوطي في ترجمته وقال : "العلامة المتفنن المتكلم الجدلي النظار النحوي اللغوي البياني أستاذ الزمان وفخر الأوان الجامع لأشتات جميع العلم" ، وقيل عنه إنه حفظ القرآن في شهر واحد كل يوم يحفظ حزبا ، وزاد السيوطي عنه ، وقال كان شاعرا ، ومحدثا ، ومفسرا ، ونحويا صرفيا ، عالما بالبيان ، والبديع ، والمنطق ، والهيئة ، والحكمة ، والطب ، وصناعة اللفظ ، والكيمياء .

ومن صفات ابن جماعة أنه كان بارا بأصحابه يساويهم في الجلوس ، ويبالغ في اكرامهم دليل تواضعه وكرمه ، وحسن عشرته ، قصده طلاب العلم والمعرفة وتتلمذوا على يديه من المشرق والمغرب[١] .

ومن القضاة المشهورين أيضا والذي كان له دور كبير على مسرح الأحداث في ينبع ، ومع أمرائها القاضي محمد بن برهان الدين بن زبالة وكان يلقب (بأبي السعادات) وكان والده قاضي القضاة برهان الدين رجلا دينا عالما بكثير من العلوم ، والفنون كما يتصف بحسن التصرف ، كثير العبادة ، والصدقة ، والإحسان مع من عرفهم ، ومن لم يعرفهم ، وأغلب صدقاته كانت سرا[٢] .

ومن القضاة أيضا في ينبع أحمد بن راشد الينبعي الزيدي الذي كان متوليا أمور القضاء ، والأحكام الشرعية في وادي ينبع ، وكانت ولايته من الإمام الزيدي وتولى إمارة صنعاء سنين طويلة ، وكان زيديا لايقبل المخالفين لهذا المذهب ، قام بالحج سنة ٨١٩هـ ومات يوم النفر الأول ، ودفن بالمعلاة وبني على قبره نصب[٣] .

---

(١) الخطيب : تاريخ ينبع ، ص٩٢-٩٣ .

(٢) الجزيري : درر الفوائد ، ج٢ ، ص٧٨٣،٧٨٦ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٠ .

وقدم على ينبع عدد كبير من العلماء الذين كانوا في صحبة قوافل حجهم ، ومكثوا بها فترة طويلة ، تفاعلت معهم وبهم الحركة العلمية وكان في مقدمة من قدم من اليمن القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن يحيى[١].

ومن العلماء البارزين والشعراء والرحالة (أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي) وقد بلغ من العمر التسعين عاما وكان متنقلا في البلاد ، فقد كان شاعرا ، ورحالة ، وعرف بالجوالة[٢] ، ويكنى بالرحالة الحجازي حيث قام برحلة إلى الشرق الأقصى ، وكتب ماشاهده في تلك الديار في كتاب ضخم ترجم إلى عدة لغات[٣] .

ويعتبر أبو دلف من علماء الآثار في الينبعيين ، تتلمذ على يد المتنبي حيث تصدر في مجالس الأدب ، وأندية الشعراء ، تلقب بالخزرجي نسبة إلى الخزرج إحدى قبيلتي الأنصار الأوس والخزرج ، والخزرج هم بنو النجار أخوال الرسول ﷺ وكنيته بالينبعي نسبة إلى ينبع[٤] .

عاش أبو دلف يجوب الصعاب مغتربا في الأسفار ، وقصد ملوك الساسانيين والبويهيين ، وأنشد الأشعار ، وله قصائد ، كرس حياته لخدمة العلوم والآداب[٥] ، ومن رحلاته إلى بلاد الشام وهو أمام تدمر قام منشدا :

ماصورتان بتدمر قد راعتا ... أهل الحجى وجماعة العشاق
غبرا على طول الزمان ومره ... لم يسأما من ألفه وعنان

(١) العقد الثمين ، ج٤ ، ص٩٠ ، اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٤٠١ .
(٢) الحميري : الروض المعطار ، ص٢١٦ .
(٣) الزركلي : الأعلام ، ج٨ ، ص١٠٩ .
(٤) الثعالبي النيسابوري : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ص٣١٤ .
(٥) الخطيب : شعراء ينبع وجهينة ، ص٣٦-٣٧ .

فليرمين الدهر من نكباتـــه شخصيهما منه بسهم فران
كي يعلم العلماء إنه لادائم غير الإله الواحد الخـلاق

وتذكر المراجع أن أبا دلف لم يبق على حاله فقد أصبح رجلا فقيرا بعد أن كان مترفا غنيا ، ففي أبيات له قال فيها :

ألم ترني حين حال الزمـــان أصيف العراق وأشتو الجبال
سموم المصيف وبرد الشتاء حنانيك حـــالا أزالتك حـــال
فصبرا على حدث النائبـــات تأبى الحـــوادث إلا إنتقـــال

وهناك نصوص نثرية لأبي دلف ، ومنها وصف رحلاته عبر الصيـــن ، والهند ، وآسيا الوسطى . توفي أبو دلف ســـنة ٣٩٠هـــ/١٠٠٠م بعـد أن تجاوز التسعين عاما[١] .

ومن الشعراء المشهورين في نبع أحمد بن علي بن أبي القاســـم بـــن محمد بن حسين اليمني ، كان شاعرا نظم الشعر في مدح حسن بـــن عجـلان صاحب مكة ، وأنشده في هجاء صاحب ينبع ، وقتل سنة ٨١٩هـ عن عمـــر يناهز الثلاثين عاما ، أو يزيد[٢] .

ومن شعراء ينبع أمير مكة : قتادة بن ادريس بن مطاعن ، وكان قتادة أديبا شاعرا كما ذكرنا سابقا ومن أشعاره التي أرسلها إلى الخليفـــة النـــاصر العباسي في بغداد بعد زيارته للعراق لأمور سياسية ، وخـــروج أهـل بغـداد لاستقباله ، وخرج معهم رجل درويش ومعه أسد مكبل بالحديد ، فتشاءم قتادة ورجع من فوره إلى بلده وكتب إلى الخليفة العباسي قائلا :

بلادي ولو جارت علي عزيـــزة ولو أنني أعرى بها وأجـوع
ولي كف ضرغام أصول ببطشها وأشرى بها بين الورى وأبيع

---

(١) الزركلي : الأعلام ، ج٨ ، ص١٠٩ ، الخطيب : شعراء ينبع وجهينة ، ص٤٣ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص١٤٠ .

ومـاأنـا إلا المسك في كل بلدة　　　أضوع وأما عندكم فأضيع[١]

كما لقتادة من الأشعار في أبناء عمومته حين هدده الخليفة الناصر العباسي بأنه سوف يرسل له جنودا كثيرة ويخرجونهم أذلة من بلادهم أرسل إلى بني عمه في المدينة من بني الحسين يستنجدهم قائلا :

بني عمنا من آل موسى وجعفر　　　وآل حسين كيف صبركم عنا

بني عمنا إنـا كأفنان دوحة　　　فلاتتركونا يتخذنا الفنا فنـا

إذا ماأخ خلى أخـاه لآكـل　　　بدا بأخيه الأكل ثم به ثنـا[٢]

ومن نظمه الذي أبان انطباعه عما حدث له من فتن في أماكن كثيرة ذكره له وزيره النجم الريحاني[٣] هو :

بآرام فتنت فيه بكـل ريـم　　　وهم عموا فؤادي بالغميـم

وفي وادي العقيق رأوا عقوقي　　　كما حطموا ضلوعي بالحطيم[٤]

ومن شعر الحسن بن علي بن قتادة ، الملقب بأبي سعد صاحب مكة وينبع ، قتل بخمس من شوال سنة ٦٥١هـ ، قال فيه ابن فهد نقلا عن ابن مسدي : "كان فاضل الأخلاق ، طيب الأعراق ، كثير الحياء ، جمع الشجاعة والكرم ، والعلم والعمل ، وكان يشعر ، وينظم ، وينثر ، إلا أنه نزع بآخرة إلى هوى نفسه ، واغتر يومه بأمسه ، فحار عما كان عليه من الحزم ، وحل عروة العزم ، فأتي من مأمنه ، وخرج عليه في مكمنه ، وجرع بمكانه كأس المنايا ، وعظم لفقده الرزايا"[٥] .

---

(١) عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٥٦٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٢ ، وفيها (أذل ببطشها) .

(٢) العصامي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٠٩ ، الخطيب : رجال وأسر من ينبع ، ص١٠ .

(٣) الريحاني : هو سليمان بن عبد الله بن الحسن التميمي ، وهو وزير قتادة ، له ترجمة مبسوطة في العقد الثمين ، ج٤ ، ص٦٠٧ ، انظر أيضا العقد الثمين ، ج٧ ، ص٥٥ ، غاية المرام ، ج١ ، ص٥٦٩ .

(٤) ذكر ياقوت في معجمه ج٤ ، ص٣١٤-٣١٥ أن الغميم : موضع قرب المدينة بين رابغ والجحفة .

(٥) اتحاف الورى ، ج٣ ، ص٦٣٥-٦٣٦ .

وأبو سعد له قصيدة أولها[١] :

خذوا قودي من أسير الكلل فواعجبا من أسير قتل
ولي قمر بدا في الدجـــى وأبصره البدر إلا أفــل
يخفف قــامتـــه بالقنـــا ويثقل أردافه بالكفـــل
وجــاد الزمـــان به ليلـــة وعما جرى بيننا لاتسل

ونلاحظ من خلال ماذكرنا أن نظم الشعر قد فاق سائر العلــوم العربيــة الأخرى ، وأن أغراضه غالبا ماتناولت الفخر ، والمدح ، والهجــاء ، وأنهــم كغيرهم من حكام حواضر إسلامية أخرى حرصوا عليه ، وشـــغفوا بــه فــي أنديتهم ، وعقدوا له مجالسه ، وأولوهم عنايتهم ، وحسن تقديرهـــم ومجمــل أغراضه كما ذكرناها آنفا لكني أود أن أنوه إلى أنها كانت تدور حـــول تخليــد ذكرهم ، أو البقاء على دعوتهم ، وتناول أنسابهم ، والفخر بســـمو أصلهــم ، وكانوا يحرصون على إنشاده في كل مناسبة تدعيما لاثبات نسبهم ، وإظهـــارا لعراقة أصلهم جريا على نهج حكام البلاد الأخرى الذي كان يدور في مجملـــه حول مديحهم والفخر بعراقة أسرهم[٢] .

وهؤلاء مع من ذكرناهم من علماء قد أثروا الحياة العلمية إلى حد مـــا في ينبع ، وانعكست معارفهم على سائر بلاد الحجاز وغيرها فزادوها معرفـــة وازدهارا .

---

(١) نفس المصدر والجزء ، ص٦٣٦ .

(٢) انظر حوادث السنين ضمن تراجم الخلفاء الفاطميين في النجوم الزاهرة ، الجزء الخامس ، المقريـزي الخطط ، ج٢ ، ص٣٤٣ ومابعدها ، السليمان : العلاقات الحجازية ، ص٢٤٣ .

الخاتمة

فالحمد لله أولا وآخرا ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد :

فبعد كتابة البحث عن (بلاد ينبع ـ دراسة تاريخية حضارية ٣٦٢/ ٩٢٣هـ) توصلت بعون من الله وتوفيقه إلى النتائج الآتية :

(١) أن بلاد ينبع جزء حبيب من بلادنا العزيزة ، وأنها تاريخها مازال في حاجة ماسة إلى دراسات جادة ، توضح معالم هذا التاريخ المجيد .

(٢) أعطى قرب ينبع من المدينة المنورة خصوصية هامة لتاريخ المنطقة وجغرافيتها فعني بالكتابة عنها كثير من المؤرخين والجغرافيين والأدباء والرحالة المسلمين .

(٣) كانت ينبع من أبرز محطات طرق الحج المصري البري الذي كان يأخذ الساحل من العقبة إلى مكة المكرمة ، كما كانت أيضا من أبرز طرق الحج البحري لحجاج مصر والمغرب .

(٤) لعبت ينبع دورا تاريخيا هاما في حوادث صدر الإسلام لوقوعها على طرق القوافل التجارية بين الحجاز والشام ، وشهدت كثيرا من غزوات الرسول في العشيرة وبواط والعيص .

(٥) ظهر بينبع عدد كبير من المشاهير الذين عرفوا على امتداد عصور التاريخ الإسلامي كحرملة المدلجي ، وشد بن مالك الجهني من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومحمد بن صالح من آل الحسن ، ومسعر بن مهلهل الخزرجي الرحالة الجغرافي الذي نقل عنه ياقوت كثيرا من معلومات الشرق الأقصى ، وقتادة بن إدريس رأس أشراف مكة الذي أسس دولة استمرت سبعة قرون ونصف ، كما كان منها إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى .

(٦) كانت ينبع من بلاد جهينة ، كما عاش بها أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولهم بها قرى وآبار ومزارع غناء واشتهر بها فروع بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٧) كانت ينبع تشارك في حماية طريق الحج المصري المغربي فتقوم بدفع ضريبة للعربان حتى تأمن هجومهم على القوافل ولم تلغ هذه الضريبة إلا في سنة ٨٤٤هـ ، كما كانوا يساعدون أمير الحج بدفع ضريبة له يضيفها إلى نفقات ركب الحج المصري .

(٨) كانت ينبع من مدن الحجاز الهامة ، لها أمير مثل مكة ، وبها تجارات ودور واسعة ، وبساتين وزروع ، وهي بندر كبير للتجار .

(٩) ولذا كانت ينبع من المناهل الكبار التي يأخذ منها أمير الحاج وكذلك الحجاج كل مايحتاجونه للوصول إلى مكة المشرفة .

(١٠) أخذت أهمية ميناء ينبع تزداد في أواخر القرن السادس الهجري بعد ضعف ميناء الجار وتعطل مرافقه .

(١١) قامت ينبع بدور سياسي هام في الحجاز ، وشاركت في صنع أهم الأحداث السياسية بمنطقتي مكة والمدينة وكان حكام مكة ينتسبون إلى أشرافها بني الحسن .

(١٢) كان لينبع علاقات متميزة مع المدينة المنورة ، وساهمت مساهمات فعالة في الميدان التجاري والسياسي معها .

(١٣) ارتبطت ينبع بمكة المكرمة ارتباطا عضويا وخاصة أن أمراء مكة من ينبع من الحسنيين وكانت حصنهم وملجأهم في أحداث الفتن والاضطرابات .

(١٤) كما وضحت العلاقة بين ينبع ومصر في أشكال متعددة من التعاون التجاري والعسكري والسياسي ، حتى أن المماليك ـــ في أغلب

الفترات ــ كانوا يهتمون باختيار نائب ينبع وتعيينه بأنفسهم من أشراف بني الحسن أو غيرهم .

(١٥) سكنت ينبع كثير من القبائل التي لعبت دورا كبيرا في أحداث المنطقة مثل جهينة وبنو ضمرة وليث وبعض بطون حرب ، كما قام القاطنون بها من المصريين والشاميين والأتراك بدور حضاري في المنطقة خاصة بينبع البحر .

(١٦) قام ميناء ينبع بدور تجاري هام في إمداد المدينة المنورة بكل احتياجاتها من الميرة والغذاء ، وكل ماتحتاجه لعمارة المسجد النبوي .

(١٧) كان ميناء ينبع من الموانئ المهمة على ساحل البحر الأحمر خاصة بعد تعطل الطرق التجارية القديمة بسبب الغزو المغولي .

(١٨) كما كانت محطة هامة على طريق القوافل إلى المدينة المنورة أو مكة المكرمة تحمل البضائع إلى داخل الجزيرة العربية ، وتصدر عبر مينائها منتجات الإقليم من تمور ، وعطور وغيرهما .

(١٩) اشتهرت ينبع بحكم تنوعها الجغرافي في السطح والمناخ في مجال الزراعة والرعي .

(٢٠) كانت حرفة الصيد وصنع الشباك والجلاب من الحرف الرائجة في ينبع ولقد نافست مدينة جدة في صناعة إصلاح السفن .

(٢١) تميزت ينبع بوجود بعض القلاع والأسوار القديمة التي كانت تقوم بحماية المدينة والدفاع عنها ، وظلت آثارها شاهدة على ذلك .

(٢٢) توجد بينبع بعض آثار العمارة الدينية من مساجد وسبل وأربطة تشهد بالخدمات التي كانت تقدم لقوافل الحجيج ولأهل المدينة .

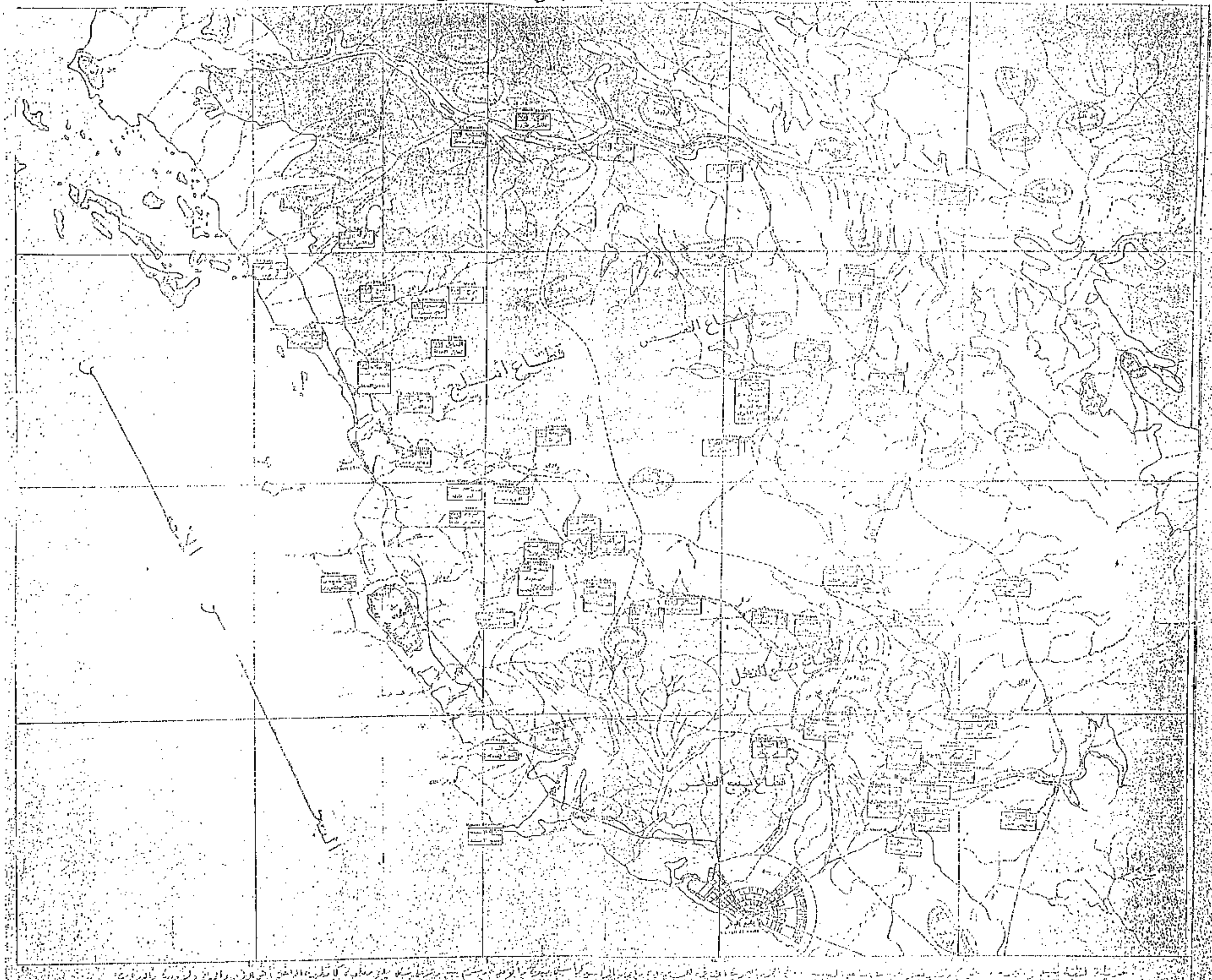
(٢٣) ازدهرت ينبع بالثقافة والعلم وبوجود بعض العلماء والشعراء مثل غيرها من مدن الجزيرة مهد العلم والعلماء .

الملاحق

الملحق الأول

خريطة تفصيلية مكبرة لمنطقة ينبع

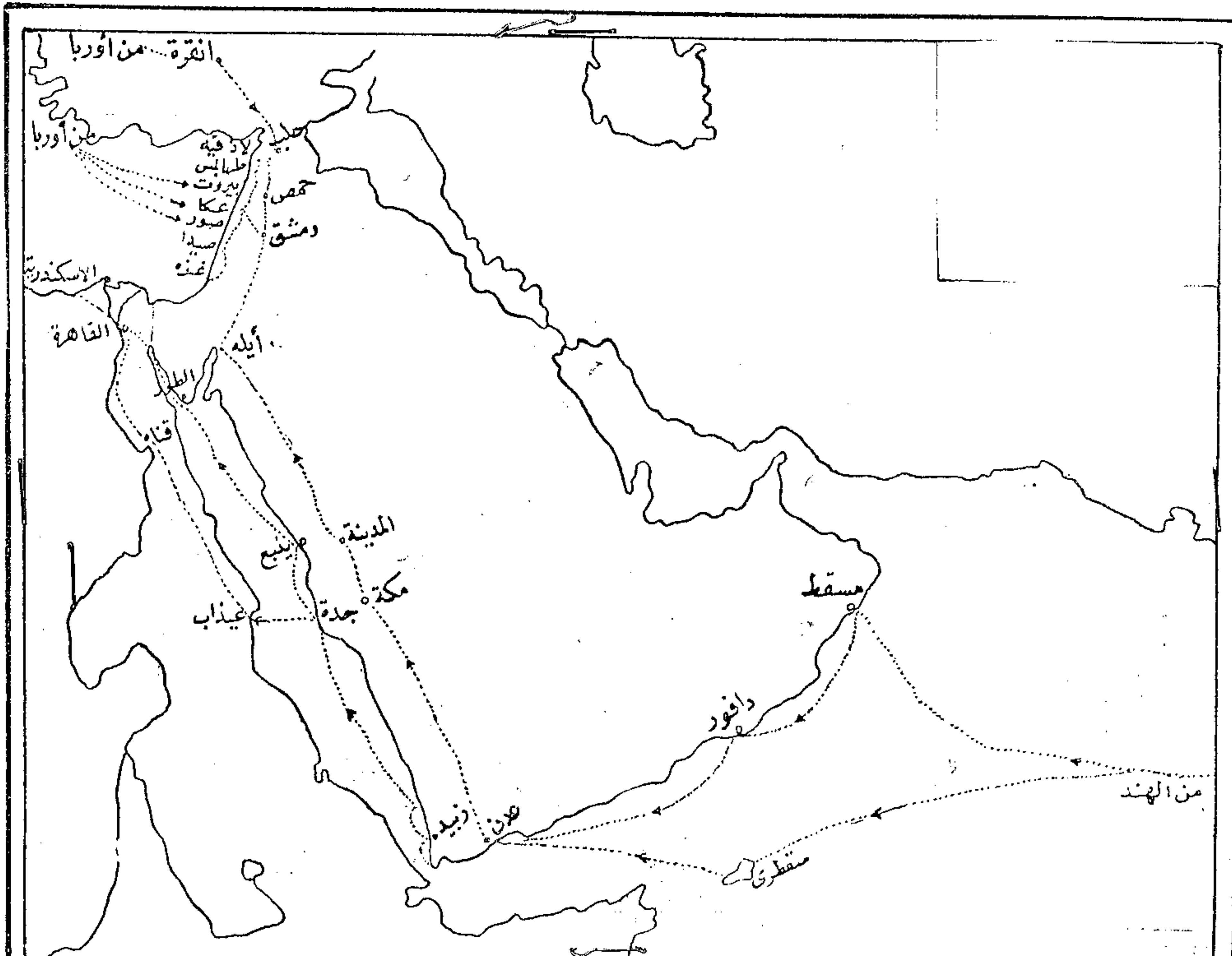
خريطة تفصيلية لـ "ينبع" البحر والنخل "



الملحق الثاني

خريطة لموقع ينبع على الطريق التجاري الذي أنشأه المماليك بعد تهديد المغول لطرق التجارة العالمية

هكذا يبدو
موقع «ينبع
المميز على
البحر الأحمر
عبر طريق القو
البحرية ممتد
جنوب وشرق
آسيا إلى مص
ودول الشام
وأوروبا.



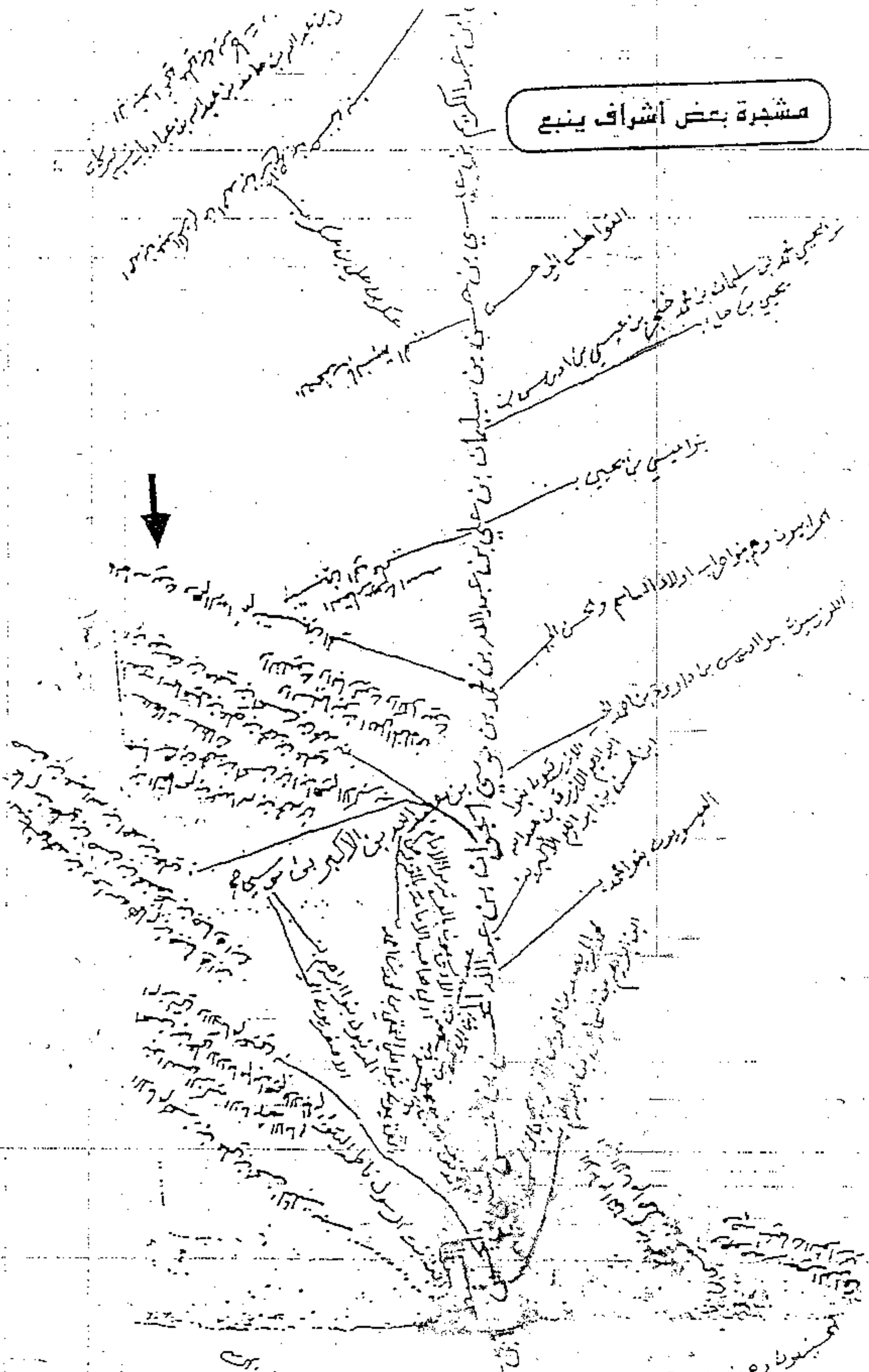
الملحق الثالث

مشجرات بأسماء أشراف ينبع وولاتها
من أسر ذوي هجار

١ أمراء ينبع من الأشراف ذوي هجار آل قتادة بن إدريس

...مير بن جار امير ينبع ---- في عام ٧٩٤ هـ
...ر وبير بن بجار
...مقبل بن نجار ---- في عام ٧٩٤ هـ
...عقيل بن وبير ---- سنة عام ٨٠٥ هـ
...هجار بن وبير تولى الى عام ٨٢٤ هـ ×
...ـع تولاها الى عام ٨٤٦ هـ
...ار بن محمد بن مسعود
...ـلط بن وبير تولى وتوفي في عام ٨٥٨
...ي بن هجار بن وبير في عام ٨٥٦ هـ
...ا ن بن وبير بن بجار
...قر بن وبير امراء الى عام ٨٥٥ هـ
...م بن عقيل بن وبير بن بجار في عام ٨٥٩ هـ
...م بن اجود في عام ٨٥٢ هـ.
...ع بن مضر بن هجار بن وبير بن بجار
...ح بن هجار بن مسعود الحسني في عام ٨٨٧
...الله بن عبد المحسن
...لله الوما ر
...بن عبد الله الوما
...

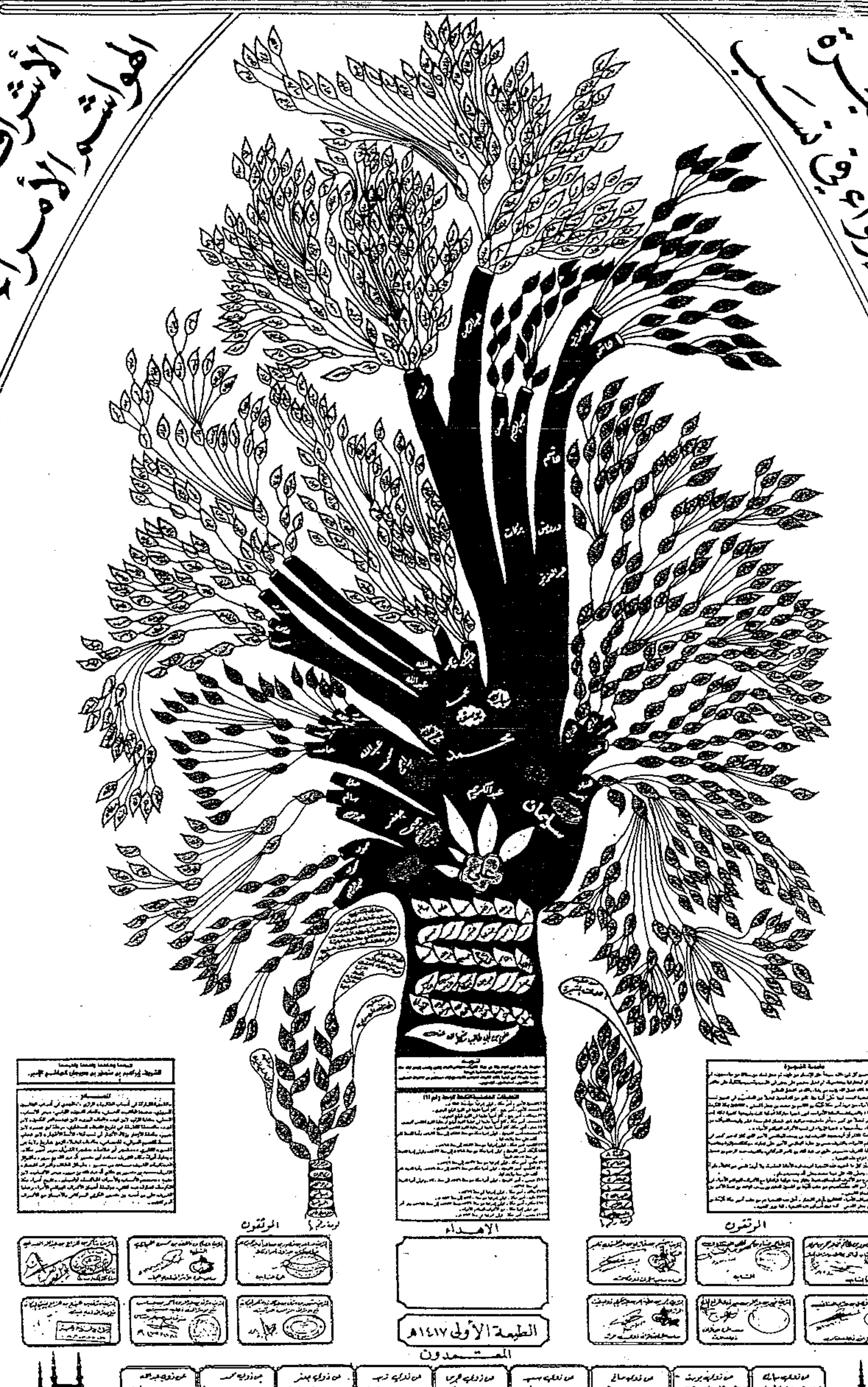
مشجرة بعض أشراف ينبع



الملحق الرابع

مشجرات للأشراف من الطبقات الأربع


من عقبة الأشراف القتاديون وهم: آل زيد، العبادلة، آل بركات، ذوو حراز، المناديل، آل خيرات، الحرث، الشنابرة، ذوو جود الله، ذوو هازان، ذوو سرور، المناعمة، الغوالب، ذوو عمرو، الراجحة، الشكبان، ذوو عناة، الفقارية، الجالسة، ذوو محسن، ذوو فجار
من عقبة الأشراف الهواشم الأمراء وهم ذوو مبارك، وذوو عبد الله وذوو صالح وذوو يوسف، وذوو هجرس، وذوو محمد وذوو زيد، ذوو جعفر وذوو سعيد
من عقبة الأشراف الموسويون
من عقبة الأشراف السليمانيون في جازان وما حولها وهم: الخواجيون، العلاقية، الذروليون، القاسميون، الغليسيون، النعميون، العابريون، الجبافرة، المشام، آل الشبائي، آل الشاخ، الجواهر.
عبد الله الرضا
موسى الجون
عبد الله المحض
الحسن المثنى
الحسن السبط
علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه
شجرة النقباء الطبقات الأربع من أشراف الحجاز

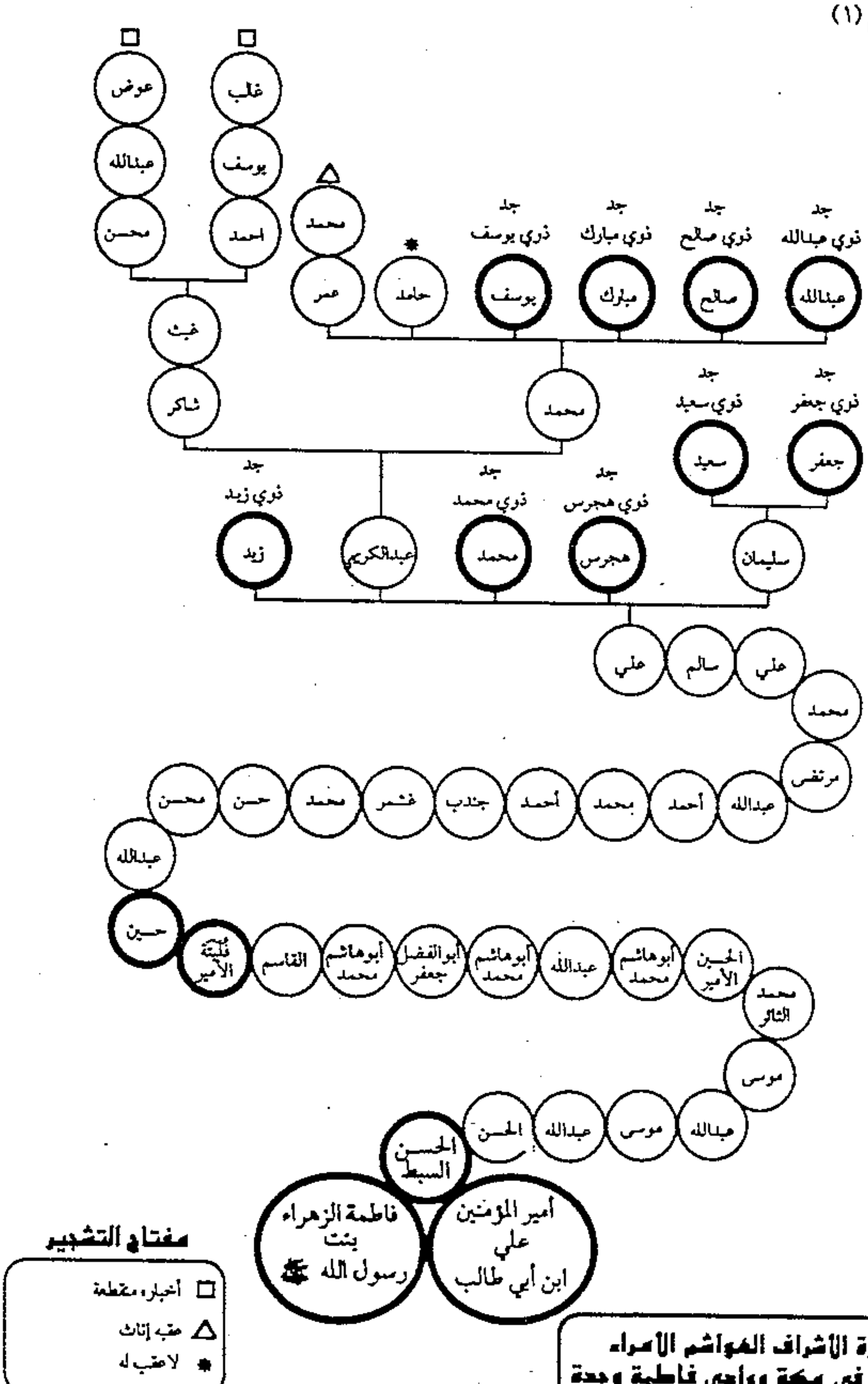


المرتقون
الإهداء
المرتقون
الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
المعتمدون

الملحق الخامس

مشجرات مفصلة للأشراف الهواشم

مشجر رقم (١)

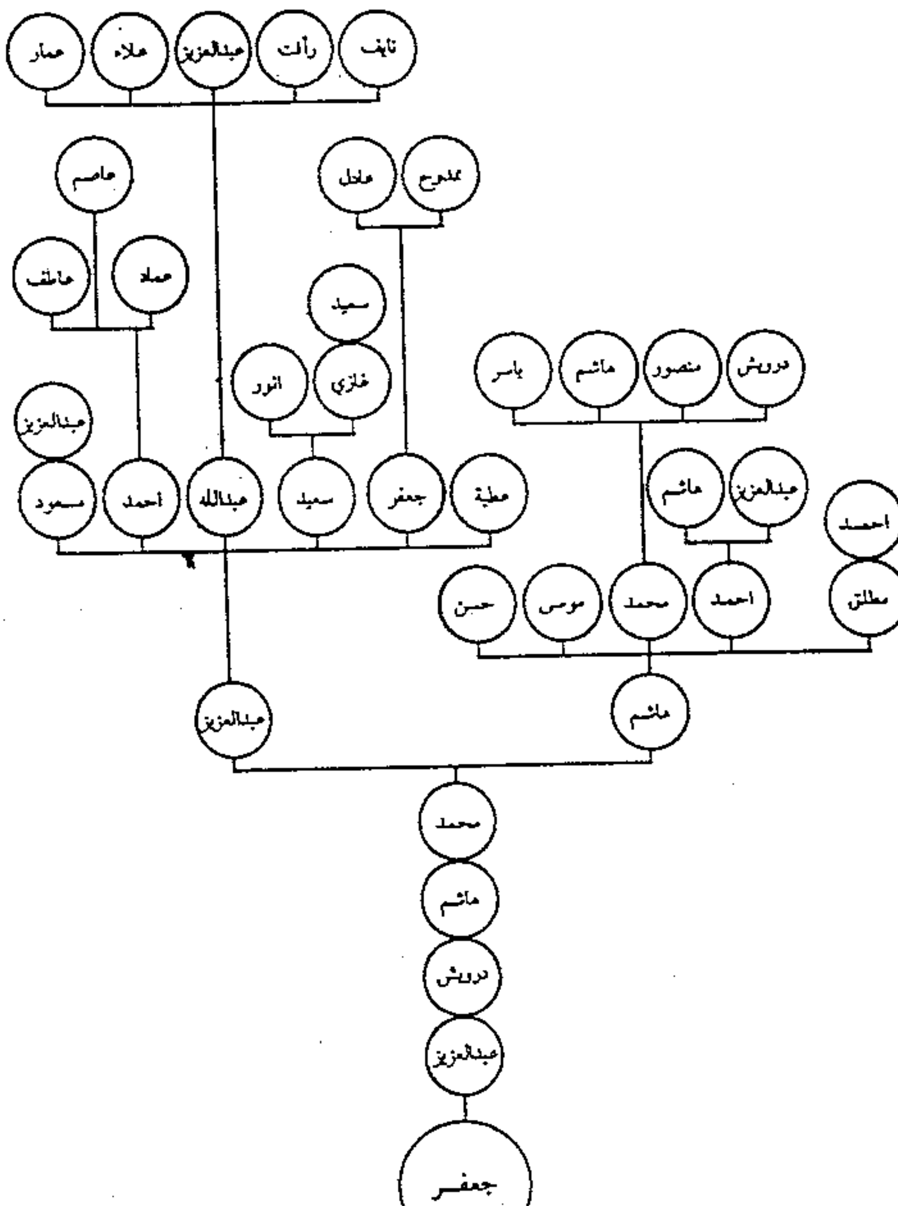


مشجرة الأشراف الهواشم الأمراء
القاطنين في مكة وواديي فاطمة وجدة

وينقسمون الى تسعة افخاذ، هم: ذوو مبارك، وذوو يوسف، وذوو صالح، وذوو عبدالله، وذوو هجرس، وذوو سعيد، وذوو جعفر وذوو زيد، وذوو محمد.

نسقها / الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٢)



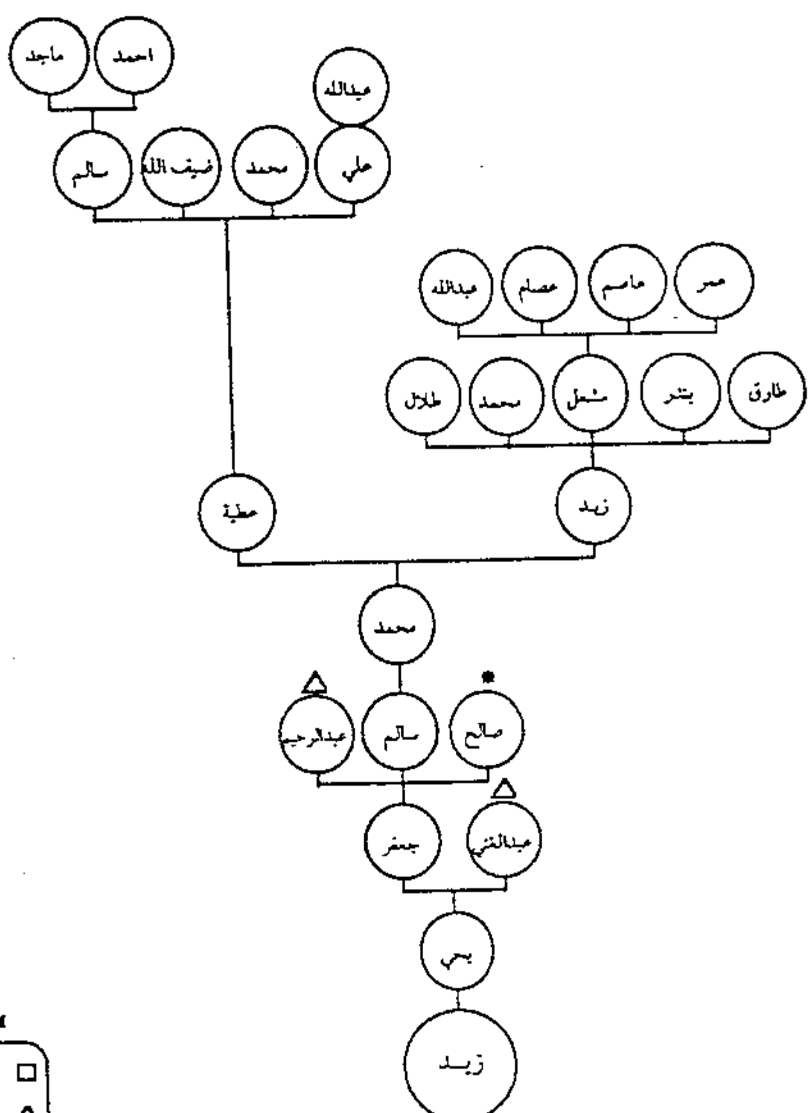
لمعرفة اصول جعفر انظر مشجر رقم (١)

مفتاح التشجير

- □ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ✱ لاعقب له

ذوي جعفر من الأشراف الهواشم الأمراء
اعدها : الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٣)



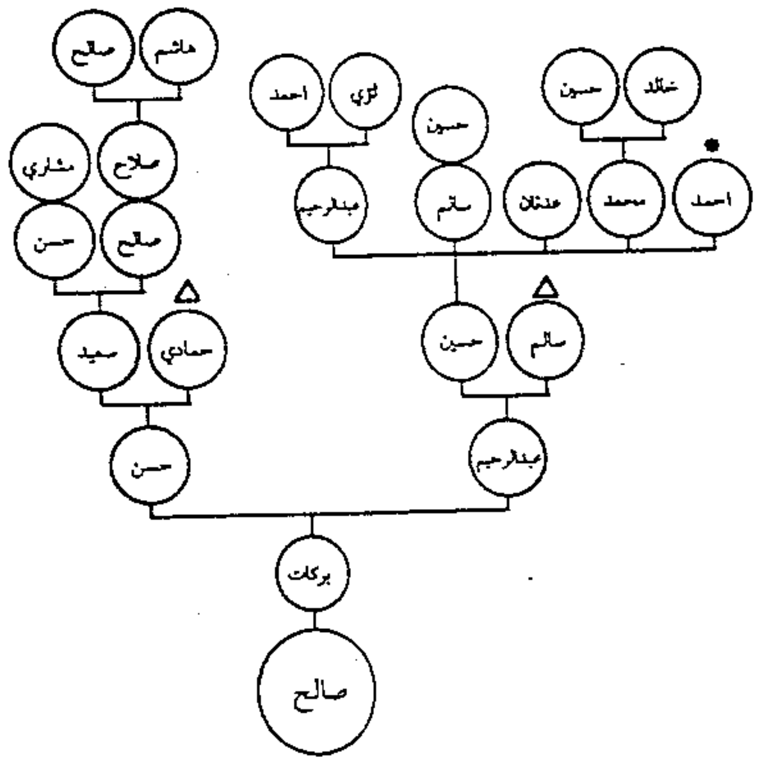
لمعرفة اصول زيد. انظر مشجر رقم (١)

مفتاح التشجير

- □ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ✱ لاعقب له

ذوو زيد من الأشراف الهواشم الأمراء
اعدها : الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٤)



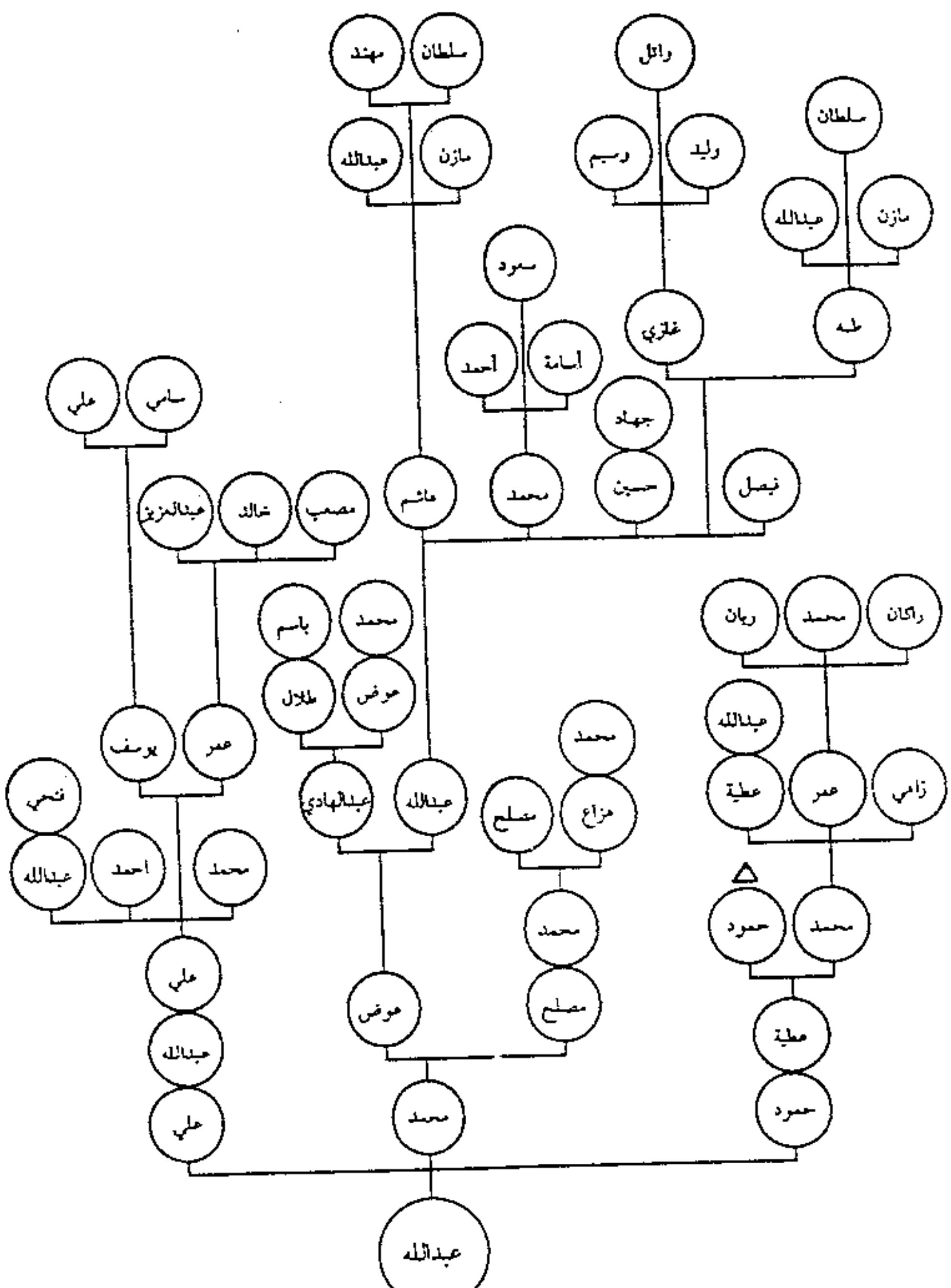
لمعرفة اصول صالح، انظر مشجر رقم (١)

فرو صالح من الأشراف الهواشم الأمراء
اطلعا: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مفتاح التشجير

☐ أخباره منقطعة
△ عقبه إناث
✱ لاعقب له

مشجر رقم (٥)



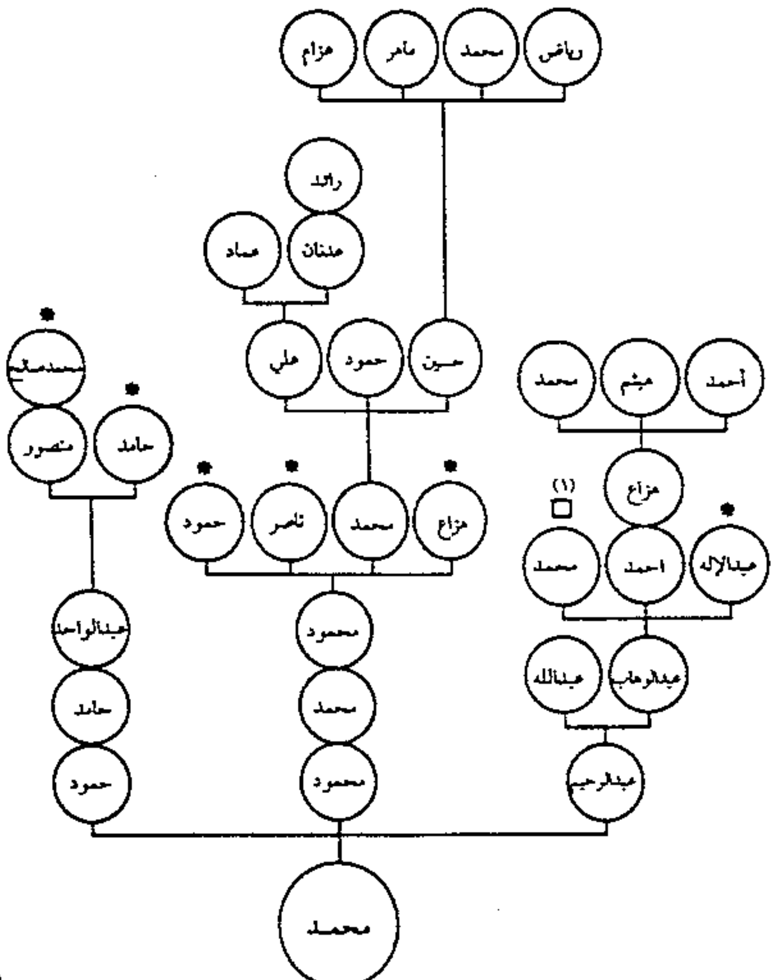
لمعرفة أصول عبدالله، انظر مشجر رقم (١)

ذرو عبدالله من الأشراف الهواشم الأمراء
أعدها: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مفتاح التشجير

- ☐ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ✱ لاعقب له

ر رقم (٦)



لمعرفة اصول محمد، انظر مشجر رقم (١)

مفتاح التشجير

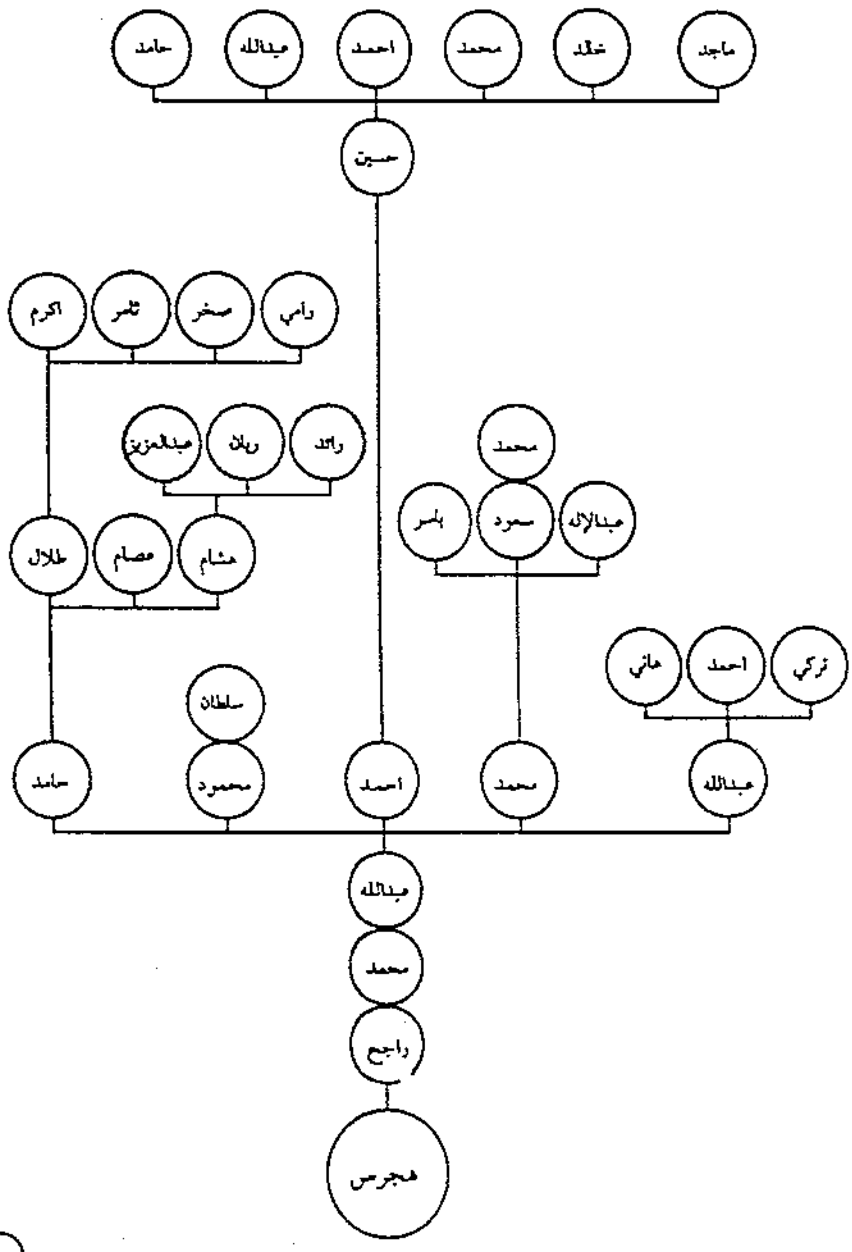
- □ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ● لاعقب له

ح الى تركيا في عهد الملك حسين.

محمد من الأشراف الهواشم الأمراء

: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٧)



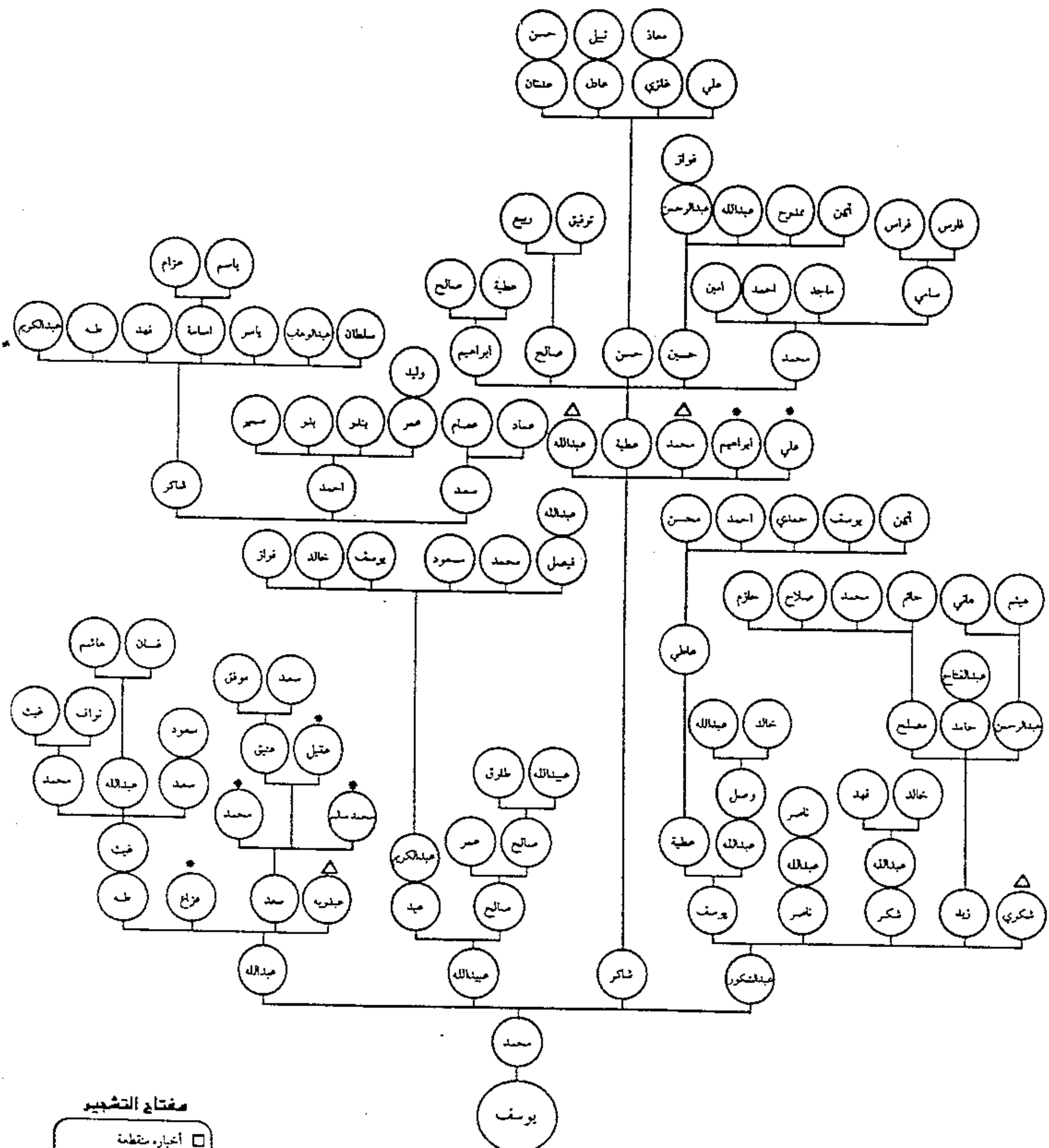
لمعرفة اصول هجرس، انظر مشجر رقم (١)

مفتاح التشجير

- □ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ✱ لا عقب له

ذوو هجرس من الأشراف الهواشم الأمراء
اعدها: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٨)



مفتاح التشجير

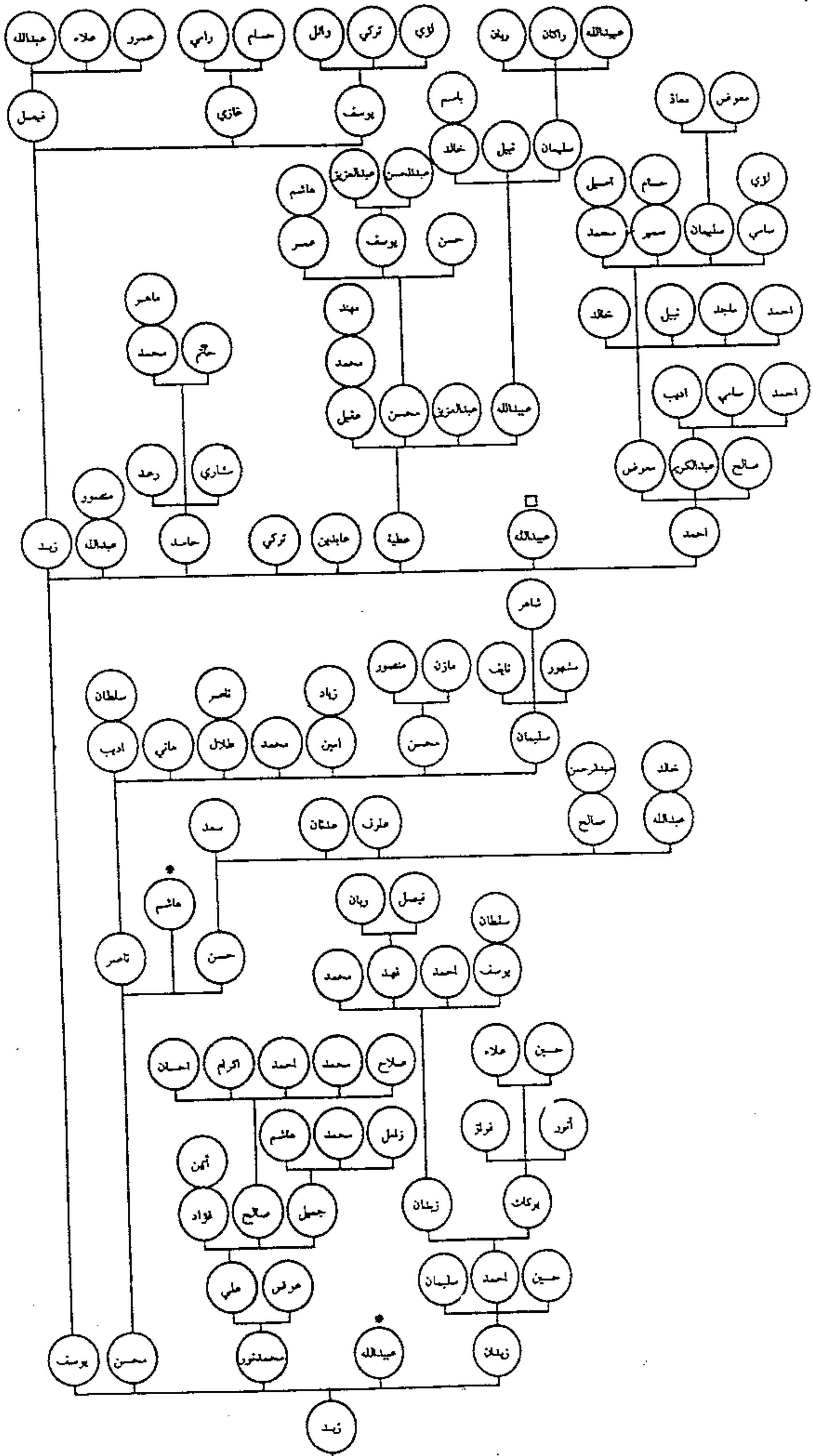
- ☐ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ● لاعقب له

لمعرفة اصول يوسف، انظر مشجر رقم (١)

ذوو يوسف من الأشراف الهواشم الأمراء

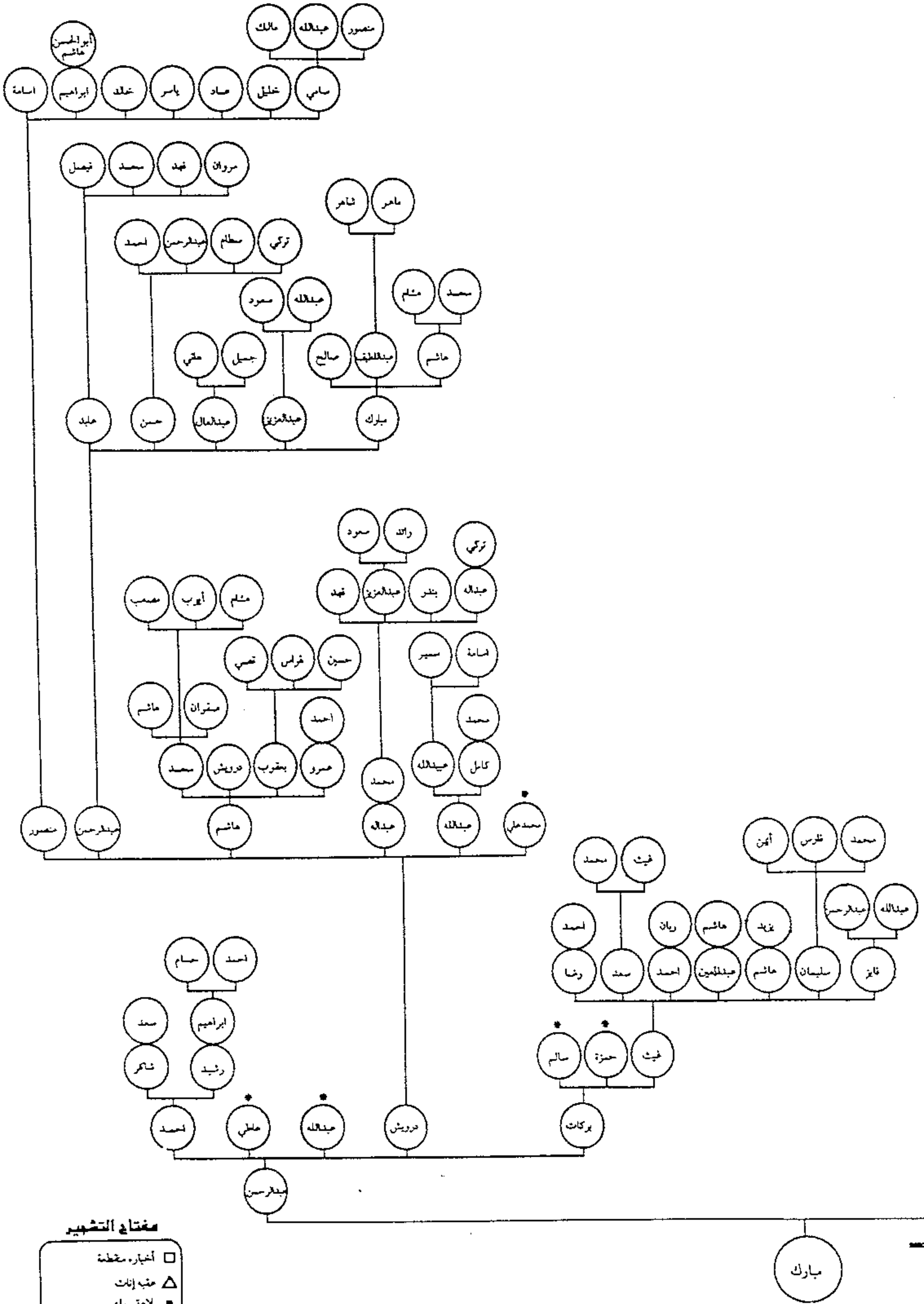
أعدها: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

مشجر رقم (٩)



نور مبارك من الأشراف الهواشم الأمراء، ومنهم صاحب الرسالة
اعدها: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

... و مبارك من الأشراف الهواشم الأمراء

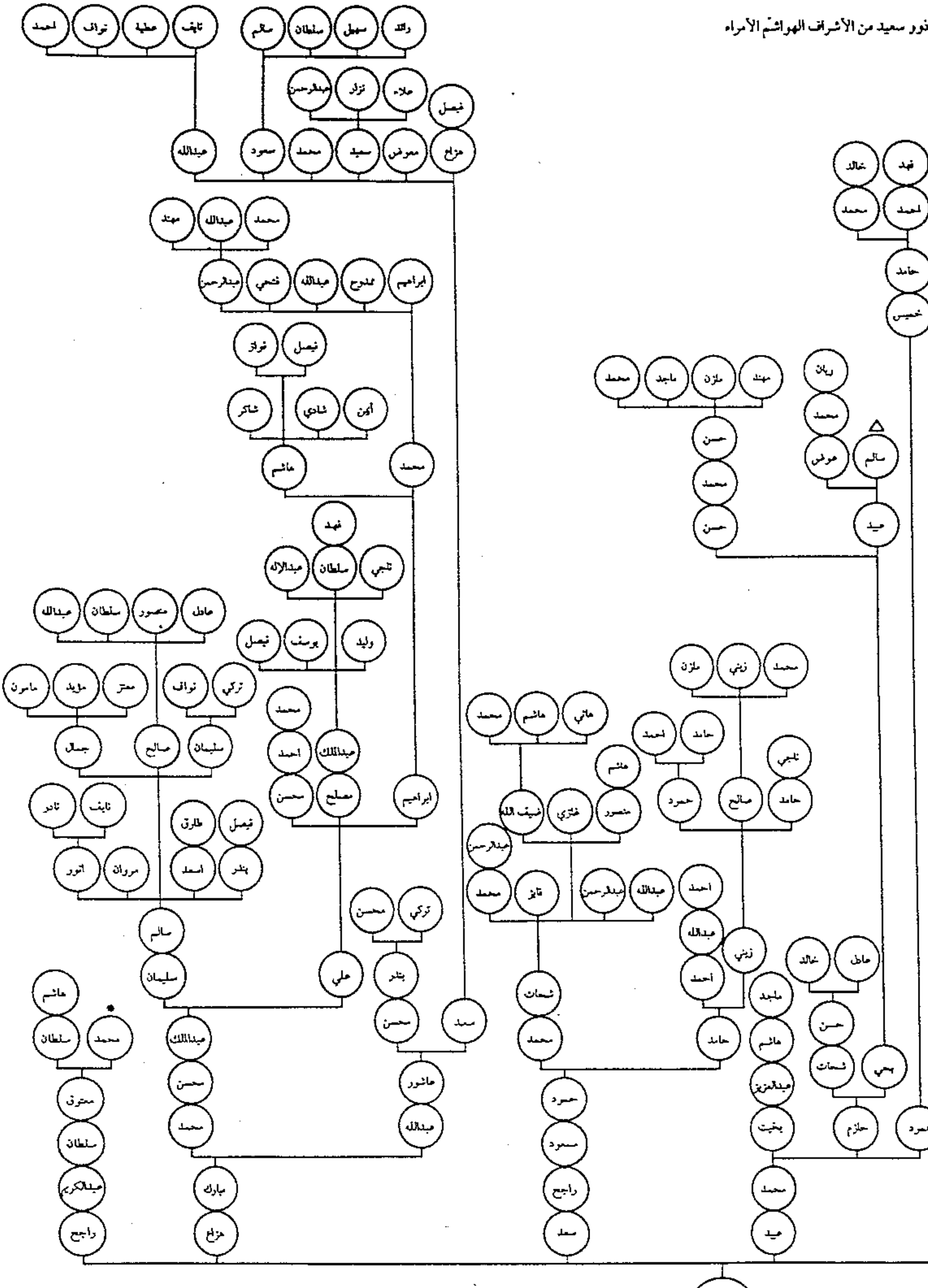


مفتاح التشجير

- □ أخباره منقطعة
- △ عقبه إناث
- ● لاعقب له

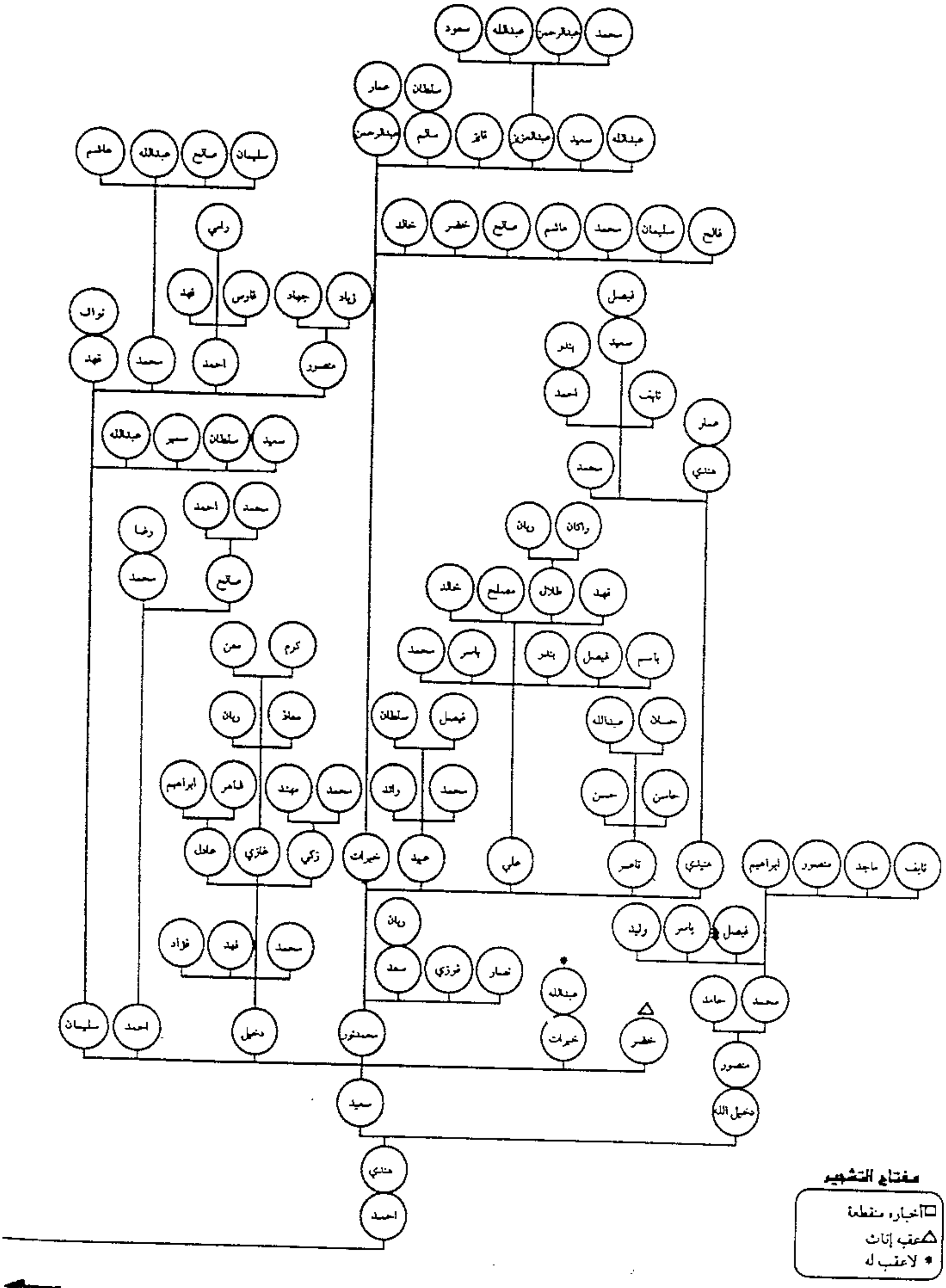
لمعرفة اصول مبارك، انظر مشجر رقم (١)

نور سعيد من الأشراف الهواشم الأمراء



لمعرفة أصول سعيد ـ انظر مشجر رقم (١)

مشجر رقم (١٠)



مفتاح التشجير

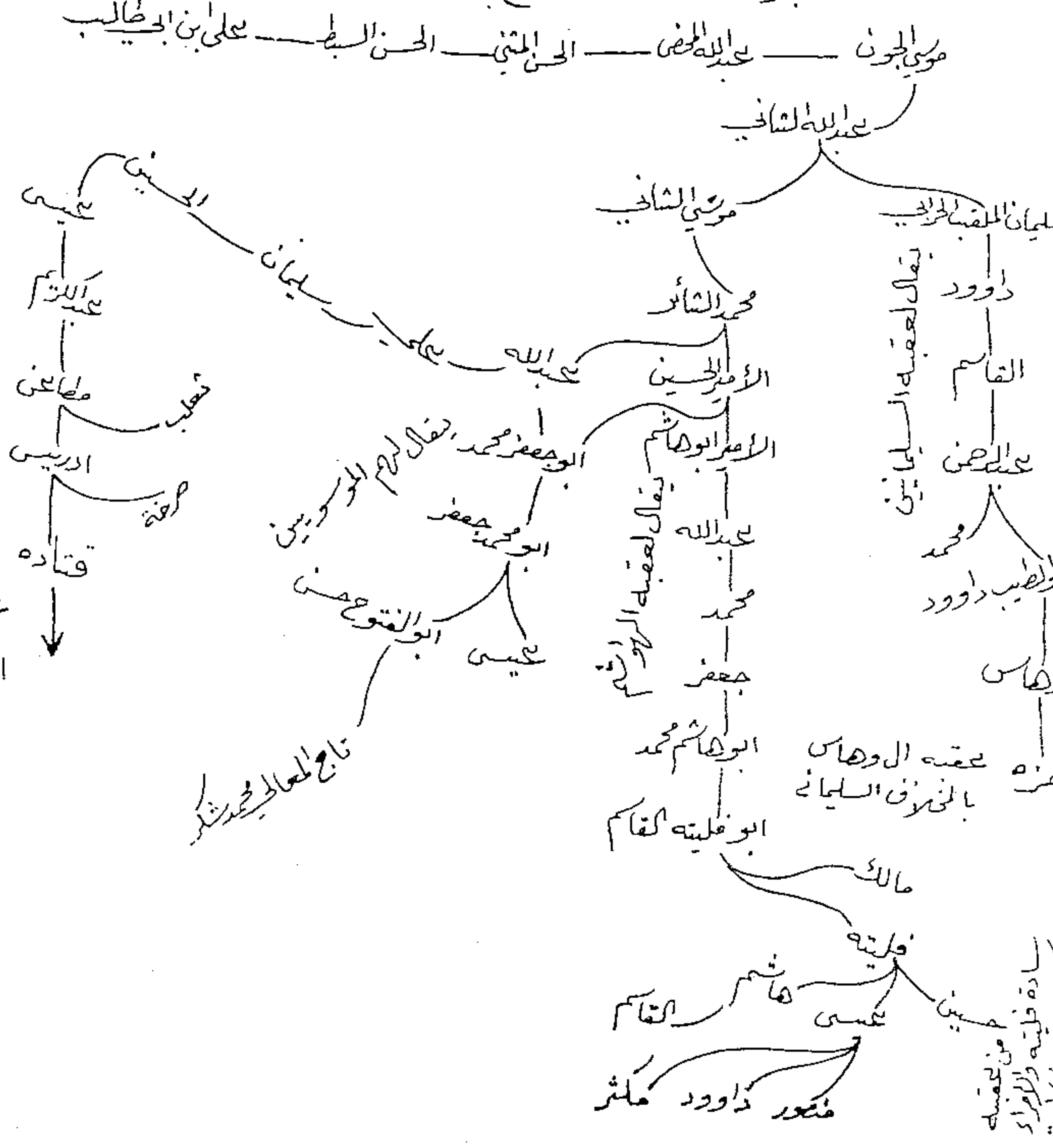
□ أخباره منقطعة
△ عقب إناث
* لاعقب له

ذرر سعيد من الأشراف الهواشم الأمراء
اعدها: الشريف ابراهيم بن منصور الهاشمي الأمير

الملحق السادس

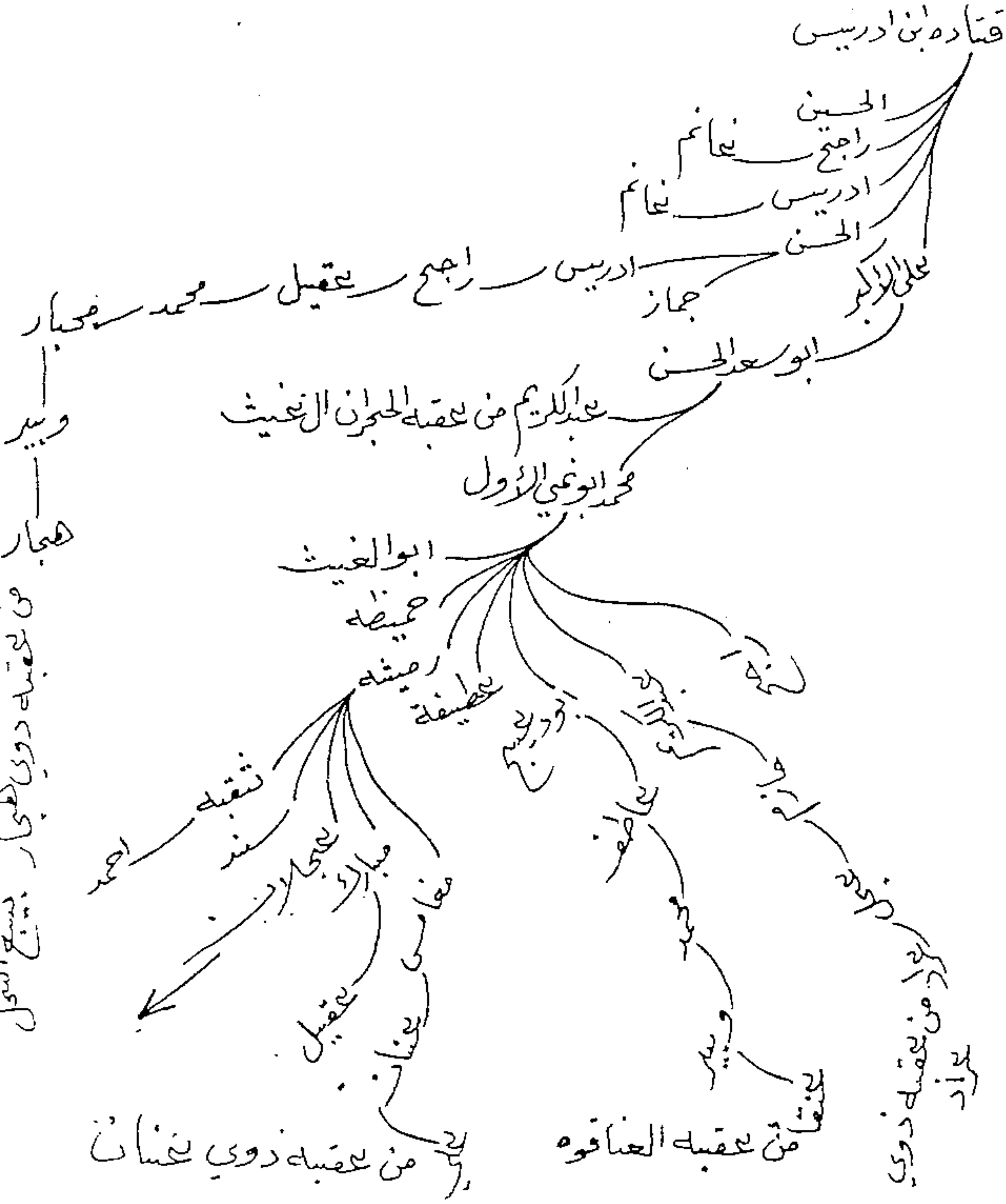
مشجرات لأمراء مكة من الأشراف
من عام 358 إلى عام 1344هـ

مشجرة امراء مكة من عام ٣٥٨ هـ الى عام ٥٩٨ هـ



رقم ٢

مشجرة امراء مكة من عام ٥٩٨ هـ الى عام ١٢٤٤ هـ



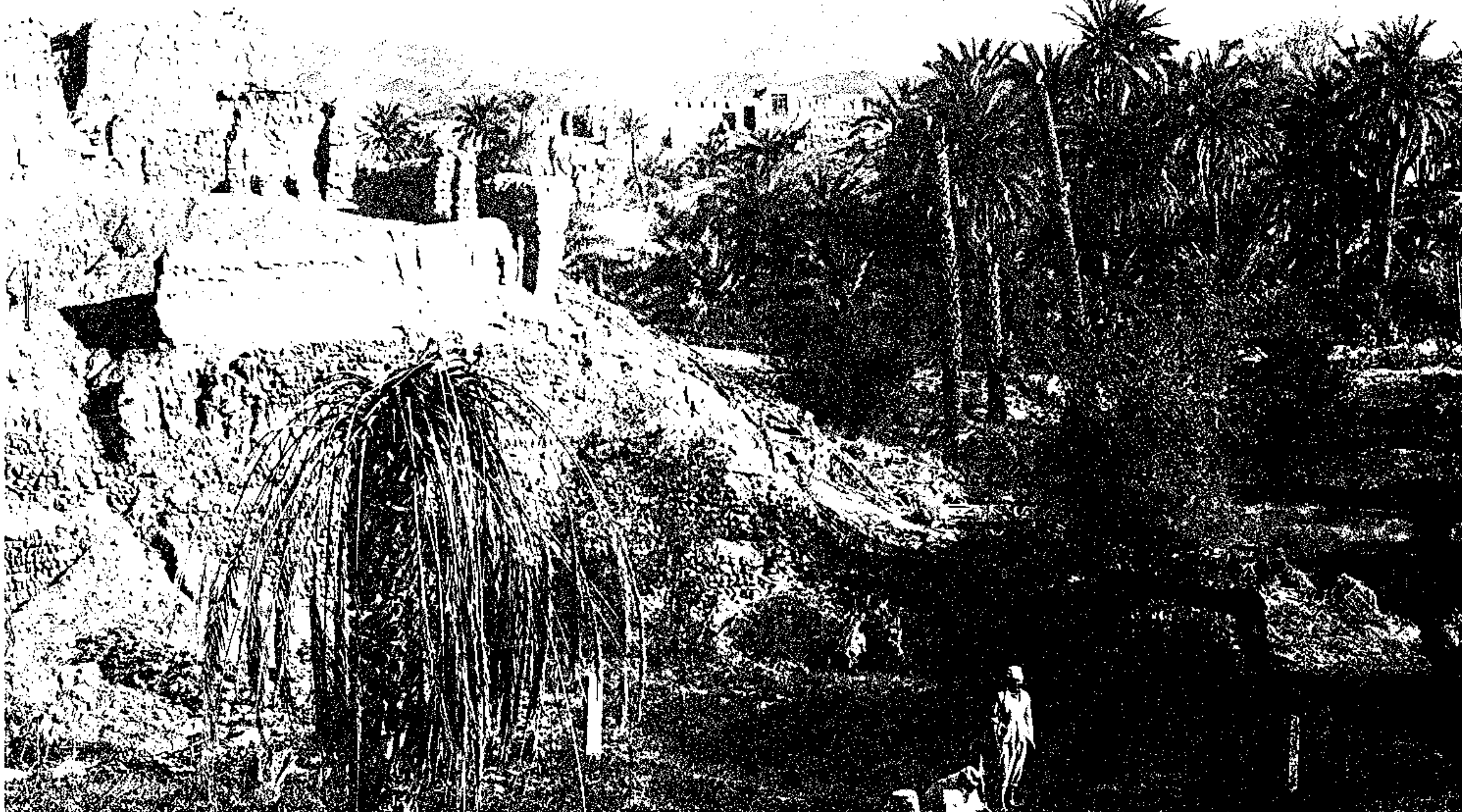
رقم 3



عجلان بن رميثة
احمد
محمد
علي
حسن
رميثة
ابراهيم
علي
من عقبهم ذوي حسن اهل الشو
احمد
بركات
ابو القاسم
محمد
علي
قايتباي
هزاع
حميضة
بركات

الملحق السابع

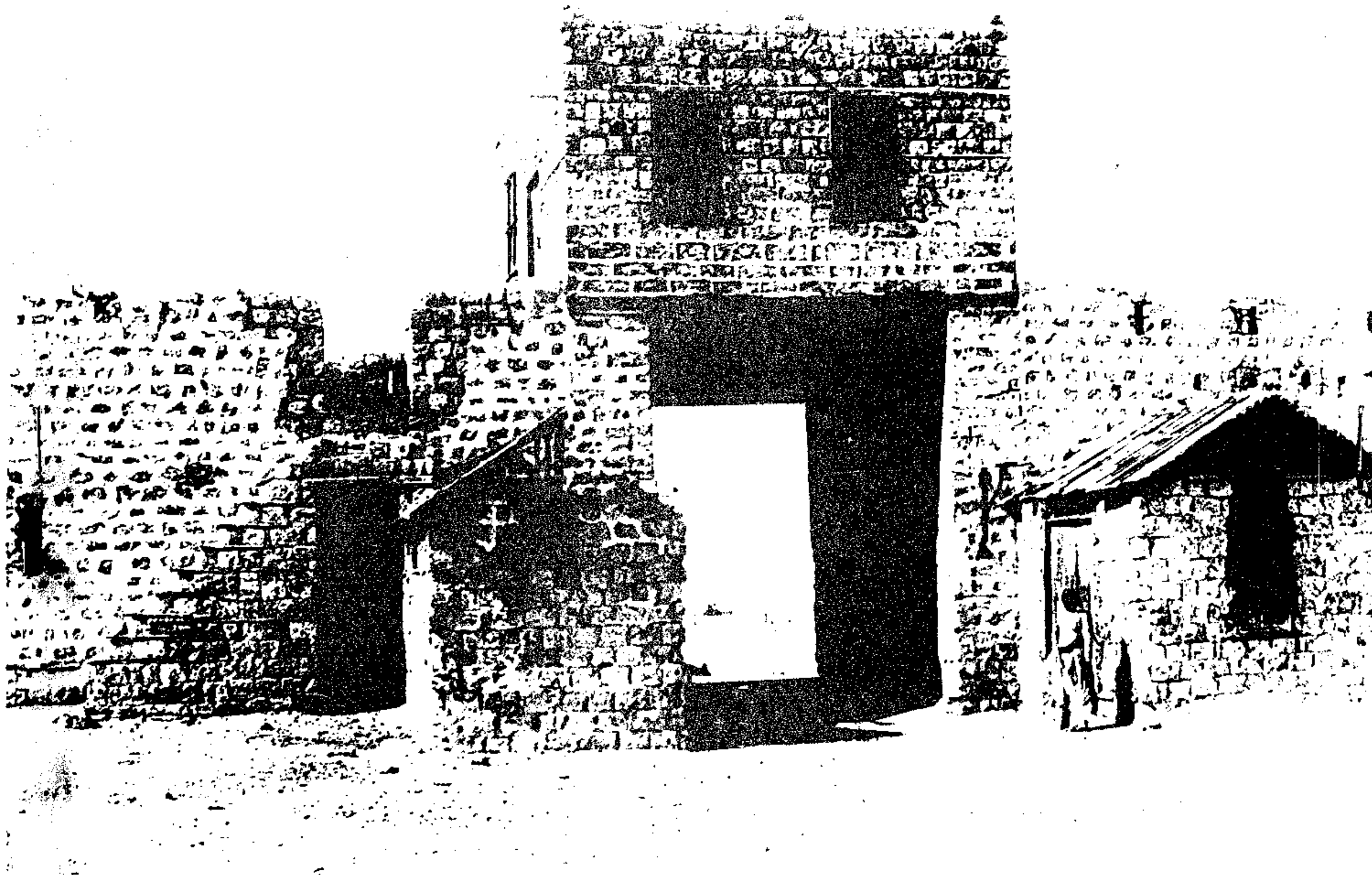
مجموعة من الصور الفوتوغرافية النادرة لبعض مظاهر العمارة والنشاط البشري في بلاد ينبع



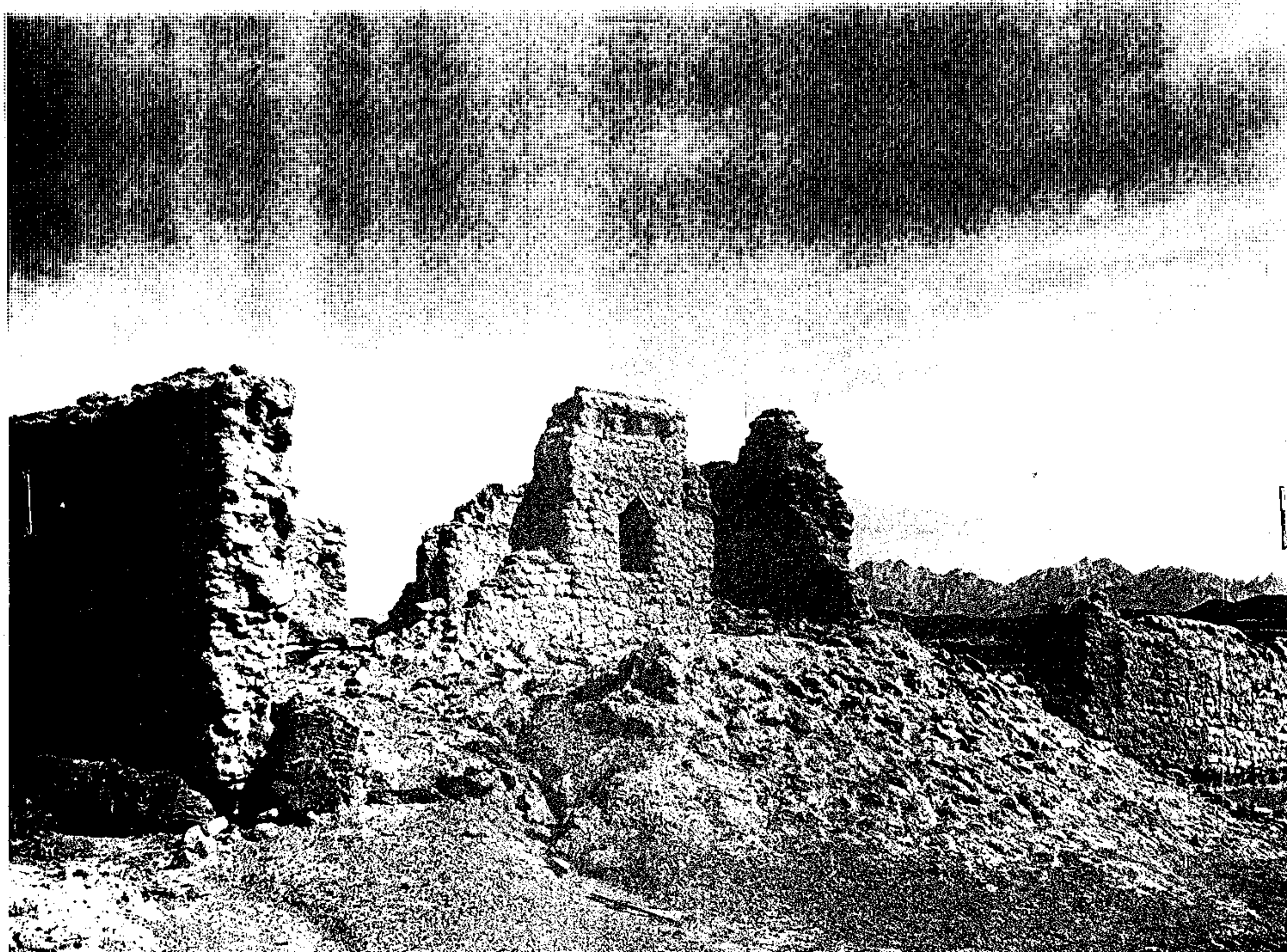
الجبال الرواسي
في الخلفيــة ،
والنخيـــل ،
والأطلال القديمة ،
والبشر ..
مكونات لوحة
طبيعية صاغتها
يد الخالق
العظيم في
« ينبع النخيل » .



مشهد لبئر قديمة تعلوها الأتربة الأنقاض والزائلة: ذات يوم كانت هنا حياة !



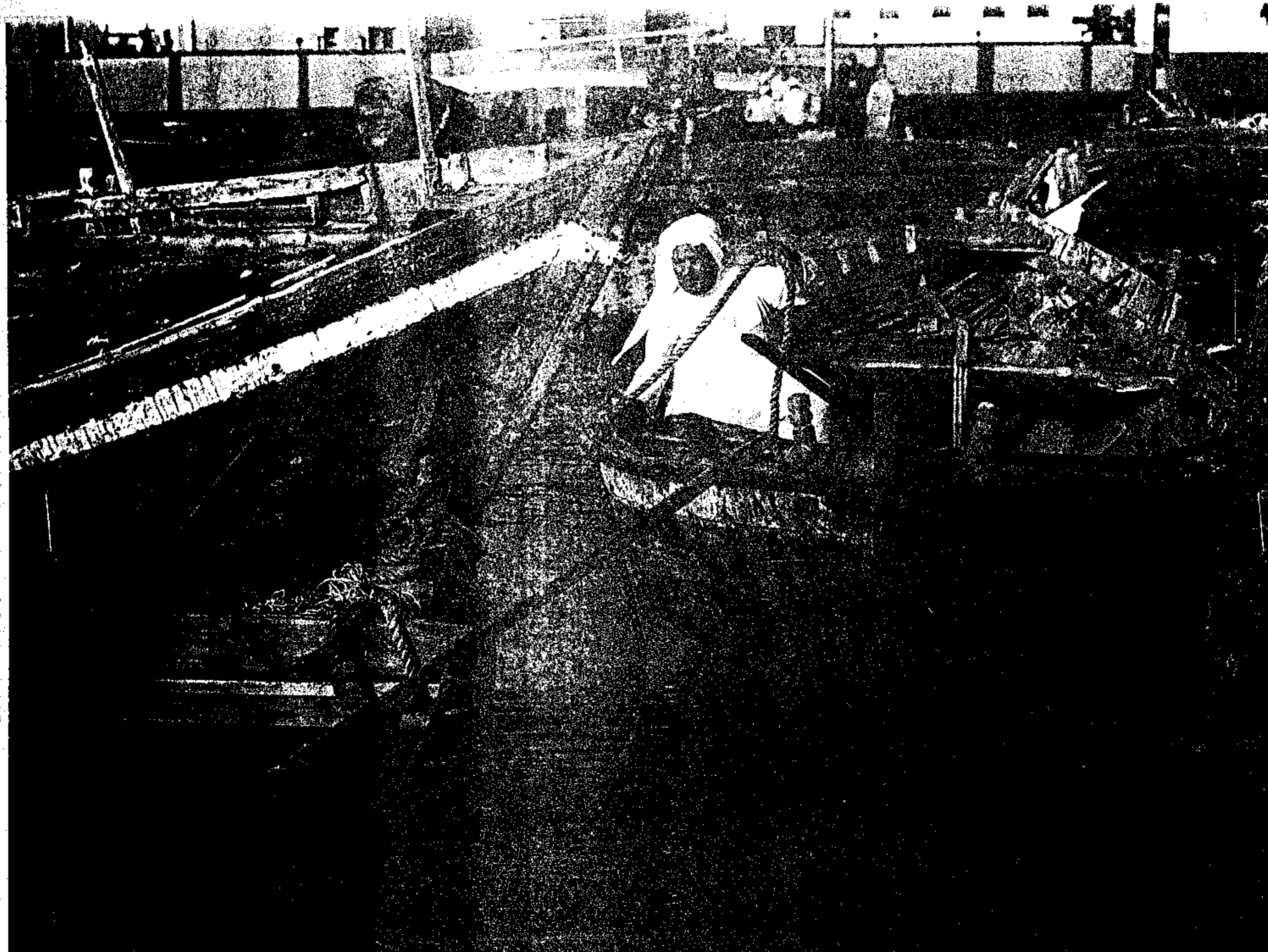
واجهة لسور
ينبع القديم..
تشهد ببراعة
الأجداد في
الدفاع عن
مدينتهم ضد
أية اعتداءات
خارجية..



أطلال قلعة
قديمة بقيت
لتعلن في تحدٍّ
بالغ لكل عوامل
الطبيعة عن
مجدٍ غـابر
للأولين من
أبناء ينبع ..



تجفيف الأسماك
والتمور..
صناعة قديمة
أتقنها أبناء
ينبع.. مصدرًا
لقوتهم ورزقهم



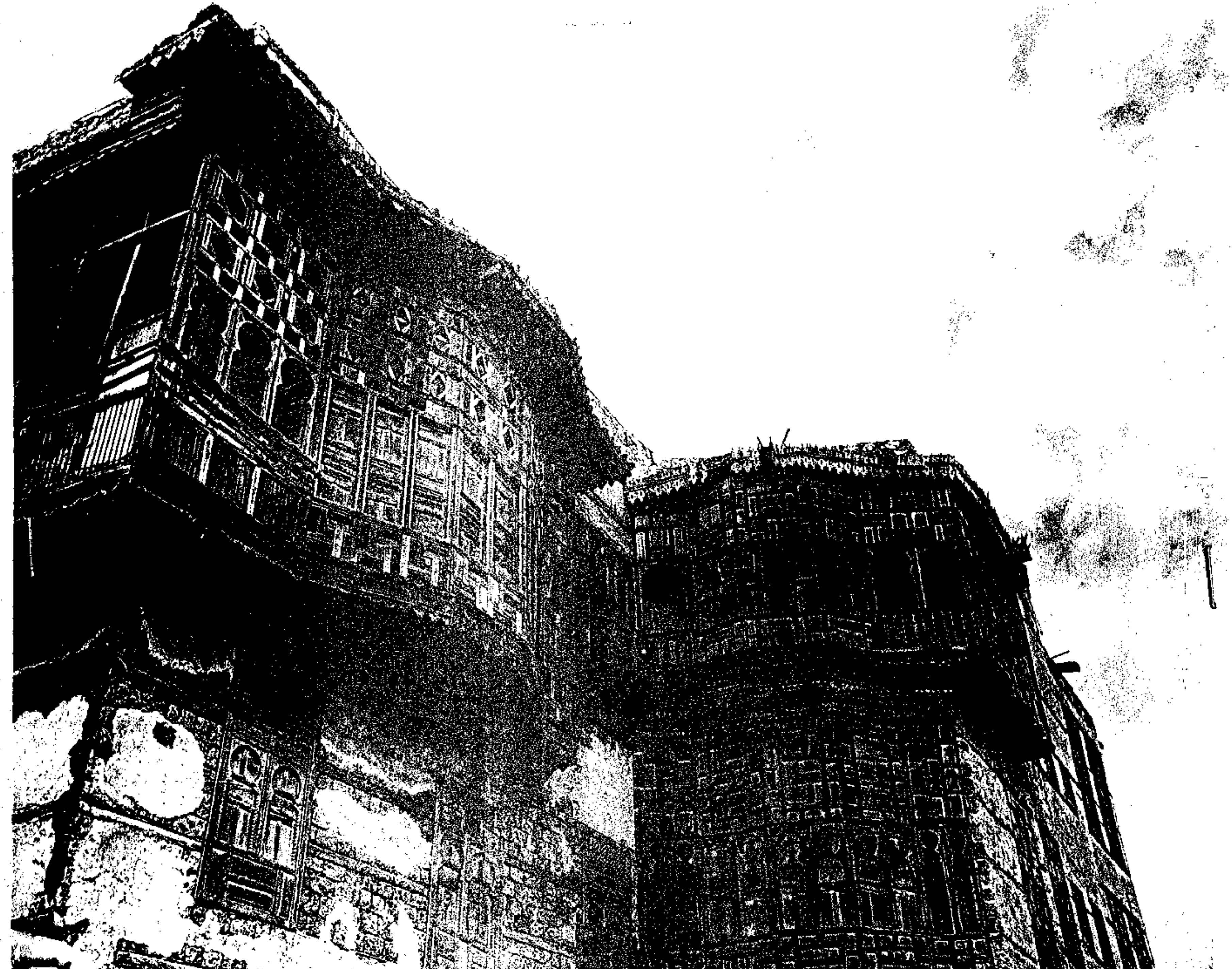
حياة البحر..
عشق أبناء
ينبع.. كشأنه
كل أبناء
المدن
الساحلية..



نحن نلقي
بشباكنا..
وننتظر من
الله الرزق
الوفير..

بنايات ينبع القديمة وقد ارتفعت في إباء وشمم، تكسوها الرواشن الرائعة.. لا يقطع صمتها سوى أسلاك الكهرباء الحديثة..





أحد الرواشن
التي تشهد
بعبقرية فنان
ينبع القديم ..



كأن يد الفنان الماهر لم تفرغ من الانتهاء من
هذا الروشن إلا في هذه اللحظة فقط..!

أولا : المصادر المخطوطة :

ابن اياس (ت٩٣٠هـ)
محمد بن أحمد
نشق الأزهار في عجيب الأقطار
مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٤٩ جغرافيا .

الخالدي (ت قبل ٨٤١هـ/١٤٣٨م)
المقصد الرفيع المنشا الهادي لصناعة الانشا
مخطوطة مصورة دار الكتب المصرية رقم ٢١٠٣١ الرمز ز .

الخضراوي (ت١٣٢٤هـ)
أحمد بن محمد بن أحمد المكي الشافعي
مختصر حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج
مكتبة الحرم رقم ١٦٣ تاريخ .

السنجاري (ت١١٢٥هـ)
علي بن تاج الدين بن تقي الدين المكي
منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم (٣ أجزاء)
مخطوط بجامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي
رقم ٣٠ تاريخ .

الطبري (ت١٠٧٠هـ)
محيي الدين علي بن عبد القادر الشافعي الحسني
الأرج المسكي في التاريخ المكي
مكتبة الحرم رقم ٣ تاريخ .

ابن عبد الهادي
(الطاهر عبد الهادي بن محمد بن صالح)

الدر الفاخر في خبر الأوائل والأواخر
دارة الملك عبد العزيز الرياض رقم ١٢١ق .
العيني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)
بدر الدين محمود
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .
ابن فضل الله الطبري (ت١١٧٣هـ)
محمد بن علي
إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن
مخطوط مصور بمعهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ٨٧٠ .
النابلسي
عبد الغني النابلسي (الشيخ)
الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز
مخطوط بمكتبة الحرم المكي تحت رقم ٤١
ابن النجار (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)
الدرر الثمينة في فضل المدينة
مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٩ تاريخ دهلوي

<u>ثانيا : المصادر المطبوعة :</u>

ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
عز الدين ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري
الكامل في التاريخ
ط٤ ، دار الكتاب العربي ببيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

الادريسي (ت٥٥٦هـ/١١٦٠م)
محمد بن محمد بن عبيد الله بن علي الشريف
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
تحقيق د. إبراهيم شوكة ، نشر مجلة المجتمع العلمي العراقي ، ج٢ ، ١٩٧١م .
الأزرقي (ت٢٢٣هـ)
أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد
أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار
تحقيق رشدي الصالح ملحس ، مكة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .
الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)
أبو الفرج علي بن حسين
الأغاني
شرحه وكتب هوامشه الأستاذ علي مهنا وآخر ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
الاصخطري (ت٣٤٠هـ/٩٥١م)
أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي
المسالك والممالك
تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م مصر .
ابن إياس (ت٩٣٠هـ)
محمد بن أحمد الناصري
بدائع الزهور في وقائع الدهور
بولاق ١٣١١هـ ، جمعية المستشرقين الألمان بالقاهرة ، تحقيق محمد مصطفى ١٩٦٠-١٩٦٣م .

ابن أيبك (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
أبو بكر بن عبد الله الدوادار
كنز الدرر وجامع الغرر (٩ أجزاء)
١ ـ الجزء الثامن : الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية ، تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
٢ ـ الجزء التاسع : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .
البخاري
الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردازبة البخاري الجعفي
صحيح البخاري
دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
البرزالي (ت٧٣٩هـ)
كتاب المقتفى
الحافظ علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي
البركاتي
شرف الدين بن عبد المحسن البركاتي
الرحلة اليمانية مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها
الطبعة الثانية ، بدون سنة الطبع ومكانه .
ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة
رحلة ابن بطوطة
الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان.

البغدادي (ت٧٣٩هـ)
صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي
مختصر معجم البلدان لياقوت
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع
تحقيق علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
البغدادي (ت٧٨٠هـ/١٣٨٧م)
خالد بن عيسى
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق
تحقيق ومقدمة الحسن السائح ، بدون ذكر سنة الطبع .
البكري (ت٤٨٧هـ)
أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي
معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع
تحقيق مصطفى السقا . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١هـ/١٩٥١م .
البلاذري (ت٢٧٩هـ)
الإمام أبي الحسن البلاذري
فتوح البلدان
راجعه والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
التجيبي (ت٧٣٠هـ/١٩٣٩م)
القاسم بن يوسف التجيبي السبتي
مستفاد الرحلة والاغتراب

تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

ابن تغري بردي (٨١٣-٨٧٤هـ)

جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي

١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢ ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي

تحقيق فهيم شلتوت ، نشر مركز البحوث العلمية وتحقيق التراث بجامعة أم القرى ١٩٨٣م .

الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ)

أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر

تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، ط/الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية .

ابن جبير (ت٦١٤هـ)

أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي

الرحلة

طبعة بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

الجزيري (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م)

عبد القادر محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي

درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطرق مكة المعظمة

أعده للنشر حمد الجاسر ، ط/١ ، دار اليمامة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ابن حجر (ت٨٥٢هـ)
شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني
١ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، حيدر آباد ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .
٢ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر
تحقيق حسن حبشي ، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٩٦م .
الحربي (ت٣٨٥هـ)
أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم
المناسك وأماكن وطرق الحج ومعالم الجزيرة
تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٩هـ .
الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي
معجم البلدان
دار صادر ، بدون ذكر سنة الطبع .
الحميري (ت٤٩٤هـ/٩٠٠هـ)
محمد بن عبد المنعم الحميري
الروض المعطار في خبر الأقطار
حققه د. إحسان عباس ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، مكتبة لبنان .
الحنبلي (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م)
أحمد بن إبراهيم
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب
تحقيق ناظم رشيد ، بدون ذكر سنة الطبع .

ابن حوقل (ت٣٦٧هـ/٩٧٨م)
أبو القاسم بن حوقل النصيبي
صورة الأرض
الناشر دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، بدون تاريخ .
ابن خرداذبه (ت٣٠٠هـ)
أبو القاسم عبد الله بن عبد الله
المسالك والممالك
طبعة ليدن ١٩٠٩م .
الخزرجي (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)
الشيخ علي بن الحسن الخزرجي
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية
دار صادر ، بيروت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .
خسرو (٤٩٨هـ/١١٠٤م)
ناصر
سفر نامه
ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٠م .
ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨١م)
أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
٨ أجزاء ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠-١٩٧١م .

ابن الديبع (ت٩٤٣هـ)
أبو الضياء عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني
قرة العيون بأخبار اليمن الميمون
تحقيق محمد الأكوع ، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩١٧م .
دحلان (ت١٣٠٤هـ)
أحمد زيني
١ ـ خلاصة الكلام في أخبار أمراء البلد الحرام
القاهرة ١٣٠٥هـ .
٢ ـ أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ حتى الشريف الحسين بن علي
الدرعي (ت١٢٢٩هـ)
ابن عبد السلام الناصري الدرعي المغربي
الرحلة
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، تحقيق حمد الجاسر .
الدينوري (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)
أبو حنيفة أحمد بن داود
الأخبار الطوال
تحقيق عبد المنعم عامر ، ومراجعة جمال الدين الشيال ، ط/١ ، القاهرة ١٩٦٠م .
السبتي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)
القاسم بن يوسف التجيبي السبتي
مستفاد الرحلة والاغتراب

تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور ، الدار العربيـــة للكتـــاب ، ليبيــا ،
وتونس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر عثمان
١ ـ التبر المسبوك في ذيل الملوك
بولاق ١٨٩٦م .
٢ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م .
٣ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة
تحقيق أسعد طرابزوني الحسيني ، القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م)
الطبقات الكبرى
دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م .
السلمي (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م)
عرام الأصبغ السلمي
أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة ومافيها من القـــرى ومـــابينت
عليها من الأشجار ومافيها من المياه
تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٤هـ/٩٥٥م.
السمهودي (ت٩١١هـ)
نور الدين علي بن أحمد
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ١١٧٤هـ/١٩٥٥م .

السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)
الحافظ جلال الدين عبد الرحمن
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة
ط١ ، دار إحياء التراث العربي ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .
أبو شامة (ت٦٦٥هـ)
عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية
تحقيق محمد حلمي محمد أحمد بالقاهرة ١٩٥٦م .
ابن شاهين (ت٨٧٣هـ)
غرس الدين خليل الظاهري
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
باريس ١٨٩١م .
ابن شبة (ت٢٦٢هـ)
أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري
تاريخ المدينة المنورة وأخبار المدينة المنورة
تحقيق فهيم شلتوت .
الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)
أبو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الأمم والملوك
دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
الظاهري (ت٨٧٣هـ)
غرس الدين خليل بن شاهين
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

اعتنى بتصحيحه بولس راويس ، طبع في مدينة باريس المحروسة بالمطبعة الجمهورية سنة ١٨٩٢م .

ابن ظهيرة (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م)

جمال الدين محمد بن جار الله بن محمد نور الدين أبي بكر علي

الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف

الطبعة ٢ ، القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م .

العبدري (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م)

أبي عبد الله بن محمد بن محمد العبدري الحيحي

رحلة العبدري المسماه الرحلة المغربية

حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي .

العز ابن فهد (ت٩٢٢هـ/١٥١٦م)

عز الدين عبد العزيز بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي

غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام

تحقيق فهيم شلتوت ، ط/١ ، دار المدني ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

العصامي (١٠٤٩-١١١١هـ)

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

بدون ذكر سنة الطبع ، المكتبة السلفية ومكتبتها .

ابن علي (ت١١٠٠هـ/١٦٨٩م)

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني

تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون ذكر سنة الطبع .

ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد
شذرات الذهب في أخبار من ذهب
٨ أجزاء ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
ابن عنبة (ت٨١٨هـ/١٤٢٤م)
جمال الدين أحمد بن علي الحسني
عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب
مجموعة الرسائل الكمالية (٨) في الأنساب ، طبع بمطابع دار الشعب القاهرة ١٩٨٠م نشر مكتبة المعارف بالطائف .
العباسي (متوفى في القرن العاشر الهجري)
المحقق العلامة الشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي
عمدة الأخبار في مدينة المختار
قام بتصحيحه وتحرير ألفاظه الشيخ محمد الطيب الأنصاري رحمه الله كما قام بتصحيحها وضبطها الأستاذ حمد الجاسر ، المكتبة العلمية ، أحمد محمد سلطان غنكاني .
العياشي (ت١٠٩٠هـ)
عبد الله بن محمد العياشي
مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد)
تتعلق بالحج ومشاعره ووصف المدينتين الكريمتين
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع .

الغساني

الملك الأشرف أبو العباس الغساني

العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك

تحقيق محمود عبد المنعم ، بغداد ١٩٧٥م .

الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م)

الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي

١ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

تحقيق عمر عبد السلام التدمري ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٢ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة .

أبو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)

الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة

المختصر في تاريخ البشر ـ ٤ أجزاء

بيروت ١٩٦٧م .

ابن الفقيه

أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني

مختصر كتاب البلدان

ليدن ١٩٦٧م .

فهد : النجم عمر بن فهد (٨١٢-٨٨٥هـ)

محمد بن محمد بن محمد بن فهد

إتحاف الورى بأخبار أم القرى

تحقيق وتقديم فهيم بن شلتوت ، بدون ذكر سنة الطبع ، دار المدنـــي ، جدة .

الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)

مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي

المغانم المطابة في معالم طابة

تحقيق محمد الجاسر ، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض .

القلصاوي (توفي بباجة أفريقية ٨٩١هـ)

أبي الحسن علي القلصاوي الأندلسي

رحلة القلصاوي

دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع .

القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)

أحمد بن علي

صبح الأعشى في صناعة الانشا

القاهرة ١٩١٩م .

ابن كثير (ت٧٧٤هـ)

عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

البداية والنهاية

دار الفكر العربي ، بدون ذكر سنة الطبع .

ابن المجاور (ت٦٩٠هـ/١٢٩١م)

جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد

صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر

ليدن ١٩٥١م .

المراغي (ت٨١٦هـ)
زين الدين أبي بكر بن الحسين بن عمر أبي الفخر المراغي
تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة
صححه وحققه محمد عبد الجواد الأصمعي ، بدار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، أحمد محمد سلطان غنكاني .
المطري (ت٧٤١هـ)
محمد بن أحمد المطري
التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة
المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، جميع الحقوق محفوظة ١٤٠٢هـ بيروت .
المقدسي (ت٣٧٨هـ/٩٩٠م)
شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٧٣م .
المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
تقي الدين أحمد بن علي
١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك
نشر محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، بدون تاريخ .
٢ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك
تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الموسوي (ت١٠٧٠هـ)
محمد بن عبد الله الحسني
رحلة الشتاء والصيف
تحقيق محمد سعيد الطنطاوي ، ط/الأولى ، القاهرة ١٣٩٣هـ .
النويري (ت٧٣٢هـ)
شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب
طبع منه ١٨ جزءا في دار الكتب المصرية .
النهروالي (ت٩٨٨هـ)
محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهروالي قطب الدين الحنفي
١ ـ البرق اليماني في الفتح العثماني
٢ ـ الإعلام بأعلام بلد الله الحرام
ابن واصل (ت٦٩٧هـ)
جمال الدين محمد بن سالم بن واصل
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب
حققه ووضع حواشيه د. حسنين محمد ربيع ، راجعه وقدم له د.سعيد عبد الفتاح عاشور ، بدون ذكر طبعة أو دار النشر .
اليعقوبي (ت في القرن الثالث الهجري/التاسع م)
أحمد بن أبي يعقوب بن واضح
١ ـ تاريخ اليعقوبي
طبعة دار صادر ببيروت بدون تاريخ .
٢ ـ كتاب البلدان
ليدن ١٨٩٢م .

ثالثا : المراجع الحديثة :

أحمد

أحمد رمضان

الرحلة والرحالة المسلمون

دار البيان العربي للطباعة .

أحمد

محمد عبد العال

بنو رسول وبنو طاهر

بدون تاريخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية .

أ.ي.ونسنك (مستشرق وآخرون)

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي

مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٢٦م .

البتنوني

محمد لبيب البتنوني

الرحلة الحجازية

الطبعة الثانية ١٣٢٩هـ ، طبع بمطبعة الجمالية بمصر .

البرادعي

أحمد عبد الله الحسيني

الدرة السنة في أنساب الحسنية والحسينية

مكة ١٣٧٥هـ .

بكر

سيد عبد المجيد

دروب الحجيج ــ الملامح الجغرافية

الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

البلادي

عاتق بن غيث البلادي

١ ــ (على طريق الهجرة) رحلات في قلب الحجاز

الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، دار مكة للطباعة والنشر .

٢ ــ نسب حرب

قبيلة حرب أنسابها ، فروعها ، تاريخها ، وديارها

الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار مكة للنشر والتوزيع .

٣ ــ معجم معالم الحجاز

الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار مكة للنشر .

٤ ــ معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية

دار مكة للنشر .

بوركهارت : جون لويس

رحلات في شبه جزيرة العرب

ترجمة د. عبد العزيز بن صالح الهلابي ، د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

بيضون

إبراهيم

الحجاز والدولة الإسلامية

دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

بيرين

جاكلين بيرين

اكتشاف جزيرة العرب ـ خمسة قرون من المغامرة والعلم

نقله إلى العربية (قدري قلعجي) ، قدم له حمد الجاسر ، دار الكاتب العربي ، مكتبة النهضة ، بغداد ، بدون تاريخ .

الجاسر

حمد

بلاد ينبع ـ لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض .

الجوهري

يسري

الوطن العربي دراسة في الجغرافية التاريخية والإقليمية

دار القلم ، الإسكندرية ١٩٥٧م .

حرب

د. جميل حرب

الحجاز واليمن في العصر الأيوبي

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الحسني

الشريف محمد بن علي الحسني

العقود اللؤلؤية في بعض أنساب الأسرة الحسنية الهاشمية بالمملكة العربية السعودية

١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

حسن

حسن إبراهيم

١ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م .

٢ ـ تاريخ الدولة الفاطمية

الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨م .

حمدان

جمال

جغرافية المدن

الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٧م .

الخضري

محمد

تاريخ التشريع الإسلامي

ط٧ ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

الخطيب

عبد الكريم محمود

تاريخ ينبع

خورشيد

إبراهيم زكي وآخران

دائرة المعارف الإسلامية

النسخة العربية ، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخران .

راوه

عبد الفتاح حسين إسماعيل محمد طيب راوه

أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام ـ عصر النبي ﷺ حتى عصرنا الحاضر

الناشر مكتبة المعارف ، الطائف ، بدون ذكر سنة الطبع .

ربيع

حسنين محمود

النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين

القاهرة ١٩٦٤م .

رفعت

إبراهيم باشا

مرآة الحرمين

الطبعة الأولى ، دار المكتبة المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م ، الجزء الثاني .

الزيلعي

أحمد عمر

مكة وعلاقاتها الخارجية

الرياض ١٩٨١م .

سالم

د. السيد عبد العزيز

البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي

السباعي

أحمد

تاريخ مكة

نادي مكة الثقافة ١٣٩٩هـ/١٩٧٤م .
سرور
د. محمد جمال الدين
تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق العربي
القاهرة ١٩٦٧م .
سرور
الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله بن سرور
قبائل الطائف وأشراف الحجاز
الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .
شاكر
محمود
شبه جزيرة العرب ـ الحجاز
بدون ذكر سنة الطبع ، المكتب الإسلامي ، سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا ١٤ .
شراب
محمد محمد حسن شراب
المدينة في العصر الأموي
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، بيروت .
الشريف
أحمد إبراهيم
مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ
الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

صبري

أيوب باشا

مرآة جزيرة العرب

ترجمة وتقديم وتعليق د. أحمد فؤاد متولـــي ، د. الصفصـــافي أحمـــد المرسي ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، الناشـــر دار الرياض للنشر والتوزيع .

ضرار

محمد صالح ضرار

تاريخ سواكن والبحر الأحمر

طبعة دمشق سنة ١٤٠١هـ/١٩٩١م .

أبو العلا

د. محمود طه

جغرافية شبه جزيرة العرب ــ الجزء الثاني

الطبعة الثانية ١٩٧٢م ، مؤسسة سجل العرب .

علي

جواد

١ ــ المفصل في تاريخ أنساب العرب

بدون تاريخ .

٢ ــ تاريخ العرب قبل الإسلام

المجمع العلمي العراقي ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م .

عاشور

د. سعيد عبد الفتاح

١ ــ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام

الطبعة الثانية ١٩٧٦م ، دار النهضة العربية .

٢ ـ الحركة الصليبية ـ جزآن
القاهرة ١٩٦٣م .
٣ ـ العصر المماليكي في مصر والشام
دار النهضة المصرية ١٩٥٨م .
العياشي
إبراهيم بن علي
المدينة بين الماضي والحاضر
بدون طبعة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، بدون طبعة ، المكتبة العلمية في المدينة المنورة ، صاحبها الشيخ محمد سلطان النمنكاني .
غبان
علي بن إبراهيم بن علي حامد غبان
الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ـ مدخل عام
الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
فهمي
نعيم زكي
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى
القاهرة ١٩٧٣م .
القوصي
عطية
تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية
دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦م .

محمد

فتحي

دراسات في جغرافية شبه الجزيرة العربية

مصطفى

صالح لمعي مصطفى

المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري

بيروت ١٩٨١م ، دار النهضة العربية ، بيروت .

رابعا : الأطروحات العلمية الجامعية :

باقاسي

عائشة عبد الله

١ ـ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) رسالة ماجستير منشورة .

ط/١ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢ ـ مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الهجري

رسالة دكتوراه غير منشورة .

جلال

آمنة حسين محمد علي

طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي

رسالة دكتوراه غير منشورة .

الحسن

سعاد إبراهيم بن محمد

النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي

رسالة ماجستير غير منشورة .

العليان

محمد عبد الفتاح

الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن

١٩٧٣م . رسالة دكتوراه غير منشورة .

المالكي

سليمان عبد الغني

١ ــ مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة من السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية

رسالة ماجستير منشورة .

٢ ــ بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري

رسالة دكتوراه منشورة .

الهمذاني

بندر محمد رشيد

علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم

رسالة ماجستير غير منشورة .

خامسا : الدوريات والأبحاث والتقارير والمجلات المتخصصة :

- وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى
الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الرياض سنة ١٩٧٧م . د. حسنين ربيع . ص١٣٤

- الجار ميناء ومدينة
بحث منشور ضمن ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار التي عقدت بمقر اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة جمادى الآخرة ١٤١٤هـ/ نوفمبر ١٩٩٣م . د. ضيف الله الزهراني . ص٢٥٢-٢٥٣ .

- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثاني ص١٩ سنة ١٩٥٢م . د. صبحي لبيب .

- طرق الحج والتجارة العربية في العصر الإسلامي
مجلة الفيصل العدد ١٨ ص٥٩ . محمود عبد الله .

- الحجاز في القرن السابع الهجري ـ دراسة في رحلة ابن رشيد الأندلسي
مجلة العرب ، ج٢ ، ص٤ ، شعبان ١٣٨٥هـ ، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٥م ، ص١٦٤-١٦٥ . تحقيق حمد الجاسر .

- تقرير اللجنة الأثرية لمعاينة آثار ينبع والتي شكلت بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ
ص١٣ . إصدار الجمعية الجغرافية بالمنطقة .

- دراسة عن رحلة ابن رشيد ٦٨٤هـ إلى مكة والمدينة بعنوان (ملء العيبة ، فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة)

مجلة العرب ، العدد الأول ، السنة الرابعة رجب سنة ١٣٨٩هـ ص٦٠.

- من أبحاث الندوة العلمية التي أعدها بعض أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ جامعة الملك سعود بمناسبة مرور ثلاثين عاما على انشاء القسم .

بحث بعنوان (أثر غزو المغول لبغداد على حركة التجارة البحرية عبر البحر الأحمر والخليج العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري) د.محمد عبد العال أحمد ، ج١ ، ص٢٦٢ ومابعدها ، الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

- دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ــ لعدد من المؤرخين والجغرافيين

من أبحاث الندوة العالمية الأولى التي نظمتها كلية الآداب جامعة الملك سعود ــ الرياض في الفترة من ١٥-٢١ من محرم ١٤٠٤هـ ، المجلد الثاني ص٣٧ .

- إيضاحات جديدة على التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري

من أبحاث الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الموسم الثقافي ٦٧-١٩٦٨م ، د. أحمد دراج .

فهرس الموضوعات